http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

وفى (أسر) لغتان : قطع الهمزة ، من الإسراء ، ووصلها من السّرى ، وقرىء بهما معا ، و(إلا امرأتك) بالرفع بدل من (أحد) ، وبالنصب منصوب بالاستثناء من (فأسر بأهلك). ومنشأ القراءتين : هل أخرجها معه ، فالتفت أم لا؟

فمن رفع ذهب إلى أنه أخرجها. ومن نصب ذهب إلى أنه لم يسر بها ، وهما روايتان.

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا ، وهم الملائكة المتقدمون ، لُوطاً سِيءَ بِهِمْ ساءه مجيئهم لأنهم أتوه فى صورة غلمان حسان الوجوه ، فظن أنهم بشر ، فخاف عليهم من قومه أن يقصدوهم للفاحشة ، ولا يقدر على مدافعتهم ، وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً أي : ضاق صدره بهم ، وَقالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ : شديد ، من عصبه : إذا شده ، وروي أن اللّه تعالى قال لهم : لا تهلكوا قومه حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات ، فلما مشى معهم منطلقا بهم إلى منزله ، قال لهم : أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا : وما أمرهم؟ قال : أشهد باللّه أنها شرّ قرية فى الأرض عملا. قال ذلك أربع مرات. فدخلوا منزله ، ولم يعلم بذلك أحد ، فخرجت امرأته فأخبرتهم ، وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ يسرعون إِلَيْهِ كأنهم يدفعون إليه دفعا ، لطلب الفاحشة من أضيافه. وَمِنْ قَبْلُ ذلك الوقت كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ الفواحش ، كاللواطة وغيرها ، مستمرين عليها مجاهرين بها ، حتى لم يستحيوا ، وجاءوا يهرعون إليها.

قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي تزوجوهن ، وكانوا يطلبونهن قبل ، فلا يجيبهم لخبثهم ، وعدم كفاءتهم ، لا لحرمة المسلمات على الكفار ، فإنه شرع طارئ قال ابن جزى : وإنما قال لهم ذلك ليقى أضيافه ببناته. قيل : ان اسم بناته ، الواحدة : ريثا ، والأخرى : غوثا. هـ. ولم يذكر الثالثة ، فعرضهن عليهم «١» ، وقال : هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ أحل لكم ، أو أقل فحشا ، كقولك : الميتة أطيب من المغصوب ، فَاتَّقُوا اللَّهَ بترك الفواحش ، وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي فى شأنهم ، فإن افتضاح ضيف الرجل خزى له. أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ عاقل يهتدى إلى الحق ويرعوى عن القبيح.

قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ من حاجة ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ وهو إتيان الذكران ، قالَ لَوْ أَنَّ لِي ليت لى بِكُمْ قُوَّةً طاقة على دفعكم بنفسي ، أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ أو ألجأ إلى أصحاب أو عشيرة يحموننى منكم ، شبه ما يتمتع بهم بركن الجبل فى شدته ، قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «رحم اللّه أخى لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد» «٢» يعنى : اللّه تعالى.

(١) قال مجاهد وغيره : إن المراد ببناته عليه السّلام نساء أمته ، وأضافهم إليه لأن كل نبى أب لأمته. [.....]

(٢) أخرجه البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب : «ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون»).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٤٧

روى أنه أغلق بابه دون أضيافه ، وأخذ يجادلهم من وراء الباب ، فتسوروا الجدار ، فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب ، قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ : لن يصلوا إلى إضرارك بإضرارنا ، فهون عليك ودعنا وإياهم. فخلاهم ، فلما دخلوا ضرب. جبريل عليه السّلام بجناحيه وجوههم ، فطمس أعينهم ، وأعماهم ، فخرجوا يقولون : النجاء النجاء فى بيت لوط سحرة ، فقالت الملائكة للوط عليه السّلام : فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ سر بهم بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ : بطائفة منه ، وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ : لا يتخلف ، أو لا ينظر إلى ورائه لئلا يرى ما يهوله.

والنهى فى المعنى يتوجه إلى لوط ، وإن كان فى اللفظ مسندا إلى أحد.

إِلَّا امْرَأَتَكَ ، اسمها : واهلة. أي : فلا تسر بها ، أو : ولا ينظر أحد منكم إلى ورائه إلا امرأتك فإنها تنظر.

روى أنها خرجت معه ، فلما سمعت صوت العذاب التفتت وقالت : يا قوماه ، فأدركها حجر فقتلها ، ولذلك قال :

إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ من العذاب ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ وقت الصُّبْحُ فى نزول العذاب بهم ، فاستبطأ لوط وقت الصبح ، وقال : هلا عذبوا الآن؟ فقالوا : أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ.

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا عذابنا ، أو أمرنا به ، جَعَلْنا مدائنهم عالِيَها سافِلَها ، روى أن جبريل عليه السّلام أدخل جناحه تحت مدائنهم ، ورفعها إلى السماء ، حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب ، وصياح الديكة ، ثم قلبها بهم.

وَأَمْطَرْنا عَلَيْها على المدائن ، أي : أهلها ، أو على ما حولها. روى أنه من كان منهم خارج المدائن أصابته الحجارة من السماء ، وأما من كان فى المدائن ، فهلك لمّا قلبت. فأرسلنا عليهم حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ : من طين طبخ بالنار ، أو من طين متحجر كقوله : حِجارَةً مِنْ طِينٍ «١» ، وأصلها : سنكين «٢» ، ثم عرب ، وقيل : إنه من أسجله إذا أرسله ، أي : من مثل الشيء المرسل ، وقيل : أصله من

سجين ، أي : جهنم ، ثم أبدلت نونه لاما ، مَنْضُودٍ : مضموم بعضه فوق بعض ، معدا لعذابهم ، أو متتابع يتبع بعضه بعضا فى الإرسال ، كقطر الأمطار.

مُسَوَّمَةً أي : معلمة للعذاب ، وقيل : معلمة ببياض وحمرة ، أو بسيما تتميز به عن حجارة الأرض ، أو باسم من يرمى به فكل حجارة كان فيها اسم من ترمى به ، وقوله : عِنْدَ رَبِّكَ ، أي : فى خزائن علمه وقدرته ، وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ، بل هى قريبة من كل ظالم.

قال ابن جزى : الضمير للحجارة ، والمراد بالظالمين : كفار قريش ، فهذا تهديد لهم ، أي : ليس الرمي بالحجارة ببعيد منهم لأجل كفرهم ، وقيل : الضمير للمدائن ، أي : ليست مدائنهم ببعيد منهم أفلا يعتبرون بها. كقوله :

---

(١) من الآية ٣٣ من سورة الذاريات.

(٢) فى البيضاوي : «سنك كل».

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٤٨

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ «١». وقيل : الظالمين على العموم. هـ. وقال البيضاوي : وعنه – عليه الصلاة والسلام : «أنّه سأل جبريل ، فقال : يعنى : ظالمى أمّتك ، ما من ظالم منهم إلّا وهو معرض لحجر يسقط عليه من ساعة» إلى ساعة» «٢». هـ.

الإشارة : الاعتناء بشأن الأضياف ، وحفظ حرمتهم : من شأن الكرام ، والاستخفاف بحقهم ، والتجاسر عليهم ، من فعل اللئام. وفى الحديث : «من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه». والإسراع إلى الفواحش من علامة الهلاك ، لا سيما اللواط والسفاح. والإيواء إلى اللّه والاعتصام به من علامة الفلاح ، والبعد عن ساحة أهل الفساد من شيم أهل الصلاح ، وكل من اشتغل بالظلم والفساد فالرمى بالحجارة إليه بالمرصاد.

ثم ذكر قصة شعيب ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٨٤ الى ٨٦]

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦)

قلت : «مفسدين» : حال مؤكدة لمعنى عاملها ، وهو : «لا تعثوا». وفائدة ذكره : إخراج ما يقصد به الإصلاح ، كما فعله الخضر عليه السّلام.

يقول الحق جل جلاله : وَأرسلنا إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً ، أراد أولاد مدين بن إبراهيم عليه السّلام أو أهل مدين ، وهى بلده ، فسميت باسمه ، قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وحده ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ، وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ ، وكانوا مطففين. أمرهم أولا بالتوحيد فإنه رأس الأمر ، ثم نهاهم عما اعتادوه من : البخس المنافى للعدل ، المخل بحكمة المعاوضة ، ثم قال لهم : إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ بسعة كرخص الأسعار ، وكثرة الأرزاق ، فينبغى أن تشكروا عليها ، وتتعففوا بها عن البخس ، لا أن تنقضوا الناس حقوقهم ، أو بسعة ونعمة ، فلا

---

(١) من الآية : ٤٠ من سورة الفرقان.

(٢) عزاه فى الفتح السماوي (٢/ ٧٢١) للثعلبى مرفوعا ، بغير إسناد.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٤٩

تزيلوها بما أنتم عليه فإن من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ يوم القيامة ، فإنه محيط بكل ظالم ، أو عذاب الاستئصال فى الدنيا ، ووصف اليوم بالإحاطة ، وهى صفة العذاب لاشتماله عليه.

وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ بالعدل من غير زيادة ولا نقصان. صرح بالأمر بالاستيفاء بعد النهى عن ضده مبالغة ، وتنبيها على أنهم لا يكفيهم الكف عن تعمد التطفيف ، بل يلزمهم السعى فى الإيفاء ولو بالزيادة ، حيث لا يتأتى دونها ، وقد تكون الزيادة محظورة ، ولذلك أمرهم بالعدل فى قوله : (بالقسط) ، بلا زيادة ولا نقصان.

وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ لا تنقصوهم حقهم ، وهو تعميم بعد تخصيص ، فإنه أعم من أن يكون فى الميزان والمكيال وفى غيره ، وكذا قوله : وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ فإن العثو – وهو الفساد – يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد. وقيل : المراد بالبخس : المكس ، كأخذ العشور فى المعاملات ، والعثو : السرقة وقطع الطريق والغارة ، وأكده بقوله : مُفْسِدِينَ وفائدته : إخراج ما يقصد به الإصلاح ، كما فعل الخضر عليه السّلام ، وقيل :

معناه : مفسدين أمر دينكم ومصالح آخرتكم. قاله البيضاوي.

بَقِيَّتُ اللَّهِ أي : ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزه عن الحرام ، خَيْرٌ لَكُمْ مما تجمعون بالتطفيف ، إِنْ

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فإن الإيمان يقتضى الاكتفاء بالحلال عن الحرام. أو إن كنتم مؤمنين فالبقية خير لكم ، فإن خيريتها تظهر باعتبار الثواب والنجاة من العذاب ، وذلك مشروط بالإيمان ، أو : إن كنتم مصدقين لى فى قولى لكم.

وقيل : البقية : الطاعة ، كقوله : وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ «١». وقرىء ، «تقية اللّه» بالتاء المثناة ، وهى تقواه التي تكف عن المعاصي ، وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ أحفظ عليكم أعمالكم ، وأجازيكم عليها ، إنما أنا نذير وناصح مبلغ ، وقد أعذرت حين أنذرت. أو : أحفظكم عن القبائح وأمنعكم منها. أو : لست بحافظ عليكم نعم اللّه إن سلبت عنكم بسوء صنيعكم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كما أمر الحق تعالى بالوفاء فى الموازين أمر بالوفاء فى الأعمال والأحوال والمقامات. ولذلك قيل للجنيد فى النوم : [أفضل ما يتقرب به إلى اللّه عمل خفى ، بميزان وفي] ، فالوفاء فى الأعمال : إتقانها فى الظاهر ، باستيفاء شروطها وآدابها ، وإخلاصها فى الباطن مع حضور القلب فيها. والوفاء فى الأحوال : ألا تخرج عن قواعد الشريعة ، بأن لا تكون محرمة ولا مكروهة ، وأن يقصد بها موت النفوس وحياة الأرواح ، والوفاء فى المقام : ألا ينتقل عن مقام إلى غيره حتى يتحقق بالمقام الذي أنزل فيه. وفيه خلاف بين الصوفية : هل يصح الانتقال عن مقام قبل التحقق به ، ثم يحققه فى المقام الذي بعده ، أم لا؟.

---

(١) من الآية : ٤٦ من سورة الكهف.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٥٠

والمقامات التي ينزل فيها المريد : التوبة ، والخوف ، والرجاء ، والورع ، والزهد ، والتوكل ، والصبر ، والرضى ، والتسليم ، والمحبة ، والمراقبة ، والمشاهدة بالفناء ثم البقاء ، أو الإسلام ، ثم الإيمان ، ثم الإحسان. فلا ينتقل من مقام إلى ما بعده حتى يحقق المقام الذي هو فيه ، ذوقا وحالا. وقيل : يجوز أن ينتقل إلى ما بعده إذا كان ذا قريحة فتحقق له ما قبله. واللّه تعالى أعلم. وطريق الشاذلية مختصرة ، تطوى عن المريد هذه المقامات ، فينزل فى أول قدم فى مقام الإحسان ، شعر أم لا ، ثم يحصل الفناء ثم البقاء ، إن وجد شيخا كاملا تربى على يد شيخ كامل ، وإلا فلا.

وقول الجنيد رضى اللّه عنه : (عمل خفى) ، اعلم أن الخفاء على ثلاثة أقسام : خفاء عوام الصالحين ، وهو : إخفاء الأعمال عن الناس مخافة الرياء. وخفاء المريدين ، وهو : الإخفاء عن ملاحظة الخلق ومراقبتهم ، ولو كانوا بين أظهرهم ، فإخفاؤهم قلبى لا قالبى. وخفاء العارفين الواصلين ، وهو : الإخفاء

عن رؤية النفس ، فهم يغيبون عن أنفسهم ووجودهم ، فى حال أعمالهم ، فليس لهم عن نفوسهم إخبار ، ولا مع غير اللّه قرار. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر ما أجابه به قومه فقال :

[سورة هود (١١) : آية ٨٧]

قالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧)

قلت : «تأمرك أن نترك» : على حذف مضاف ، أي : تأمرك بتكليف أن نترك لأن الرجل لا يؤمر بفعل غيره. و(أن نفعل) : عطف على (ما) أي : أو نترك فعلنا فى أموالنا ما نشاء.

يقول الحق جل جلاله : قالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ التي تكثر منها هى التي تَأْمُرُكَ أن تأمرنا أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا من الأصنام ، وندخل معك فى دينك المحدث ، أجابوا به ما أمرهم به من التوحيد بقوله : ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ، على وجه التهكم والاستهزاء بصلواته. وكان كثير الصلاة ، ولذلك جمعوها وخصوها بالذكر. وقرأ الأخوان وحفص بالإفراد المراد به الجنس.

ثم أجابوه عن نهيهم عن التطفيف وأمرهم بالإيفاء ، فقالوا : أَوْ نترك أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا من البخس وغيره؟ وقيل : كانوا يقطعون الدراهم والدنانير ، فنهاهم عن ذلك .. إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ، تهكموا به وقصدوا وصفه بضده ، من خفة العقل والسفه لأن العاقل عندهم هو الحريص على جمع الدنيا وتوفيرها ، وهو الحمق عند العقلاء ، أو إنك موسوم بالحلم والرشيد فلا ينبغى لك أن تنهانا عن تنمية أموالنا والتصرف فيها. واللّه تعالى أعلم.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٥١

الإشارة : الإنكار على من أمر بالخروج عن العوائد والتقلل من الدنيا من طبع أهل الكفر والجهل ، وكذلك رميه بالحمق والسفه. فلا تجد الناس اليوم يعظمون إلا من أقرهم على توفير دنياهم ورئاستهم ، والتكاثر منها ، وأما من زهدهم فيها وأمرهم بالقناعة ، فإنهم يرفضونه ، ويحمقونه. وهذا طبع من طبع الأمم الخالية ، الجاهلة باللّه ، وبما أمر به ، وفى الحديث : «لتتبعنّ سنن من قبلكم ، شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، حتّى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه».

وباللّه التوفيق.

ثم ذكر موعظة شعيب لقومه ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٨٨ الى ٩٠]

قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَما تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)

قلت : جواب «إن كنت» : محذوف ، أي : فهل ينبغى أن أخون فى وحيه وأخالفه فى أمره.

يقول الحق جل جلاله : قالَ شعيب لقومه : يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ، وهى النبوة والعلم والحكمة ، وَرَزَقَنِي مِنْهُ من عنده ، وبإعانته ، بلا كد فى تحصيله ، رِزْقاً حَسَناً : حلالا ، إشارة إلى ما آتاه من المال الحلال. فهل يسع لى بعد هذا الإنعام ، الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية ، أن أخون فى وحيه ، وأخالفه فى أمره ونهيه ، حتى لا أنهاكم عن عبادة الأوثان ، والكف عن العصيان ، والأنبياء لا يبعثون إلا بذلك ، وهذا منه اعتذار لما أنكروا عليه من الأمر بالخروج عن عوائدهم ، وترك ما ألفوه من دينهم الفاسد ، أي : كيف أترك ما أمرنى به ربى من تبليغ وحيه ، وأنا على بينة منه ، وقد أغنانى اللّه عنكم وعن غيركم.

ولذلك قال إثره : وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ أي : وما أريد أن آتى ما أنهاكم عنه لأستبد به دونكم ، فتتهمونى إن أردت الاستبداد به. يقال : خالفنى فلان إلى كذا : إذا قصده وأنت مول عنه ، وخالفنى عنه :

إذا ولى عنه وأنت قاصده. إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ أي : ما أريد إلا أن أصلحكم بأمرى لكم بالمعروف ، ونهيى لكم عن المنكر جهد استطاعتي.

قال البيضاوي : ولهذه الأجوبة الثلاثة على هذا النسق شأن ، وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعى فى كل ما يأتيه ويذره أحد حقوق ثلاثة : أهمها وأعلاها : حق اللّه تعالى. وثانيها : حق النفس ، وثالثها : حق الناس. هـ.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٥٢

قلت : فحق اللّه : كونه على بينة من ربه ، وحق النفس : تمكينه من الرزق الحسن. وحق الناس : نصحهم من غير طمع ، ولا حظ.

ثم قال : وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ وما توفيقى لإجابة الحق ، والصواب ، إلا بهدايته ومعونته ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ فإنه القادر على كل شيء ، وما عداه عاجز بل معدوم ، ساقط عن درجة الاعتبار. وفيه إشارة إلى محض التوحيد ، الذي هو أقصى مراتب العلم باللّه. وَإِلَيْهِ أُنِيبُ أرجع فى جميع أمورى. وَيا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ :

لا يكسبنكم شِقاقِي : معاداتى ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ من الغرق ، أَوْ قَوْمَ هُودٍ من الريح ، أَوْ قَوْمَ صالِحٍ من الصيحة ، والمعنى : لا تخالفوني فيجركم ذلك إلى الهلاك كما هلك الأمم قبلكم ، وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ زمانا ولا مكانا ، فإن لم تعتبروا بمن قبلكم ، فاعتبروا بهم إذ هم ليسوا ببعيد منكم فى الكفر والمساويء ، فلا يبعد عنكم ما أصابهم. وإنما أفرد «بعيد» لأن المراد : وما إهلاكهم ، أو وما هم بشيء بعيد.

وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ عما أنتم عليه إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ عظيم الرحمة للتائبين ، وَدُودٌ متودد إليهم ، فاعل بهم من اللطف والإحسان ما يفعل البليغ المودة بمن يوده ، وهو وعد على التوبة بعد الوعيد على الإصرار. قاله البيضاوي.

الإشارة : قد تضمنت خطبة شعيب عليه السّلام ست خصال ، من اجتمعت فيه فاز بسعادة الدارين :

الأولى : فتح البصيرة ، ونفوذ العزيمة ، وتنوير القلب بمعرفة اللّه ، حتى يكون على بينة من ربه.

الثانية : تيسير الرزق الحلال ، من غير تعب ولا مشقة ، يستعين به على طاعة ربه ، ويقوم به بمؤنة أمره.

الثالثة : السعى فى إصلاح عباد اللّه وإرشادهم ، ودعاؤهم إلى اللّه من غير طمع ولا حرف ، ويكون حاله يصحح مقاله ، فلا يترك ما أمر به ، ولا يفعل ما نهى عنه.

الرابعة : الاعتماد على اللّه والرجوع إليه فى توفيقه وتسديده ، وفى أمر دنياه ودينه ، بحيث لا يرجو إلا اللّه ، ولا يخاف إلا منه.

الخامسة : الحذر والتحذير من مخالفة ما جاءت به الرسل من عند اللّه ، والتمسك بما أمروا به من طاعة اللّه ، والاعتبار بمن هلك قبله ممن خالف أمر اللّه.

السادسة : تحقيق التوبة والانكسار ، والإكثار من الذكر والاستغفار. فذلك سبب المودة من الكريم الغفار. ولأجل هذه الخطبة سمى شعيب خطيب الأنبياء. واللّه تعالى أعلم.

(٥٥٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٥٣

ثم ذكر جواب قومه ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٩١ الى ٩٣]

قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَلَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ (٩١) قالَ يا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي

مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣)

قلت : «سوف تعلمون» : ذكره هنا بغير فاء ، وفى الأنعام بالفاء «١» لأن الكلام فى سورة الأنعام مع الأمة المحمدية ، فأتى بالفاء لمطلق السببية ، وهنا مع قوم شعيب عليه السّلام ، فحذفها لأنه أبلغ فى التهويل. فكأن الجملة بيانية لجواب سائل قال : فما يكون بعد ذلك؟ فقال : سوف تعلمون ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ ما نفهم كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ من أمر التوحيد ، وترك التبخيس ، وما ذكرت من الدليل عليها وذلك لانهماكهم فى الهوى ، وقصور عقلهم ، وعدم تفكرهم. وقيل : قالوا ذلك استهانة بكلامه ، أو لأنهم لم يلقوا إليه أذهانهم لشدة نفرتهم. ثم قالوا : وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً لا قوة لك تمتنع بها منا إن أردنا بك سوءا ، أو : نراك ناحل البدن ، أو : ضرير البصر. وضعفه ابن عطية «٢». وَلَوْ لا رَهْطُكَ أي : قومك ، الذين هم باقون على ملتنا ، وكونهم فى عزة عندنا ، لَرَجَمْناكَ : لقتلناك بالحجارة.

أو بأصعب وجه ، وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ فتمنعنا عزتك من رجمك.

قال البيضاوي : وهذا ديدن السفيه المحجوج ، يقابل الحجج والآيات بالسب والتهديد. وفى إيلاء ضميره حرف النفي تنبيه على أن الكلام فيه لا فى ثبوت العزة ، وأن المانع لهم من إيذائه عزة قومه. ولذلك قال :

يا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا ، وجعلتموه كالمنسى المنبوذ وراء الظهر ، بإشراككم به ، والإهانة لرسوله. وهو يحتمل الإنكار والتوبيخ والرد والتكذيب. والظهرى : منسوب إلى الظهر ، والكسر من تغيير البناء. هـ. قال ابن جزى : فإن قيل : إنما وقع الكلام فيه وفى رهطه ، بأنهم هم الأعزة دونه ، فكيف طابق جوابه كلامهم؟ فالجواب : أن تهاونهم به ، وهو رسول اللّه ، تهاون باللّه. فلذلك قال : أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ. هـ.

---

(١) فى قوله تعالى : (قال يا قوم اعملوا على مكانتكم فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون) الآية : ١٣٥.

(٢) قال ابن عطية : وهذا ضعيف ، لا تقوم عليه حجة بضعف بصره أو بدنه ، والظاهر من قولهم «ضعيفا» أنه ضعيف الانتصار والقدرة.

إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ فلا يخفى عليه شىء منها ، فيجازى عليها بتمامها. وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى

مَكانَتِكُمْ : على حالتكم من تمكنكم فى الدنيا ، وعزتكم فيها ، إِنِّي عامِلٌ على حالى ، سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ ، يهينه فى الدنيا والآخرة ، وَسوف تعلمون مَنْ هُوَ كاذِبٌ منى ومنكم ، وَارْتَقِبُوا وانتظروا ما أقول لكم ، إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ : مرتقب لذلك. وهو فعيل بمعنى فاعل ، كالصريح والرفيع. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : لا يفقه المواعظ والتذكير إلا أهل الإيمان والتنوير. وأما القلب القاسي بالكفر والمعاصي فلا يسمع إلا ما تسمعه البهائم من الناعق والراعي. فبقدر ما يرق القلب يتأثر بالمواعظ ، وبقدر ما يغلظ باتباع الحظوظ والهوى يغيب عن تدبر المواعظ. وسبب تنوير القلب ورقته : قربه من اللّه ، وتعظيمه لحرمات اللّه ، وتعظيم من جاء من عند اللّه من أنبيائه ورسله ، وورثتهم القائمين بحجته ، كالأولياء والعلماء الأتقياء. وسبب ظلمة القلب وقساوته : بعده من اللّه ، وإهانته لحرمات اللّه ، واتخاذه أمره ظهريا ، وجعل ذكره نسيا منسيا. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر هلاك قوم شعيب ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٩٤ الى ٩٥]

وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا : عذابنا لقوم شعيب ، نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ، لا بعمل استحقوا به ذلك إذ كل من عنده ، وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ قيل : صاح بهم جبريل فهلكوا ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ : ميتين. وأصل الجثوم : اللزوم فى المكان. كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها كأن لم يقيموا فيها ساعة ، أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ ، شبههم بهم لأن عذابهم كان أيضا بالصيحة ، غير أن صيحة ثمود كانت من فوق ، وصيحة مدين كانت من تحت ، على ما قيل ، ويدل عليه : التعبير عنهما بالرجفة فى آية أخرى «١» ، والرجفة فى الغالب إنما تكون من ناحية الأرض. وفى البيضاوي خلاف هذا ، وهو غير جيد.

قال قتادة : بعث اللّه شعيبا إلى أمتين : أصحاب الأيكة ، وأصحاب مدين ، فأهلك أصحاب الأيكة بالظلة ، على ما يأتى ، وأما أهل مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا أجمعين. قيل : وآمن بشعيب من الفئتين : تسعمائة إنسان. وكان أهل الأيكة أهل غيطة وشجر ، وكان شجرهم الدّوم «٢» – وهو شجر المقل.

---

(١) كما فى قوله تعالى : فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ. الأعراف ٧٨ ، ٩١.

(٢) الدّوم : شجر يشبه النخلة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٥٥

الإشارة : سبب النجاة من الهلاك فى الدارين : توحيد اللّه ، وتعظيم من جاء من عند اللّه. وسبب الهلاك :

الإشراك باللّه ، وإهانة من عظمه اللّه. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر رسالة موسى عليه السّلام بعد شعيب لأنه من تلامذته ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٩٦ الى ٩٩]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (٩٦) إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا بمعجزاتنا الدالة على صدقه ، وَسُلْطانٍ مُبِينٍ وتسلط ظاهر على فرعون ، أو برهان بيّن على نبوته. قال البيضاوي : والفرق بينهما : أن الآية نعم الأمارة والدليل القاطع ، والسلطان يخص بالقاطع ، والمبين يخص بما فيه جلاء. هـ. أرسلناه إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ جماعته ، فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ أي : اتبعوا أمره بالكفر بموسى ، أو : فما اتبعوا موسى الهادي إلى الحق ، المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة ، واتبعوا طريقة فرعون المنهمك فى الضلالة والطغيان ، الداعي إلى ما لا يخفى فساده على من له أدنى مسكة من العقل لفرط جهالتهم ، وعدم استبصارهم ، وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ أي : ليس أمره برشد وصواب ، وإنما هو غى وضلال.

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ إلى النار ، كما يتقدمهم فى الدنيا إلى الضلال ، فَأَوْرَدَهُمُ : أدخلهم النَّارَ ذكره بلفظ الماضي مبالغة فى تحققه ، ونزّل النار لهم منزلة الماء ، فسمى إتيانها موردا. ثم قال : وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ أي : بئس المورد الذي وردوه ، فإنّ المورد إنما يراد لتبريد الأكباد ، وتسكين العطش ، والنار بضد ذلك.

والآية كالدليل على قوله : وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ فإنّ من هذا عاقبته لم يكن فى أمره رشد ، أو تفسير له ، على أن المراد بالرشيد : ما يكون مأمون العاقبة حميدها. قاله البيضاوي. وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ أي : تتبعهم اللعنة فى الدارين بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ : بئس العون المعان ، أو العطاء المعطى. فالرفد : العطاء ، والإرفاد : المعونة ، ومنه : رفادة قريش ، أي : معونتهم للفقراء فى الحج بالطعام. والمخصوص بالذم محذوف ، أي :

رفدهم ، وهو اللعنة فى الدارين.

الإشارة : إذا أردت أن تعرف قدر الرجل فى مرتبة الخصوصية فاسأل عن إمامه الذي يقتدى به ، فإن كان من أهل الخصوصية فصاحبه من الخصوص ، إن دامت صحبته معه ، وإن كان من العموم فصاحبه من العموم.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٥٦

والمراد بالخصوصية : تحقيق مقام الفناء ، ودخول بلاد المعاني. فكل من لم يحصل مقام الفناء ، ولم يشهد إلا المحسوسات فهو من العوام ، ولو بلغ من العلم والعمل ما بلغ ، ولو رأى من الكرامات أمثال الجبال. فمن صحب مثل هذا الذي لم يفن عن نفسه ، ولم يخرج عن دائرة حسه ، لم يخرج من العمومية لأن نفسه فرعونية. قال تعالى :

وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ، وفى الخبر : «المرء على دين خليله» وقال الشاعر :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكلّ قرين بالمقارن يقتدى «١»

واللّه تعالى أعلم.

ثم وعظ نبيه بما جرى على الأمم المتقدمة آنفا ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ١٠٠ الى ١٠٤]

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٣) وَما نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٤)

قلت : (ذلك) : مبتدأ. و(من أنباء) : خبر ، و(نقصه) : خبر ثان. وجملة : (منها قائم وحصيد) : استئنافية لا حالية لعدم الرابط.

يقول الحق جل جلاله : ذلِكَ النبأ الذي أخبرناك به فى هذه السورة ، هو مِنْ أَنْباءِ الْقُرى الماضية المهلكة ، نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ، ونخبرك به تهديدا لأمتك وتسلية لك. مِنْها ما هو قائِمٌ البناء باقى الأثر ، وَمنها حَصِيدٌ أي : محصود عافى الأثر ، كالزرع المحصود. أو : منها ما هو ساكن بقوم آخرين ، قائم العمارة بغير من هلك ، ومنها ما هو دارس على أثره ، واندرست أطلاله.

قال تعالى : وَما ظَلَمْناهُمْ بإهلاكنا إياهم ، وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بأن عرضوها له بارتكابهم ما يوجب هلاكهم ، فعبدوا معى غيرى ، فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ : ما نفعتهم ، ولا قدرت أن تدفع عنهم العذاب ، آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ من ذلك العذاب ، لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ – حين جاءهم عذابه

---

(١) البيت منسوب إلى عدى بن زيد. انظر : نهاية الأرب ٣/ ٦٥ والعقد الفريد ٢/ ٣١١.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٥٧

وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ أي : مثل ذلك الأخذ الوبيل أخذ ربك إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ فلا يمهلها ، وقد يمهلها ثم يأخذها. فكل ظالم معرض لذلك. وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنّ اللّه ليملى للظّالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته».

ثم قرأ : وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ .... الآية. فالآية تعم قرى المؤمنين حيث عبّر بظالمة دون كافرة. قاله ابن عطية. إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ وجيع عظيم ، غير مرجو الخلاص منه ، وهو مبالغة فى التهديد والتحذير.

إِنَّ فِي ذلِكَ الذي نسرده عليك من قصص الأمم الدارسة ، لَآيَةً لعبرة لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ فيعتبر به ويتعظ لعلمه بأن ما حاق بهم أنموذج مما أعد اللّه للمجرمين فى الآخرة. وأما من أنكر الآخرة فلا ينفعه هذا الوعظ والتذكير لفساد قلبه ، وموت روحه.

ذلِكَ أي : يوم القيامة الذي وقع التخويف به ، يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ : محشورون إليه أينما كانوا. وعبّر باسم المفعول دون الفعل للدلالة على الثبوت والاستقرار ، ليكون أبلغ لأن «مجموع» أبلغ من «يجمع».

وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ أي : تشهده أهل السموات وأهل الأرض لفصل القضاء ، ويحضره الأولون والآخرون ، لاقتضاء الثواب والعقاب. فاليوم مشهود فيه ، . فحذف الظرف اتساعا .. وَما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ أي : إلا لانتهاء مدة معدودة فى علم اللّه ، لا يتقدم ولا يتأخر عنها ، قد اختص اللّه تعالى بها. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : التفكر والاعتبار من أفضل عبادة الأبرار لأنه يزهد فى الدنيا الفانية ، ويشوق إلى الدار الباقية ، ويرقق القلب ، ويستدعى مخافة الرب ، فلينظر الإنسان بعين الاعتبار فى الأمم الخالية ، والقرون الماضية ، والأماكن الدارسة كيف رحل أهلها عن الدنيا أحوج ما كانوا إليها ، وتركوها أحب ما كانت إليهم؟ وفى بعض الخطب الوعظية : أين الفراعين المتكبرة ، وأين جنودها المعسكرات؟ أين الأكاسير المنكسرة؟ وأين كنوزها المقنطرات؟ أين ملوك قيصر والروم؟ وأين قصورها المشيدات؟ أين ملوك عدن ، أهل الملابس والحيجان «١»؟ وأين ملوك اليمن ، أهل العمائم والتيجان؟ قد دارت عليهم – واللّه – الأقدار الدائرات ، وجرت عليهم برياحها العاصفات ، وأسكنتهم تحت أطباق الرجام «٢» المنكرات ، وصيرت أجسامهم طعمة للديدان والحشرات ، وأيمت منهم الزوجات ، وأيتمت منهم البنين والبنات. أفضوا إلى ما قدموا ، وانقادوا قهرا إلى القضاء وسلموا. فلا ما كانوا أملوا أدركوا ، ولا إلى ما فاتهم من العمل الصالح رجعوا. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر شأن ذلك اليوم المشهود ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ١٠٥ الى ١٠٨]

يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨)

---

(١) الحيجان : جمع غير قياسى للمحجن ، وهو : عصا معقّفة الرأس كالصولجان.

(٢) أي : الحجارة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٥٨

قلت : (يوم يأتى) : العامل فى الظرف : «لا تكلم» ، أو : اذكر ، مضمر. والضمير فى «يأتى» : يعود على اليوم.

وقال الزمخشري : يعود على «اللّه» لعود الضمير عليه فى قوله : (إلا بإذنه) ، وضمير «منهم» على أهل الموقف المفهوم من قوله : (لا تكلم نفس).

يقول الحق جل جلاله : يَوْمَ يَأْتِ ذلك اليوم المشهود ، وهو : يوم الجزاء لا تَكَلَّمُ لا تتكلم نَفْسٌ بما ينفع وينجى فى جواب أو شفاعة إِلَّا بِإِذْنِهِ تعالى ، وهذا كقوله : لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ «١» ، وهذا فى موقف ، وقوله : هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ «٢» ، فى موقف آخر. والمأذون فيه هى الجوابات الحقية ، أو الشفاعات المرضية ، والممنوع منه هى الأعذار الباطلة.

ثم قسّم أهل الموقف ، فقال : فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وجبت له النار بمقتضى الوعيد لكفره وعصيانه. وَمنهم سَعِيدٌ وجبت له الجنة بمقتضى الوعد لإيمانه وطاعته. فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ، الزفير : إخراج النفس ، والشهيق : رده. ويستعملان فى أول النهيق وآخره. أو الزفير : صوت المحزون ، والشهيق : صوت الباكي. أو الزفير من الحلق ، والشهيق من الصدر. والمراد بهما : الدلالة على شدة الكرب والغم ، وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه ، وانحصرت فيه روحه ، أو تشبيه حالهم بأصوات الحمير. قاله البيضاوي.

خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أي : سموات النار وأرضها. وهى دائمة أبدا ، ويدل عليه قوله تعالى : يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ «٣» ، أو يكون عبارة عن التأبيد : كقول العرب : ما لاح كوكب وما ناح الحمام ، وشبه ذلك بما يقصد به الدوام ، وهذا أصح.

وقوله : إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ ، للناس هنا كلام واختلاف. وأحسن ما قيل فيه ما ذكره البقاعي ، قال : والذي ظهر لى – واللّه أعلم – أنه لما تكرر الجزم بالخلود فى الدارين ، وأن الشرك لا يغفر ، والإيمان موجب للجنة ، فكان

---

(١) من الآية : ٣٨ من سورة النبأ. [.....]

(٢) الآيتان : ٣٥ – ٣٦ من سورة المرسلات.

(٣) من الآية : ٤٨ من سورة ابراهيم.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٥٩

ربما يظن أنه لا يمكن غير ذلك ، كما ظنه المعتزلة ، لا سيما إذا تأمل القطع فى مثل قوله : إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ «١» ، مع تقييد غيره بالمشيئة فى قوله : وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ «٢» ، جاء هذا الاستثناء معلما أن الأمر فيه إلى اللّه كغيره من الأمور ، له أن يفعل فى كلها ما يشاء ، وإن جزم القول فيه ، لكنه لا يقع غير ما أخبر به ، وهذا كما تقول : اسكن هذه الدار عمرك إلا ما شاء زيد ، وقد لا يشاء زيد شيئا. فكما أن التعليق بدوام السموات والأرض غير مراد الظاهر ، كذلك الاستثناء ، فلا يشاء اللّه قطع الخلود لأحد من الفريقين ، وسوقه هكذا أدل على القدرة وأعظم فى تقليد المنة. هـ.

وقال الجلال السيوطي ، فى «البدور السافرة فى أمور الآخرة» : اعلم أن للعلماء فى هذا الاستثناء أقوالا ، أشبهها بالصواب : أنه ليس باستثناء ، وإنما «إلا» بمعنى «سوى» ، كما تقول : لى عليك ألف درهم إلا ألفان ، التي لى عليك ، أي : سوى الألفين ، والمعنى : خالدين فيها قدر مدة السموات والأرض فى الدنيا سوى ما شاء ربك من الزيادة عليها ، فلا منتهى له. وذلك عبارة عن الخلود. والنكتة فى تقديم ذكر مدة السموات والأرض : التقريب إلى الأذهان بذكر المعهود أولا ، ثم أردفه بما لا إحاطة للدهر به. والجري على عادة العرب فى قولهم فى الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده : لا آتيك ما دامت السموات والأرض. هـ. ومثله لابن عطية. قال : ويؤيد هذا التأويل قوله بعد :

عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ أي : غير مقطوع ، وهذا قول الفراء ، فإنه يقدر الاستثناء المنقطع بسوى ، وسيبويه بلكن.

هـ. وقال الورتجبي : قال ابن عطاء : (إلا ما شاء ربك) من الزوائد لأهل الجنة من الثواب. ومن الزوائد لأهل النار من العقاب. هـ. (إن ربك فعال لما يريد) من غير حجر ولا اعتراض.

وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ كما تقدم.
عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ : غير مقطوع ، وهو تصريح بأن الثواب غير مقطوع ، وتنبيه على أن المراد من الاستثناء تعليم الأدب فقط. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : السعادة على قسمين : سعادة الظاهر ، وسعادة الباطن. والشقاوة كذلك. أما سعادة الظاهر ففى الدنيا بالراحة من التعب ، وفى الآخرة بالنجاة من العذاب. وأما سعادة الباطن ففى الدنيا براحة القلب من كد الهموم والأحزان ، باليقين والاطمئنان ، فى حضرة الشهود والعيان ، وفى الآخرة بدوام النظر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر. وشقاوة الظاهر باتصال الكد والتعب. وشقاوة الباطن بالبعد عن اللّه ، وافتراقه عن حضرة مولاه.
قال فى نوادر الأصول : الشقاوة : فراق العبد من اللّه ، والسعادة اندساسه إليه. هـ. وقال الشيخ أبو الحسن رضى اللّه عنه فى حزبه الكبير : والسعيد من أغنيته عن السؤال منك ، والشقي حقا من حرمته مع كثرة السؤال لك.

(١ – ٢) الآية : ٤٨ من سورة النساء.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٦٠
قال شيخ شيوخنا – سيدى عبد الرحمن الفاسى – فى حاشيته عليه : ومدار السعادة : الجمع على اللّه والغيبة عمن سواه ، فيفنى العبد عن وجوده ، ويبقى بربه ، فيشغله استغراقه فى شهوده عن الشعور بغيريته ، وينمحى عنه أمل شيء يرجى ، أو خوف شيء يتقى ، فليس له عن سوى الحق إخبار ، ولا مع غيره قرار. وعند ما حل بهذه الحضرة ، وظفر بقرة عينه ، وحياة روحه ، وسر حياته ، لا يتصور منه سول ، ولا فوات مأمول. «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدته كانت الأكوان معك» ، «اشتاقت الجنّة إلى عليّ وعمّار وسلمان وصهيب وبلال» كما فى الأثر.
نعم ، إن رد إليه تصور منه الدعاء على وجه العبودية ، وأداء الأمر وإظهار الفاقة ، لا على وجه الاقتضاء والسببية.
«جل حكم الأزل أن ينضاف إلى الأسباب والعلل».
ثم قال : وعلى ما تقرر فى السعادة ، فالشقاوة : احتجاب العبد بوجوده عن شهوده ، فلا ينفكّ عن أمل ، ولا عن خوف عطب. فيستحثه الطبع للسؤال جلبا أو دفعا. وهو فى ذلك فى شقاء ، سواء أعطى أو منع لفقده قرة عينه وراحة قلبه ، لأسره فى طبعه ، ومكابدة أمره وهلعه. كما قال تعالى : إِنَّ

الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلَّا الْمُصَلِّينَ «١». فلم يستثن من كد الطبع ومكابدته غير أهل الصلاة الدائمة ، وهم أهل الوجهة للّه ، المواجهين بعناية اللّه ، المتحققين بذكر اللّه. وقد ورد : «هم القوم لا يشقى جليسهم» فضلا عنهم. وعلى الجملة : فالمراد بالسعادة والشقاوة فى كلامه – أي : الشاذلى – الباطنة لا الظاهرة ، والقلبية لا القالبية.

وإن كان قد تطلق على ذلك أيضا ، لكن لكل مقام مقال. وقد قال تعالى : فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى «٢».

قال فى نوادر الأصول : تابع القرآن قد أجير من شقاء العيش فى الدنيا لراحة قلبه من غموم الدنيا وظلماتها ، وسيره فى الأمور بقلبه فى راحة لأنه منشرح الصدر واسعه ، وبدنه فى راحة لأنه ميسر عليه أمور الدنيا ، تهيأ له فى يسر لضمان اللّه ، واكتنافه له. وكذا يجار فى الآخرة من شقاء العيش فى سجون النيران. أعاذنا اللّه من ذلك. هـ.

ثم حذّر من الشرك ، الذي هو سبب الخلود فى النار ، فقال :

[سورة هود (١١) : آية ١٠٩]

فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ ما يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩)

---

(١) الآيات : ١٩ – ٢٢ من سورة المعارج.

(٢) من الآية ١٢٣ من سورة طه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٦١

يقول الحق جل جلاله : فَلا تَكُ يا محمد فِي مِرْيَةٍ. فى شك مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ المشركون ، أي : لا تشك فى فساد ما هم فيه ، بعد ما أنزل عليك من حال الناس ، وتبيين ما لأهل السعادة الموحدين ، مما لأهل الشقاء المشركين ، ما يَعْبُدُونَ إِلَّا كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ، وهو تعليل للنهى ، أي : ما يعبدون عبادة إلا كعبادة آبائهم. أو ما يعبدون شيئا إلا مثل ما عبد آباؤهم من الأوثان تقليدا من غير برهان ، وقد بلغك ما لحق آباءهم من العذاب فسيلحقهم مثل ذلك لاتفاقهم فى سبب الهلاك. وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ حظهم من العذاب ، كآبائهم ، غَيْرَ مَنْقُوصٍ من نصيبهم شيء. فالتوفية لا تقتضى التمام. تقول : وفيته حقه ، وتريد وفاء بعضه.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فلا تكن أيها العارف فى مرية مما يعبد هؤلاء العوام ، من جمع الدنيا ، والتكاثر منها ، وصرف الهمة إلى تحصيلها ، واستعمال الفكر فى أسباب جمعها ، وانهماك النفس فى حظوظها وشهواتها. ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ، ممن سلك هذا المسلك الذميم ، وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ، بانحطاط درجتهم عن درجة المقربين. قال بعض الحكماء : دار الدنيا كأحلام المنام ، وسرورها كظل الغمام ، وأحداثها كصوائب السهام ، وشهواتها : كمشرب الشمام ، وفتنتها كأمواج الطوام. هـ.

ولما ذكر رسالة موسى عليه السّلام ، وشأن فرعون ووبال من تبعه ، ذكر نزول التوراة عليه ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ١١٠ الى ١١١]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلاً لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١)

قلت : (و إنّ كلّا لما ليوفينهم) : إن : مخففة عاملة ، والتنوين فى (كلّا) عوض عن المضاف. و«ما» : موصولة ، واللام : لام الابتداء ، و(ليوفينهم) : جواب لقسم محذوف ، وجملة القسم وجوابه : صلة «ما» ، أي : وإن كان الفريقين للذين ، واللّه ، ليوفينهم ربك أعمالهم. ومن قرأ : «لمّا» بالتشديد ، فعلى أن (إن) نافية ، و«لما» بمعنى إلا ، وقيل : غير هذا.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ : التوراة ، فَاخْتُلِفَ فِيهِ فآمن به قوم وكفر به قوم ، كما اختلف هؤلاء فى القرآن ، وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ وهى : كلمة الإنظار إلى يوم القيامة ، لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بإنزال ما يستحقه المبطل من الهلاك ، ونجاة المحق. وَإِنَّهُمْ أي : قوم موسى ، أو كفار قومك ، لَفِي شَكٍّ مِنْهُ أي : التوراة ، أو من القرآن ، مُرِيبٍ : موقع فى الريبة. وَإِنَّ كُلًّا من

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٦٢

الفريقين المختلفين ، المؤمنين والكافرين ، للذين لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ جزاء أعمالهم ، ولا يهمل منه شيئا – إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فلا يفوته شيء منه وإن خفى.

الإشارة : الاختلاف على الأنبياء والأولياء سنة ماضية. ولو لا أن اللّه سبحانه حكم فى سابق علمه أنه لا يفضح الضمائر إلا يوم تبلى السرائر ، لفضح أسرار البطالين ، وأظهر منار الذاكرين من السائرين أو الواصلين.

لكنه سبحانه أخر ذلك بحكمته وحلمه ، إلى يوم الدين. واللّه تعالى أعلم.

ثم بيّن أصل الأعمال وأفضلها ، وهى الاستقامة ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ١١٢ الى ١١٥]

فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)

قلت : (و من تاب) : عطف على فاعل (استقم) للفصل ، (فتمسّكم) : جواب النهى. ويقال : ركن يركن :

كعلم يعلم ، وركن يركن : كدخل يدخل. و(ثم لا تنصرون) : مستأنف لا معطوف ، و(طرفى) : منصوب على الظرفية. و(زلفا) : جمع زلفة ، كقربة ، أزلفه : قربه.

يقول الحق جل جلاله : فَاسْتَقِمْ يا محمد كَما أُمِرْتَ ، وَليستقم مَنْ تابَ مَعَكَ من الكفر وآمن بك. وهى شاملة للاستقامة فى العقائد كالتوسط بين التشبيه والتعطيل ، بحيث يبقى العقل مصونا من الطرفين ، وفى الأعمال من تبليغ الوحى ، وبيان الشرائع كما أنزل ، والقيام بوظائف العبادات من غير تفريط ولا إفراط. وهى فى غاية العسر. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : «شيّبتنى هود» «١». قاله البيضاوي. قال المحشى الفاسى : واللائق أن إشفاقه – عليه الصلاة والسلام – من أجل أمته لا من أجل نفسه لأجل عصمته ، وإنما أشفق عليهم لتوعد اللعين لهم بقوله : لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ «٢». هـ. قلت : ولا يبعد

---

(١) الحديث كاملا : «شيبتنى هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت». أخرجه الترمذي وحسنه فى (كتاب التفسير – سورة الواقعة) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٤٣) وصححه ووافقه الذهبي ، وأخرجه البيهقي فى الدلائل (١/ ٣٥٧) والبغوي فى شرح السنة (١٤/ ٣٧٢) وفى التفسير ، كلهم من حديث ابن عباس رضى اللّه عنه.

(٢) من الآية : ١٦ من سورة الأعراف.

أن يكون أشفق – عليه الصلاة والسلام – من صعوبة استقامته التي تليق به ، فبقدر ما يعلو المقام يطلب بزيادة الأدب ، وبقدر ما يشتد القرب يتوجه العتاب. ولذلك كان الحق تعالى يعاتبه على ما لا يعاتب عليه غيره. وقد قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين. وقد تقدم كلام الإحياء فى قوله : ألا

بُعْداً لِعادٍ «١».

ثم قال تعالى : وَلا تَطْغَوْا ولا تخرجوا عما حد لكم ، إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، فيجازيكم على النقير والقطمير ، وهو تهديد لمن لم يستقم ، وتعليل للأمر والنهى. وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا : لا تميلوا إليهم أدنى ميل ، فإن الركون : هو الميل اليسير ، كالتزيى بزيهم ، وتعظيم ذكرهم ، وصحبتهم من غير تذكيرهم ووعظهم.

فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ لركونهم إليهم. قال الأوزاعى : ما من شيء أبغض إلى اللّه تعالى من عالم يزور عاملا «٢». هـ.

وقال سفيان : فى جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك. هـ. وقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «من دعا لظالم بالبقاء – أي : بأن قال : بارك اللّه فى عمرك – فقد أحبّ أن يعصى اللّه فى أرضه» «٣» وسئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك فى برية ، هل يسقى شربة ماء؟ فقال : لا. فقيل له : يموت؟! فقال : دعه يموت. هـ. وهذا إغراق ، ولعله فى الكافر المحارب ، واللّه أعلم.

قال البيضاوي : وإذا كان الركون إلى من وجد منه ما يسمى ظلما موجبا للنار ، فما ظنك بالركون إلى الظالمين الموسومين بالظلم ، ثم بالميل إليهم ، ثم بالظلم نفسه ، والانهماك فيه. ولعل الآية أبلغ ما يتصور فى النهى عن الظلم والتهديد عليه. وخطاب الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ومن معه من المؤمنين بها للتثبيت على الاستقامة التي هى العدل فإن الزوال عنها بالميل إلى أحد طرفى إفراط أو تفريط ، ظلم على نفسه أو غيره ، بل ظلم فى نفسه. هـ.

وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ من أنصار يمنعون العذاب عنكم ، ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ : ثم لا ينصركم اللّه إن سبق فى حكمه أنه يعذبكم.

ولمّا كان الركون إلى الظلم ، أو إلى من تلبس به فتنة ، وهى تكفرها الصلاة ، كما فى الحديث «٤» ، أمر بها إثره ، فقال : وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ غدوة وعشية ، وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ ساعات منه قريبة من النهار.

والمراد بالصلاة المأمور بها : الصلوات الخمس. فالطرف الأول : الصبح ، والطرف الثاني : الظهر والعصر ، والزلف من الليل : المغرب ، والعشاء ، إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ يكفرنها قال ابن عطية : لفظ الآية عام فى

---

(١) راجع إشارة الآيات : ٥٨ – ٦٠ من سورة نفسها.

(٢) المراد بالعامل هنا : الحاكم أو الوالي.

(٣) قال الحافظ العراقي فى المغني : لم أجده مرفوعا ، وإنما أورده ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت ، من قول الحسن البصري.

(٤) سيذكر الشيخ الحديث بعد قليل.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٦٤

الحسنات خاص فى السيئات لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «ما اجتنبت الكبائر» ، ثم قال : وروى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «الجمعة إلى الجمعة كفّارة ، والصّلوات الخمس ، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر» «١» انظر تمامه فى الحاشية.

قال ابن جزى : روى أن رجلا قبّل امرأة ، [قلت : هو نبهان التمار] ، فذكر ذلك للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم وصلّى معه الصلاة ، فنزلت الآية ، فقال صلّى اللّه عليه وسلّم : «أين السائل؟» فقال : ها أنا ذا ، فقال : «قد غفر اللّه لك بصلاتك معنا». فقال الرجل : ألى خاصّة ، أو للمسلمين عامّة؟ فقال : «للمسلمين عامّة» «٢». والآية على هذا مدنية. وقيل : إن الآية كانت قبل ذلك ، وذكرها النبي صلّى اللّه عليه وسلّم للرجل مستدلا بها. والآية على هذا مكية كسائر السورة ، وإنما تذهب الحسنات – عند الجمهور – الصغائر إذا اجتنبت الكبائر. هـ. قلت : وقيل : تكفر مطلقا اجتنبت الكبائر أم لا ، وهو الظاهر ، لأنه إذا حصل اجتناب الكبائر كفرت بلا سبب لقوله تعالى : إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ .... «٣» الآية. وقوله عليه الصلاة والسلام : «ما اجتنبت الكبائر». معناه : أن الصلوات والجمعة مكفرة لما عدا الكبائر.

والحاصل : أن من اجتنب الكبائر كفرت عنه الصغائر بلا سبب لنص الآية. ومن ارتكب الكبائر والصغائر وصلى ، كفرت الصغائر دون الكبائر ، وبهذا تتفق الآية مع الحديث. واللّه تعالى أعلم.

قال ابن عطية فى قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى ... «٤» الآية : الشهادة ماحية لكل ذنب إلا لمظالم العباد. وقد روى : «أن اللّه يتحمل عن الشهيد مظالم العباد ، ويجازيهم عنه». ختم اللّه لنا بالحسنى. انتهى.

ذلِكَ أي : ما تقدم من وعظ ووعد ووعيد ، وأمر الاستقامة ، أو القرآن كله ، ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ : عظة للمتقين. وخص الذاكرين لمزيد انتفاعهم بالوعظ ، لصقالة قلوبهم. وفى الخبر : «لكل شىء مصقلة ، ومصقلة القلوب ذكر اللّه». وَاصْبِرْ على مشاق الاستقامة ، ودوامها فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وهم : أهل الاستقامة ظاهرا وباطنا.

الإشارة : الاستقامة على ثلاثة أقسام : استقامة الجوارح ، واستقامة القلوب ، واستقامة الأرواح والأسرار.

أما استقامة الجوارح فتحصل بكمال التقوى ، وتحقيق المتابعة للسنة المحمدية. وأما استقامة القلوب

---

(١) أخرجه مسلم فى : (الطهارة ، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة .. مكفرات) عن أبى

هريرة رضى اللّه عنه.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري فى (التفسير ، سورة هود) ومسلم فى (التوبة ، باب قوله : إن الحسنات يذهبن السيئات) من حديث ابن مسعود – رضى اللّه عنه. أما قول المفسر : [هو نبهان التمار) فقد جاء فى سياق آخر ، للثعلبى فى تفسيره ، وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح ٨/ ٢٠٧ : وهذا إن ثبت حمل على واقعة أخرى ، لما بين السياق من المغايرة.

(٣) من الآية : ٣١ من سورة النساء. [.....]

(٤) من الآية : ١١١ من سورة التوبة.

فتحصل بتطهيرها من سائر العيوب ، كالكبر والعجب ، والرياء ، والسمعة ، والحقد والحسد ، وحب الجاه والمال ، وما يتفرع عن ذلك من العداوة والبغضاء ، وترك الثقة بمجيء الرزق ، وخوف سقوط المنزلة ، من قلوب الخلق ، والشح والبخل ، وطول الأمل ، والأشر والبطر ، والغل والمباهاة ، والتصنع والمداهنة ، والقسوة والفظاظة والغلظة ، والغفلة والجفاء ، والطيش ، والعجلة ، والحمية ، وضيق الصدر ، وقلة الرحمة. إلى غير ذلك من أنواع الرذائل.

فإذا تطهر القلب من هذه العيوب اتصف بأضدادها من الكمالات : كالتواضع للّه ، والخشوع بين يديه ، والتعظيم لأمره ، والحفظ لحدوده ، والتذلل لربوبيته ، والإخلاص فى عبوديته ، والرضى بقضائه ، ورؤية المنة له فى منعه وعطائه. ويتصف فيما بين خلقه بالرأفة والرحمة ، واللين والرفق ، وسعة الصدر والحلم ، والاحتمال والصيانة ، والنزاهة والأمانة ، والثقة والتأنى ، والوقار ، والسخاء والجود ، والحياء ، والبشاشة والنصيحة. إلى غير ذلك من الكمالات.

وأما استقامة الأرواح والأسرار ، فتحصل بعدم الوقوف مع شيء سوى اللّه تعالى ، وعدم الالتفات إلى غيره حالا كان أو مقاما أو كرامة ، أو غير ذلك : كما قال الششترى رضى اللّه عنه :

فلا تلتفت فى السّير غيرا ، وكلّ ما سوى اللّه غير ، فاتخذ ذكره حصنا

وكلّ مقام لا تقم فيه إنّه حجاب ، فجدّ السّير واستنجد العونا

ومهما ترى كلّ المراتب تجتلى عليك فحل عنها ، فعن مثلها حلنا

وقل : ليس لى فى غير ذاتك مطلب فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنا

وقوله تعالى : (و لا تركنوا إلى الذين ظلموا) : هو نهى عن صحبة الغافلين والميل إليهم. قال بعض الصوفية :

قلت لبعض الأبدال : كيف الطريق إلى التحقيق ، والوصول إلى الحق؟ قال : لا تنظر إلى الخلق فإن النظر إليهم ظلمة ، قلت : لا بد لى ، قال : لا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة ، قلت : لا بد لى ، قال : لا تعاملهم لأن معاملتهم خسران وحسرة ووحشة ، قلت : أنا بين أظهرهم لا بد لى من معاملتهم؟ قال : لا تسكن إليهم فإن السكون إليهم هلكة. قلت : هذا لعله يكون؟ قال : يا هذا أتنظر إلى اللاعبين ، وتسمع كلام الجاهلين ، وتعامل البطالين ، وتسكن إلى الهلكى ، وتريد أن تجد حلاوة الطاعة ، وقلبك مع غير اللّه عز وجل!! هيهات! هذا ما لا يكون أبدا. هـ. ونقل الورتجبي عن جعفر الصادق : ولا تركنوا إلى نفوسكم فإنها ظلمة. هـ.

(٥٦٥/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٦٦

ثم ذكر سبب هلاك الأمم الماضية ، وهو فشو الظلم ، وعدم تغيير المنكر ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ١١٦ الى ١١٧]

فَلَوْ لا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا منهم وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَكانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ (١١٧)

قلت : (لو لا) ، تحضيضية ، ويقترن بها هنا معنى التفجع والتأسف ، كقوله : يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ «١» ، و«إلا قليلا» : منقطع ، ولا يصح اتصاله ، إلا إذا جعل استثناء من النفي اللازم للتحضيض. أي : ما كان فى القرون الماضية أولو بقية إلا قليل. يقال : فلان من بقية القوم ، أي : خيارهم ، وإنما قيل فيه «بقية» لأن الشرائع والدول تقوى أولا ثم تضعف. فمن ثبت فى وقت الضعف على ما كان فى أوله ، فهو بقية الصدر الأول. قاله ابن عطية.

وقوله : «بظلم» : حال من «ربك» أي : ما كان ربك ليهلك القرى ظالما لهم ، أو متعلق بيهلك.

يقول الحق جل جلاله : فَلَوْ لا : فهلا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ كقوم نوح وعاد وثمود ومن تقدم ذكرهم ، أُولُوا بَقِيَّةٍ من الرأى ، والعقل ينكرون عليهم ، أي : فهلا وجد فيهم من فيه بقية من العقل والحزم والثبوت ، يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ ، لكن قليلا ممن أنجينا منهم كانوا كذلك ، فأنكروا على أهل الفساد ، واعتزلوهم فى دينهم فأنجيناهم. وفى هذا تحريض على النهى عن المنكر والأمر بالمعروف ، وأنه سبب النجاة فى الدارين. وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ : ما أنعموا فيه من الشهوات ، واهتموا بتحصيل أسبابها ، وأعرضوا عما وراء ذلك ، وَكانُوا مُجْرِمِينَ كافرين. قال البيضاوي : كأنه أراد أن يبين ما كان السبب لاستئصال الأمم الماضية ، وهو : فشو الظلم فيهم ، واتباع الهوى ، وترك النهى

عن المنكرات مع الكفر. هـ.

وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ أي : متلبسا بظلم ، وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ ، فيعذبهم بلا جرم ، أي : ما كان ليعذبهم ظالما لهم بلا سبب. أو ما كان ليهلك القرى بشرك وأهلها مصلحون فيما بينهم ، لا يضمون إلى شركهم فسادا وبغيا ، وذلك لفرط رحمته ومسامحته فى حقوقه. ومن ذلك قدّم الفقهاء ، عند تزاحم الحقوق ، حقوق العباد. وقال بعضهم : [الذنوب ثلاثة : ذنب لا يغفره اللّه ، وهو الشرك. وذنب لا يعبأ اللّه به ، وهو ما كان بينه وبين عباده ، وذنب لا يتركه اللّه ، وهو حقوق عباده]. وقالوا : قد يبقى الملك مع الشرك ولا يبقى مع الظلم.

الإشارة : أولو البقية الذين ينهون عن الفساد فى الأرض هم : أهل النور المخزون المستودع فى قلوبهم من نور الحق ، إذا قابلوا منكرا دمغوه بالحال أو المقال ، وإذا قابلوا فسادا أصلحوه ، وإذا قابلوا فتنة أطفأوها. وإذا قابلوا بدعة

---

(١) من الآية : ٣٠ من سورة يس.

أخمدوها. وإذا واجهوا ضالا أرشدوه ، أو غافلا ذكروه ، أو طالبا للوصول وصلوه ، يمشون فى الأرض بالنصيحة ، لا يخافون فى اللّه لومة لائم. أولئك لهم الأمن وهم مهتدون.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم : إنّ أحبّ عباد اللّه إلى اللّه الذين يحببون اللّه إلى عباده ، ويحببون عباد اللّه إلى اللّه ، ويمشون فى الأرض بالنصيحة» أما كونهم يحببون اللّه إلى عباده فلأنهم يذكرون لهم آلاءه وإحسانه وبره. والنفس تحب بالطبع من أحسن إليها. وأما كونهم يحببون عباد اللّه إلى اللّه فلأنهم يردونهم عن غيهم وحظوظهم ، التي تبعدهم عن ربهم. فإذا رجعوا إليه أحبهم.

وسئل ذو النون المصري رضى اللّه عنه عن وصف الأبدال ، فقال : سألت عن دياجى الظلام لأكشف لك عنهم ، هم قوم ذكروا اللّه بقلوبهم ، تعظيما لربهم لمعرفتهم بجلاله ، فهم حجج اللّه تعالى على خلقه ، ألبسهم اللّه – تعالى – النور الساطع من محبته ، ورفع لهم أعلام الهداية إلى مواصلته ، وأقامهم مقام الأبطال لإرادته ، وأفرغ عليهم من مخافته ، وطهّر أبدانهم بمراقبته ، وطيبهم بطيب أهل معاملته ، وكساهم حللا من نسج مودته ، ووضع على رؤوسهم تيجان مبرته ، ثم أودع القلوب من ذخائر الغيوب ، فهى متعلقة بمواصلته ، فهممهم إليه ثائرة ، وأعينهم بالغيب ناظرة ، قد أقامهم على باب

النظر من رؤيته ، وأجلسهم على كراسى أطباء أهل معرفته ، ثم قال لهم : إن أتاكم عليل من فقدى فداووه ، أو مريض من فراقى فعالجوه ، أو خائف منى فانصروه ، أو آمن منى فحذّروه ، أو راغب فى مواصلتى فمنّوه ، أو راحل نحوى فزودوه ، أو جبان فى متاجرتى فشجعوه ، أو آيس من فضلى فرجّوه ، أو راج لإحسانى فبشروه ، أو حسن الظن بي فباسطوه ، أو محب لى فواصلوه ، أو معظم لقدرتى فعظموه ، أو مسيء بعد إحسانى فعاتبوه ، أو مسترشد فأرشدوه. هـ.

وهذا بقدر اللّه ومشيئته ، كما قال تعالى :

[سورة هود (١١) : الآيات ١١٨ الى ١١٩]

وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)

قلت : الاستثناء من ضمير «يزالون».

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً ، متفقين على الإيمان ، أو الكفران ، لكن مقتضى الحكمة وجود الاختلاف ليظهر مقتضيات الأسماء فى عالم الشهادة فاسمه : الرحيم والكريم يقتضى وجود من يستحق الكرم والرحمة ، وهم : أهل الإيمان. واسمه : المنتقم والقهار يقتضى وجود من يستحق الانتقام

(٥٦٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٦٨

والقهرية ، وهم أهل الكفر والعصيان. قال البيضاوي : وفيه دليل ظاهر على أن الأمر غير الإرادة ، وأنه تعالى لم يرد الإيمان من كل أحد ، وأن ما أراد يجب وقوعه. هـ.

وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ بعضهم على الحق ، وهم أهل الرحمة والكرم ، وبعضهم على الباطل ، وهم أهل القهرية والانتقام. أو مختلفين فى الأديان والملل والمذاهب ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ إلا ناسا هداهم اللّه من فضله ، فاتفقوا على ما هو أصل الدين والعمدة فيه ، كالتوحيد والإيمان بجميع الرسل وبما جاءوا به ، وهم المؤمنون.

وقوله : وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ إن كان الضمير للناس ، فالإشارة إلى الاختلاف ، واللام للعاقبة ، أي : ولتكون عاقبتهم الاختلاف خلقهم ، وإن كان الضمير يعود على «من» ، فالإشارة إلى الرحمة ، أي : إلا من رحم ربك وللرحمة خلقه. وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الأزلية على ما سبق له الشقاء ، أي : نفذ قضاؤه ووعيده فى أهل الشقاء ، أو هى قوله للملائكة : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ أي : من أهل العصيان منهما ، لا من جميعهما.

الإشارة : الاختلاف بين الناس حكم أزلى ، لا محيد عنه. وقد وقع بين أهل الحق وبين أهل الباطل. فقد اختلفت هذه الأمة فى الأصول والفروع. أما الأصول فأهل توحيد الدليل وقع بينهم تخالف فى صفات الحق ، كالمعتزلة والقدرية والجهمية والجبرية مع أهل السنة. وأما الفروع فالاختلاف بينهم شهير. فقد كان فى أول الإسلام اثنا عشر مذهبا. ولا تجد علما من علم الفروع إلا وبين أهله اختلاف ، إلا أهل التوحيد الخاص ، وهم :

المحققون من الصوفية ، فكلهم متفقون فى الأذواق والوجدان ، وإن اختلفت طرقهم ، وكيفية سيرهم. فهم متفقون فى النهايات ، التي هى معرفة الشهود والعيان ، على طريق الذوق والوجدان ، وفى ذلك يقول ابن البنا – رحمه اللّه – :

مذاهب الناس على اختلاف ومذهب القوم على ائتلاف

وأما قول من قال : [ما زالت الصوفية بخير ما اختلفوا ، فإذا اتفقوا فلا خير فيهم] ، فالمراد بالاختلاف : تغيير بعضهم على بعض ، عند ظهور نقص أو عيب أو ذنب. فإذا اتفقوا وسكت بعضهم عن بعض فلا خير فيهم. وقوله عليه الصلاة والسلام : «خلاف أمتى رحمة». المراد : الاختلاف فى الفروع كاختلاف المذاهب ففى ذلك رخصة لأهل الاضطرار لأن من قلد عالما لقى اللّه سالما. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر حكمة سرد قصص الأنبياء ، فقال :

قلت : «وكلّا» مفعول «نقص» ، و«ما نثبت به» : بدل ، أو «ما» مفعول «نقصّ» ، و«كلّا» : مصدر. أي : ونقص

[سورة هود (١١) : آية ١٢٠]

وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٦٩

عليك كلّا من الاقتصاص ما نثبت به فؤادك.

يقول الحق جل جلاله : وكل نبأ نَقُصُّ عَلَيْكَ من أخبار الرسل ، ونخبرك به ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ ، ليزيدك يقينا وطمأنينة وثباتا بما تسمع من أخبارهم ، وما جرى لهم مع قومهم ، وما لقوا من الأذى منهم ، فتتسلى بهم ، وتثبت على أداء الرسالة ، واحتمال أذى الكفار. وَجاءَكَ فِي هذِهِ السورة ، أو الأنباء المقتصة عليك ، الْحَقُّ أي : ما هو حق ، وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ ، فيتحملون ، ويصبرون لما

يواجههم من الأذى والإنكار.

الإشارة : ذكر أحوال الصالحين ، وسيرهم وكراماتهم جند من جنود القلب ، وذكر أشعارهم ومواجيدهم جند من جنود الروح ، وقد ورد : أن عند ذكرهم تنزل الرحمة ، أي : رحمة القلوب باليقين والطمأنينة. واللّه تعالى أعلم.

ثم أمره بتهديد من خالفه ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ١٢١ الى ١٢٣]

وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ (١٢١) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)

يقول الحق جل جلاله : وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ : حالكم إِنَّا عامِلُونَ على حالنا ، وَانْتَظِرُوا وقوع ما نزل بمن قبلكم ممن خالف رسوله فإنه نازل بكم ، إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ما وعدنا ربنا من النصر والعز.

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا يعلمه غيره فلا يعلم غيب العواقب ، ووقت وقوع المواعد إلا هو. وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فيرجع لا محالة أمرهم وأمرك إليه ، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فإنه كافيك أمرهم وأمر غيرهم. وفى تقديم العبادة على التوكل تنبيه على أنه إنما ينفع التوكل العابد دون البطال. وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أنت وهم ، فيجازى كلّا ما يستحقه. أو عما يعمل الكافرون ، فيمهلهم ولا يهملهم.

الإشارة : (فاعبده وتوكل عليه) : يقول تعالى : يا عبدى قم بخدمتي أقم لك بقسمتي ، قف ببابي وانتسب لجنابى أكفك شئونك ، وتكن من أحبابى. أأدعوك لدارى ، وأمنعك من وجود إبرارى ، أأكلفك بخدمتي ، ولا أقوم لك بقسمتي ، فثق بي كفيلا ، واتخذني وكيلا ، أعطك عطاء جزيلا ، وأمنحك فخرا جليلا. قال القشيري : ويقال : إن التوكل : سكون القلب بضمان الربّ. ويقال : سكون الجأش فى طلب المعاش ، ويقال : الاكتفاء بوعده عند عدم نقده ، أو الاكتفاء بالوعد عند فقد النقد. وسيأتى تمامه فى سورة الفرقان ، إن شاء اللّه. وباللّه التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق. وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليما.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٧٠

سورة يوسف

مكية. وهى مائة وإحدى عشرة آية. وكأنها تتميم لما ذكر قبلها من قصص الأنبياء ، فهى من جملة ما يثبّت به الفؤاد ، ويقع به التسلية ، مما يواجه به العبد من الأنكاد. وإنما أفردت بالسورة ، لمزيد شرح وطول.

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ (٣)

قلت : (قرآنا) : حال ، و(عربيا) : نعت له. و(لعلكم) : يتعلق بأنزلناه أو بعربيا. و(أحسن) : مفعول (نقصّ) ، و(بما أوحينا) : مصدرية ، ويجوز أن يكون (هذا القرآن) : مفعول (نقصّ) ، و(أحسن القصص) : مصدر.

يقول الحق جل جلاله : أيها الرسول المجتبى ، والمحبوب المنتقى ، تِلْكَ الآيات التي تتلى عليك هى آياتُ الْكِتابِ المنزل عليك من حضرة قدسنا ، الْمُبِينِ أي : الظاهر صدقه ، الشهير شأنه. أو الظاهر أمره فى الإعجاز والبلاغة ، الواضح معانيه فى الفصاحة ، والبراعة. أو المبين للأحكام الظاهرة والباطنة. أو البين لمن تدبره أنه من عند اللّه. أو المبين لمن سأل تعنّتا من أحبار اليهود سؤالهم إذ روى أنهم قالوا لكبراء المشركين : سلوا محمدا : لم انتقل يعقوب من الشام؟ وعن قصة يوسف. فنزلت السورة. إِنَّا أَنْزَلْناهُ أي : الكتاب ، قُرْآناً أي : مقروءا ، أو مجموعا ، عَرَبِيًّا بلغة العرب لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أي : أنزلناه بلغتكم كى تفهموه وتستعملوا عقولكم فى معانيه فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ممن لم يتعلم القصص ، ولم يخالط من يعلم ذلك ، معجز إذ لا يتصور إلا بالإيحاء.

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ أحسن الاقتصاص لأنه اقتص على أبدع الأساليب ، أو أحسن ما يقص لاشتماله على العجائب والحكم والآيات والعبر ، بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ مشتملا على هذه السورة التي فيها قصة يوسف ، التي هى من أبدع القصص ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ عن هذه

القصة ، لم تخطر ببالك ، ولم تقرع سمعك. قال البيضاوي : وهو تعليل لكونه موحىّ ، و«إن» هذه : مخففة ، واللام هى الفارقة. هـ.

الإشارة : ما نزل القرآن بلسان عربى مبين إلا لنعقل عظمة ربنا ونعرفه ، وذلك لا يكون إلا بعد استعمال العقول الصافية ، والأفكار المنورة ، فى الغوص على درر معانيه. فحينئذ تطلع على أنوار التوحيد وأسرار التفريد ، وعلى أنوار الصفات ، وأسرار الذات ، وعلى توحيد الأفعال وتوحيد الصفات وتوحيد الذات. قال تعالى : ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ «١» ، لكن لا يحيط بهذا إلا أهل التجريد ، الذين صفت عقولهم من الأكدار ، وتطهرت من الأغيار ، وملئت بالمعارف والأسرار. قال تعالى : لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ «٢». وهم : أهل العقول الصافية المتفرغة من شواغل الحس. واللّه تعالى أعلم.

ثم شرع فى ذكر القصة ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٤ الى ٦]

إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ (٤) قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)

قلت : (إذ قال) : معمول لا ذكر ، أو بدل من (أحسن القصص) إن جعل مفعولا ، بدل اشتمال ، و(يا أبت) :

أصله : يا أبى ، عوض من الياء تاء التأنيث لتناسبهما فى الزيادة ، ولذلك قلبت فى الوقف هاء ، فى قراءة ابن كثير وأبى عمر ويعقوب. وإنما أعاد العامل فى «رأيتهم» لطول الكلام ، وجمع الشمس والقمر والكواكب جمع العقلاء لوصفهم بصفاتهم.

يقول الحق جل جلاله : إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يعقوب بن اسحق بن ابراهيم : يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ فى النوم أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ. وقد ذكر البيضاوي حديثا فى تفسير هذه الكواكب فانظره. قيل : إن يوسف عليه السّلام كان نائما فى حجر أبيه ، فنظر فيه ، وقال فى نفسه : أترى هذا الوجه

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية ٢٩ من سورة ص.

أحسن أم الشمس أم القمر؟ فإذا بيوسف قد انتبه من نومه ، وقال : يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ...
إلخ ، فلما قص الرؤيا على أبيه بكى ، فقال يوسف : لم تبكى يا أبتى؟ قال : يا بنى لم يسجد مخلوق لمخلوق إلا عند المحنة ، والبلاء ، ألا ترى الملائكة لما أسجدهم اللّه لآدم ، كيف ابتلى بالخروج من الجنة؟ ثم قال له : يا بنى الشمس والقمر أنا وخالتك – وكانت أمه قد ماتت – والإحدى عشر كوكبا إخوتك. هـ.
قالَ يا بُنَيَّ ، وهو تصغير ابن ، صغر للشفقة أو لصغر السن ، وكان ابن ثنتى عشرة سنة ، لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً فيحتالوا لإهلاكك حيلة. فهم يعقوب عليه السّلام من رؤياه أن اللّه يصطفيه لرسالته ، ويفوقه على إخوته ، فخاف عليه حسدهم. ومن خاف من شيء سلط عليه.
والرؤيا تختص بالنوم ، والرؤية ، بالتاء بالبصر. قال البيضاوي : وهى انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك ، والمصادفة منها إنما يكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ. انظر تمامه فيه. وأخرج الحاكم فى المستدرك ، والطبراني فى الأوسط ، عن ابن عمر قال :
لقى عمر عليّا – رضى اللّه عنهما – فقال : يا أبا الحسن ، الرجل يرى الرؤيا فمنها ما يصدق ، ومنها ما يكذب ، قال :
نعم. سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : «ما من عبد ولا أمة ينام فيمتلى نوما إلا عرج بروحه إلى السماء. فالتى لا تستيقظ إلا عند العرش فتلك الرؤيا التي تصدق ، والتي تستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي تكذب» «١». هـ. فمنها ما تكون واضحة المعنى لا تحتاج إلى تعبير ، ومنها ما تكون خفية تحتاج إلى تعبير. والمعبر يحتاج إلى علم وفراسة وزيادة إلهام ، فعلم التعبير علم مستقل ، قد أعطى اللّه منه ليوسف عليه السّلام حظا وافرا.
ولما قال يعقوب لابنه : لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً قال : يا أبت ، الأنبياء لا يكيدون ، قال له : إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ظاهر العداوة لأجل ما فعل بآدم وحواء ، فلا يألوا جهدا فى تسويلهم ، وإثارة الحسد فيهم ، حتى يحملهم على الكيد. قيل : لم يسمع كلام يوسف فى رؤياه إلا خالته – أم شمعون – فقالت لإخوته : التعب عليكم ، والإقبال على يوسف. فحركهم ذلك حتى فعلوا ما فعلوا. وقيل : أخبرت بذلك ولدها شمعون ، فأخبر شمعون إخوته فخلوا به وقالوا له : إنك لم تكذب قط. فأخبرنا بما رأيت فى نومك ، فأبى. فأقسموا عليه ، فأخبرهم. فوقعوا فيما فعلوا به.
ثم قال له : وَكَذلِكَ أي : وكما اجتباك لهذه الرؤيا الدالة على شرف وعز وكمال نفس ، يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ للنبوة والملك ، أو لأمور عظام ، وَيُعَلِّمُكَ

أي : وهو يعلمك مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ من تعبير

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٣٩٦ و٣٩٧).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٧٤

الرؤيا لأنها أحاديث الملك إن كانت صادقة ، وأحاديث الشيطان إن كانت كاذبة. أو يعلمك من تأويل غوامض علوم كتب اللّه ، وسنن الأنبياء وحكم الحكماء. وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ بالنبوة ، أو بأن يجمع لك بين نعمة الدنيا ، ونعمة الآخرة ، وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ يريد : سائر بنيه. ولعله استدل على نبوتهم بضوء الكواكب ، كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ من قبلك ، أو من قبل هذا الوقت. فأتمها على إبراهيم بالرسالة والخلة والإنجاء من النار ، وإسحاق بالرسالة والإنقاذ من الذبح «١» ، وهم : إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ ، فهما عطف بيان لأبويك ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ بمن يستحق الاجتباء ، حَكِيمٌ لا يخلو فعله من حكمة ، نعمة كانت أو نقمة.

الإشارة : البداية مجلاة النهاية ، يوسف عليه السّلام نزلت له أعلام النهاية فى أول البداية. وكذلك كل من سبق له شىء من العناية ، لا بد تظهر أعلامه فى أول البداية «من أشرقت بدايته أشرقت نهايته». من كانت باللّه بدايته كانت إليه نهايته.

وأوصاف النهاية تأتى على ضد أوصاف البداية فكمال العز فى النهاية لا يأتى إلا بعد كمال الذل فى البداية.

وتأمل قول الشاعر :

تذلّل لمن تهوى لتكسب عزّة فكم عزّة قد نالها المرء بالذّلّ

وتأمل قضية سيدنا يوسف عليه السّلام ما نال العز والملك حتى تحقق بالذل ، والملك وكمال الغنى فى النهاية لا يأتى إلا بعد كمال الفقر فى البداية ، وكمال العلم لا يأتى إلا بعد إظهار كمال الجهل ، وكمال القوة لا يأتى إلا بعد كمال الضعف .. وهكذا جعل اللّه تعالى بحكمته الأشياء كامنة فى أضدادها «تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه». فالاجتباء يكون بعد الابتلاء ، وإتمام النعم يكون بعد تقديم النقم ، وذلك لتكون أحلى وأشهى ، فيعرف قدرها ويتحقق منه شكرها ، وهذا السر فى تقديم أهوال يوم القيامة على دخول الجنة ليقع نعيمها فى النفس كل موقع. ولا فرق بين جنة الزخارف ، وجنة المعارف. (حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات). واللّه تعالى أعلم.

ثم قال تعالى :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٧ الى ٨]

لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٨)

---

(١) الثابت أن الذبيح هو سيدنا إسماعيل عليه السّلام. راجع التعليق على تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٧٥

قلت : (يوسف) : عجمى ، وفى سينه ثلاث لغات : الضم – وهو الأشهر – والفتح ، والكسر.

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ أي : فى قصصهم آياتٌ دلائل قدرة اللّه وحكمته ، وعلامة نبوتك ، حيث أخبرت بها من غير تعلم. ففى ذلك آيات لِلسَّائِلِينَ أي : لمن سأل عن قصتهم.

والمراد بإخوته : علاته العشرة ، والعلات : أبناء أمهات لأب واحد ، فكانوا إخوته لأبيه ، وهم : يهوذا ، وروبيل ، وشمعون ، ولاوى ، وريالون ، ويشجر ، ودنية من بنت خالته ليّا ، تزوجها يعقوب أولا ، فلما توفيت تزوج راحيل ، فولدت له بنيامين ، ويوسف. وقيل : جمع بينهما ، ولم يكن الجمع حينئذ محرما. وأربعة آخرون من سريتين ، وهم : دان ، وتفثالى ، وجاد ، وآشر.

إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ بنيامين ، وخص بالإضافة لأنه شقيقه ، أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ أي : والحال أنا جماعة أقوياء ، فنحن أحق بالمحبة لأنهما لا كفاءة فيهما. والعصبة : العشرة ففوق. إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ خطأ مُبِينٍ ظاهر لتفضيل المفضول. روى أنه كان أحب إليه لما كان يرى فيه من مخايل الخير ، وكان إخوته يحسدونه ، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة ، بحيث لم يصبر عنه ، فتناهى حسدهم حتى حملهم على التعرض لقتله. وهكذا شأن الحسد يبلغ بصاحبه أمرا عظيما.

الإشارة : كان يعقوب عليه السّلام لا يفارق يوسف ليلا ولا نهارا. وهكذا شأن المحبين. وأنشدوا :

ولى كبد يسرى إليهم سلامه بجمر تلظّى ، والفؤاد ضرامه

وأجفان عين لا تملّ من البكا وصبّ تشكّى للحبيب غرامه

فأنتم سرورى ، أنتم غاية المنى وقلبى إليكم والغرام زمامه

فو اللّه ما أحببت ما عشت غيركم لأن اشتياقى لا يحل اكتتامه. هـ.

قال الجنيد ، رضى اللّه عنه : رأيت غلاما حسن الوجه يعنف كهلا حسنا ، فقلت : يا غلام ، لم تفعل هذا؟ قال : لأنه يدعى أنه يهوانى ، ومنذ ثلاث ما رآنى ، قال : فوقعت مغشيا على ، فلما أفقت ما

قدرت على النهوض ، فقيل لى فى ذلك ، فقلت : ينبغى للمحب ألا يفارق باب محبوبه على أي حال.
وأنشدوا :
لازم الباب إن عشقت الجمالا واهجر النّوم إن أردت الوصالا
واجعل الروح منك أوّل نقد لحبيب أنواره تتلالا

(٥٧٥/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٧٦
قلت : فالحبيب غيور لا يحب أن يرى فى قلب حبيبه غيره. فإذا رأى فيه شيئا أخرجه منه ، وفرق بينه وبينه غيرة منه واعتناء به ، وهو السر فى افتراق يوسف من أبيه. واللّه تعالى أعلم.
ثم تعرضوا ليوسف ، فقالوا :
[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٩ الى ١٠]
اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ (٩) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (١٠)
يقول الحق جل جلاله : قال إخوة يوسف لما حركهم الحسد : اقْتُلُوا يُوسُفَ قيل : إنما قاله شمعون ودان ، ورضى به الآخرون ، أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً أي : فى أرض بعيدة يأكله السباع ، أو يلتقطه أحد ، فإن فعلتم يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ أي : يصف إليكم وجه أبيكم فيقبل بكليته عليكم ، ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ، ولا ينازعكم فى محبته أحد ، وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ من بعد يوسف ، أو الفراغ من أمره ، أو قتله ، أو طرحه ، قَوْماً صالِحِينَ تائبين إلى اللّه عما جنيتم ، مع محبة أبيكم. أو صالحين فى أمور دنياكم ، فإنها تنتظم لكم بخلو وجه أبيكم لكم ، قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ هو يهوذا ، وكان أحسنهم فيه رأيا ، وقيل : روبيل : لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ فإن القتل عظيم ، وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ «١» الْجُبِّ : فى قعره ، سمى به لغيبته عن أعين الناظرين. ومن قرأ بالجمع ، فكان بتلك الجب غيابات ، يَلْتَقِطْهُ : يأخذه بَعْضُ السَّيَّارَةِ أي : الذين يسيرون فى الأرض ، إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ ما يفرق بينه وبين أبيه ولا بد ، أو كنتم فاعلين بمشورتى.
الإشارة : إن أردت أن يخلو لك وجه قلبك فيخلو لك وجه حبيبك ، حتى تشاهده عيانا وتعرفه إيقانا ، فاقتل كل ما يميل إليه قلبك ويعشقه من الهوى ، واطرح عن عين بصيرتك رؤية السّوى ، ترى من أنوار وجهه وأسرار محاسنه ، ما تبتهج به القلوب والأسرار ، وتتنزه فى رياض محاسنه البصائر والأبصار.
وأنشدوا :
إن تلاشى الكون عن عين كشفى شاهد القلب غيبه فى بيان
فاطرح الكون عن عيانك وامح نقطة الغين إن أردت ترانى

(١) قرأ الجمهور «غيابة» بالإفراد هنا وفى الموضع التالي فى الآية (١٨) وقرأ نافع «غيابات» بالجمع فى الموضوعين ، وقد سار المفسر هنا على قراءة الجمهور ، وسار فى الموضع التالي على قراءة نافع.

(٥٧٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٧٧

ثم احتالوا على أبيهم فى إرسال يوسف معهم ، كما قال تعالى :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ١١ الى ١٤]

قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (١٢) قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ (١٣) قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ (١٤)

قلت : (تأمننا) : اجتمع نونان ، فيجوز الإدغام ، وبه قرأ أبو جعفر ، وقرأ الجماعة بالإشمام. وقوله : (يرتع ويلعب) : جواب الأمر ، فمن قرأ بكسر العين فجزمه بحذف الياء ، وهو من رعى الإبل ، ومن قرأ بالإسكان فهو من الرتع ، وهى الإقامة فى الخصب والتنعم ، والتاء على هذا أصلية. ووزن الفعل : يفعل ، ووزنه على الأول يفتعل ، قال ابن عطية : فيرتع على قراءة نافع من رعى الإبل ، أي : يتدرب فى رعى الإبل وحفظ المال. قال أبو على : وقراءة ابن كثير : (نرتع) بالنون (و يلعب) بالياء ، فنزعها حسن لإسناد النظر فى المال والرعاية إليهم ، واللعب إلى يوسف لصباه ، وقرأ أبو عمر وابن عامر : (نرتع ونلعب) بالنون فيهما ، وإسكان العين والباء ، من الرتوع ، وهو : الإقامة فى الخصب والمرعى فى أكل وشرب ، وقرأ عاصم والأخوان : (يرتع ويلعب) بإسناد ذلك كله إلى يوسف. هـ. قلت : وكذا قرأ نافع ، غير أنه يكسر العين وهم يسكنون.

(و نحن عصبة) : حال ، والرابط الواو ، والعصبة : الجماعة من العشرة إلى فوق.

يقول الحق جل جلاله : قال إخوة يوسف لأبيهم : يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ أي : لم تخافنا عليه؟ وَإِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ نشفق عليه ، ونريد له الخير. أرادوا أن يستنزلوه عن رأيه فى حفظه منهم لما تنسم من حسدهم. قلت : قد نصحوه فى الحقيقة حيث تسببوا فى ملكه وعزه. روى أنهم لما قالوا له : (مالك ....) إلخ ، اهتزت أركانه ، واصفر لونه ، واصطكت أسنانه ، وتحركت جوانبه ، كأنه علم بما فى قلوبهم بالفراسة. ثم قالوا :

أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ : يتسع فى أكل الفواكه ونحوها. أو يتعلم الرعاية ، وَيَلْعَبْ بالاستباق والإنتضال ، وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ أن يناله مكروه.

قالَ يعقوب : إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ لشدة مفارقته عليّ ، وقلة صبرى عنه ، وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ : لاشتغالكم بالرتع واللعب ، أو لقلة اهتمامكم به ، وإنما خاف عليه من الذيب

(٥٧٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٧٨

لأن الأرض كانت مذأبة ، وقيل : رأى فى المنام أن الذئاب أحدقت بيوسف فكان يخافه ، وإنما كان تأويلها : إحداق إخوته به حين أرادوا قتله. قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ : جماعة ، إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ : مغبونون من القوة والحزم ، أو مستحقون بأن يدعى عليهم بالخسارة.

الإشارة : لم يسمح يعقوب عليه السّلام بفراق حبيبه ساعة ، وكذلك العبد لا ينبغى أن يغفل عن سيده لحظة لأن الغفلة فراق ، والذكر انجماع ، والعبد لا صبر له عن سيده. وأنشدوا :

فلأبكين على الفراق كما بكى سفا لفرقة يوسف يعقوب

ولأدعونك فى الظلام كما دعا عند البلية ربّه أيوب

وأنشدوا أيضا فى ذم الغفلة :

غفلت عن الأيّام يا أخى فانتبه وشمّر فإن الموت لا شك واقع

على أي شيء هو حزنك قائم جنود المنايا تأتيك فانهض وسارع

قيل : إن بعض الصالحين رأى أستاذه فى المنام ، فقال له : يا أستاذ ، أي الحسرات عندكم أعظم؟

قال : حسرة الغافلين. وأنشدوا :

تيقظ إلى التّذكار فالعمر قد مضى وحتى متى ذا السكر من غفلة الهوى

ورأى ذو النون المصري بعض الصالحين فى المنام ، فقال له : ما فعل اللّه بك؟ قال : أوقفنى بين يديه ، وقال :

يا مدعى ، ادعيت محبتى ثم غفلت عنى. وأنشدوا :

تغافلت عن فهم الحقيقة بالهوى فلا أذن تصغى ولا عين تذرف

ضعفت ولكن فى أمانيك قوة فيا تابع اللذات كم تتخلف

ورأى عبد اللّه بن مسلمة والده فى النوم ، فقال له : يا أبت ، كيف ترى حالك؟ فقال له : يا ولدي عشنا غافلين.

وأنشدوا :

غفلت وحادى الموت يحدوك للبلا وجسمك يا مغرور أصبح معتلا

وحتى متى يا صاح بابك مغلق أتاك نذير الموت والعمر قد ولّى

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٧٩

قيل : ما أصاب يعقوب ما أصابه فى ولده إلا من أجل خوفه عليه ، وغفلته عن استيداعه ربه ، ولو استودعه ربه لحفظه ، لكن لا ينفع حذر من قدر. (و كان أمر اللّه قدرا مقدورا).

ثم ذكر انصرافهم بيوسف ، وما كان من شأنه ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ١٥ الى ١٨]

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ (١٦) قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ (١٧) وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (١٨)

قلت : (لمّا) حرف وجود لوجود ، يطلب الشرط والجواب ، وجوابها هنا محذوف ، أي : فعلوا به ما فعلوا.

وقيل : جوابها : (أجمعوا) ، وقيل : (أوحينا) على زيادة الواو فيهما. وجملة : (و هم لا يشعرون) : حال من (تنبئنهم) ، فيكون خطابا ليوسف عليه السّلام ، أو من (أوحينا) أي : وهم لا يشعرون حين أوحينا إليه. فيكون حينئذ الخطاب لسيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم. و(صبر جميل) : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : مثل. أو : خبر عن مبتدأ ، أي :

أمرى صبر جميل. و(على قميصه) : فى موضع نصب على الظرف ، أي : فوق قميصه. أو : حال من الدم إن جوز تقديمها على المجرور.

يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا ذَهَبُوا بيوسف معهم وَأَجْمَعُوا أي : عزموا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ «١» الْجُبِّ وهو بئر بأرض الأردن ، أو بين مصر ومدين ، أو على ثلاثة فراسخ من مقام يعقوب.

قال الفراء : كان حفره شداد بن عاد. فانظره. قال السدى : ذهبوا بيوسف وبه عليهم كرامة ، فلما برزوا فى البرية أظهروا له العداوة ، وجعل أخوه يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ، فجعل لا يرى منهم رحيما. فضربوه حتى كادوا يقتلونه ، فجعل يصيح : يا أبتاه يا يعقوب ، لو تعلم ما صنع بابنك بنو الإماء. هـ. وكان إخوته سبعة من خالته الحرة ، والباقون من سريتين له ، كما تقدم.

وقال ابن عباس رضى اللّه عنه : كان يعقوب عليه السّلام ينظر إلى يوسف عليه السّلام حتى غاب عنه ، وعن نظره ، فلما علموا أنهم غيبوه عنه ، وضعوه فى الأرض وجروه عليها ، ولطموا خده ، فجرد شمعون سكينه وأراد ذبحه ، فتعلق بذيل

(١) راجع التعليق على تفسير الآية «٩» من نفس السورة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٨٠

روبيل وضربه ، وكذلك جميع إخوته إذا لجأ لواحد منهم طرده ، فضحك عند ذلك يوسف عليه السّلام ، فقال له يهوذا :

ليس هذا موضع الضحك يا يوسف ، فقال : من تعزز بغير اللّه ذل ، ظننت أنه لا يصيبنى وأنا بينكم مكروه لما رأيت من قوتكم وشدتكم ، فسلطكم اللّه على بشؤم تلك الفكرة حتى لا يكون التوكل إلا عليه والتعزز إلا به. هـ. بالمعنى.

وقال الفراء : كانت زينب بنت يعقوب عليه السّلام – أخت يوسف – وكانت رأت فى منامها كأن يوسف وضع بين الذئاب وهم ينهشون ، فانتبهت فازعة ، ومضت إلى أبيها باكية ، فقالت يا أبت ، أين أخى يوسف؟ قال : أسلمته إلى إخوته ، فمضت خلفه حتى لحقت به ، فأمسكته ، وتعلقت بذيله ، وقالت : لا أفارقك اليوم يا أخى أبدا ، فقال لها إخوتها : يا زينب ، أرسليه من يدك ، فقالت : لا أفعل ذلك أبدا لأنى لا أطيق فراق أخى ، فقالوا : بالعشي نرده إليك ويأتيك. ثم أقبل يوسف عليه السّلام يقبل رأسها ويديها ، ويقول لها : يا أختاه دعينى أسير مع إخوتى أرتع وألعب ، فذهب ، وجلست تشيعه بعينها ، ودموعها تتناثر مما رأت خوفا عليه. هـ.

فلما غابوا به عنها فعلوا به ما تقدم ، وهموا بقتله ، فقال لهم يهوذا : أما عاهدتمونى ألا تقتلوه فأتوا به إلى البئر فدلوه فيها فتعلق بشفيرها ، فربطوا يده ، ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم ، ويحتالوا به على أبيهم ، فقال : يا إخوتاه ردّوا علىّ قميصى أتوارى به ، فقالوا : ادع الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر يلبسوك ويؤنسوك. فلما بلغ نصفها ألقوه ، وكان فيها ماء ، فسقط ، ثم آوى إلى صخرة كانت فيها فقام عليها يبكى ، فجاءه جبريل بالوحى ، كما قال :

وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ ... إلخ. وكان ابن سبع عشرة سنة ، وقيل : كان مراهقا. وقال ابن عطية : كان ابن سبع سنين ، أوحى إليه فى صغره كما أوحى إلى يحيى وعيسى – عليهما السلام – .

وفى القصص : أن ابراهيم عليه السّلام ، حين ألقى فى النار ، جرد من ثيابه ، فأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، فدفعه إبراهيم إلى إسحق ، وإسحق إلى يعقوب ، فجعله فى تميمة علقها على يوسف ، فأخرجه جبريل وألبسه يوسف.

ثم قال له فيما أوحى إليه : لَتُنَبِّئَنَّهُمْ أي : لتحدثنهم بِأَمْرِهِمْ هذا بما فعلوا بك ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ أنك

يوسف ، لعلو شأنك وبعده عن أوهامهم ، وطول العهد المغير للحال والهيئات. وذلك إشارة إلى ما قال لهم بمصر ، حين دخلوا عليه ممتارين ، فعرفهم وهم له منكرون ، إلى أن قال لهم : هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ «١» وفى رواية : أوحى إليه : يا يوسف لا تحزن على ما أصابك ، فإنك تصل إلى ملك كبير ، ويقف إخوتك بين يديك. بشره بما يؤول إليه أمره ، إيناسا وتطييبا لقلبه.

وقيل : وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ متصل بقوله : وَأَوْحَيْنا أي : آنسناه بالوحى وهم لا يشعرون ذلك.

---

(١) الآية ٨٩ من سورة يوسف.

وَجاؤُ أَباهُمْ عِشاءً آخر النهار ، وقرىء عشى بضم العين والقصر ، جمع أعشى ، أي : عشى من البكاء. فجاءوا إليه يَبْكُونَ أي : متباكين. روى أنه لما سمع بكاءهم فزع وقال : يا بنى ، أين يوسف؟ فقالوا :

يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ أي : نتسابق بأقدامنا فى العدو ، أو الرمي وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا : بمصدق لنا ، وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ لسوء ظنك ، وفرط محبتك ليوسف.

وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ : فوق قميصه بِدَمٍ كَذِبٍ ، أي : ذى كذب بمعنى مكذوب فيه لأنهم ذبحوا جديا ، ولطخوا قميصه بدمه. روى أنه لما سمع بخبر يوسف صاح ودعا بقميصه فأخذه ، وألقاه على وجهه ، وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص ، وقال : ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا! أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه.

وفى رواية أخرى : أنه لما رأى صحة القميص ضحك ، فقالوا له : الضحك والبكاء من فعل المجانين! فقال : أما بكائي فعلى يوسف لما رأيت الدم ، وأما ضحكى ، فإنى لما رأيت صحة القميص رجوت أن الحديث غير صحيح ، ولذلك قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً أي : سهلت لكم ، وهونت فى أعينكم أمرا عظيما حتى أقدمتم عليه. وقيل : لما سمع مقالهم غشى عليه إلى الصباح ، وهم يبكون بأجمعهم ، ويقولون بينهم : بئس ما فعلناه بيوسف ووالده ، وأي عذر لنا عند اللّه. فلما أفاق نظر إلى أولاده وقال : هكذا يا أولادى كان ظنى فيكم ، بئس ما فعلتم ، وبئس ما سولت لكم أنفسكم فَصَبْرٌ جَمِيلٌ أي : فأمرى صبرى جميل. وفى الحديث : «الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه إلى الخلق» «١». وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ أي : على احتمال ما تصفونه من هلاك ابني يوسف.

وهذه الجريمة كانت قبل استنبائهم ، إن صح أنهم تنبأوا. وقد تقدم فى سورة البقرة الخلاف فى نبوة

الأسباط فراجعه «٢».

الإشارة : فى هذه الآية رجاء كبير لأهل العصيان ، وبشارة وتأنيس لمن أراد مقام الإحسان ، بعد الإساءة والغفلة والنسيان ، وذلك أن هؤلاء السادات فعلوا بيوسف عليه السّلام ما فعلوا ، فلما تابوا بعد هذا الفعل العظيم اجتباهم الحق تعالى ، وتاب عليهم ، وقربهم حتى صاروا أنبياء ، على حد قول بعض العلماء. ولذلك قيل : [كم من خصوص خرجوا من اللصوص ، وكم من عابد ناسك خرج من ظالم فاتك]. وفى الحكم : «من استغرب أن ينقذه اللّه من

---

(١) أخرجه ابن جرير فى التفسير (١٢/ ١٦٦) عن حبان بن أبى جبلة ، مرسلا.

(٢) راجع تفسير الآية ١٣٦ من سورة البقرة.

شهوته ، وأن يخرجه من وجود غفلته ، فقد استعجز القدرة الالهية ، وكان اللّه على كل شيء مقتدرا».

وللشافعى رضي اللّه عنه :

فلمّا قسا قلبى وضاقت مذاهبى جعلت الرّجا منّى لعفوك سلّما

تعاظمنى ذنبى فلمّا قرنته بعفوك ربّى كان عفوك أعظما

وهذا إنما يكون بالتوبة النصوح ، والنهوض التام ، والمجاهدة الكبيرة ، كما فعل إبراهيم بن أدهم ، والفضيل ابن عياض ، والشيخ أبو يعزى ، وغيرهم ممن كانوا لصوصا فصاروا خصوصا. قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «من لم يغلب نفسه وهواه فليس له حظّ فى عقباه». وأنشدوا :

جنينا على النّفس التي لك رشدها بطبع الهوى فيها وتيه من الحجا

جزى اللّه خيرا من أعدّ لدائه دواء التّقى فاستعمل الخوف والرّجا

جبان وترجو أن تلقّب فارسا متى شابه العضب اليمانىّ دملجا

وفيها أيضا : تنويه بمقام الصابرين وعاقبة المتقين ، فإن يعقوب عليه السّلام ، لما استعمل الصبر الجميل ، جمع اللّه شمله بولده مع ما أعد له من الثواب الجزيل. ويوسف عليه السّلام ، لما صبر على ما أصابه من المحن عوضه العز الدائم بترادف المدن. وفى الخبر : «أعلى الدرجات درجات الصابرين». لكل عمل ثواب محدود ، وثواب الصبرين غير محدود ولا معدود. قيل : إن اللّه تعالى أعطى لكل صابر قصرا فى الجنة مسيرة الشمس أربعين يوما ، من درة بيضاء معلقة فى الهواء ، ليس تحته دعامة ، ولا فوقه علاقة ، وله أربعة آلاف باب ، يدخل من كل باب سبعون ألف ملك ، يسلمون

على صاحبه ولا ترجع النوبة إليهم أبدا. هـ.

ثم ذكر خروج يوسف من البئر ، وبيعه ، ودخوله مصر ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ١٩ الى ٢٢]

وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٨٣

قلت : (بضاعة) : حال من المفعول ، أي : وأخفوه مبضعا به للتجارة. و(لنعلمه) : عطف على محذوف ، أي :

مكناه فى الأرض ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه .. إلخ. و(دراهم) : بدل من (ثمن). قال الهروي : الأشدّ : من خمسة عشر إلى أربعين سنة. وهو جمع شدة ، مثل : نعمة وأنعم ، وهى : القوة والجلادة فى البدن والعقل. هـ.

يقول الحق جل جلاله : وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ رفقة تسير من مدين إلى مصر ، فنزلوا قريبا من الجب ، وكان ذلك بعد ثلاث من إلقائه فيه. فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ الذي يرد الماء ، ويستقى لهم ، وهو : مالك بن ذعر الخزاعي ، فَأَدْلى دَلْوَهُ أرسلها فى الجب ليملأها ، فتعلق بها يوسف ، فلما رآه قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ نادى البشرى ، بشارة لنفسه ، أو لقومه ، كأنه قال : تعال هذا أوانك. وقيل : اسم لصاحبه ، ناداه ليعينه على إخراجه فأخرجوه ، وَأَسَرُّوهُ أي : أخفاه الوارد ، وأصحابه عن الرفقة ، وقالوا : دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه بمصر ، حال كونه بِضاعَةً أي : متاعا مبضعا به للتجارة ، أي : يباع ويتجر بثمنه. وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ لم يخف عليه أسرارهم.

وَشَرَوْهُ أي : باعه السيارة من الرفقة ، أو إخوته ، فيكون الضمير راجع لهم. روى أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بالطعام ، فأتاه يومئذ فلم يجده فيها ، وأخبر إخوته فأتوا الرفقة وقالوا : هذا غلامنا فاشتروه ، وسكت يوسف خوفا من أن يقتلوه. أو اشتروه من إخوته لأن شرى قد يستعمل بمعنى اشترى. فاشتراه الرفقة منهم بِثَمَنٍ بَخْسٍ أي : مبخوس ، لزيفه أو نقصانه ، دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ قليلة ، فإنهم يزنون ما بلغ الأوقية ، ويعدّون ما دونها. قيل :

كان عشرين درهما. وقيل : اثنين وعشرين. روى أن الذي اشتراه منهم مالك بن ذعر المتقدم ، وكان صعلوكا ، فسأل يوسف أن يدعو له فدعا له فصار غنيا. روى أنه قال لهم : بكم تبيعونه؟ فقالوا له : إن اشتريته بعيوبه بعناه لك. فقال : وما عيوبه؟ فقالوا : سارق كذاب ، يرى الرؤيا الكاذبة. فقال لهم : بكم تبيعونه لى مع عيوبه؟ ويوسف عليه السّلام ينظر إليهم ولا يتكلم ، وهو يقول فى نفسه : ما أظنه يقوم بثمنى لأنهم يطلبون أموالا كثيرة. قال لهم مالك :

معى دراهم قليلة تعد ولا توزن ، فقالوا له : هاتها. فاشتراه منهم بتلك الدراهم المعدودة. قال ابن عباس : كانت سبعة عشر درهما ، جعل له ذلك جزاء لما قوم نفسه ، وظن أنهم يطلبون فيه الأموال. هـ.

وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ : الراغبين عنه. يحتمل أن يكون الضمير لإخوته ، وزهدهم فيه ظاهر. أو يكون للرفقة ، فإن كانوا

(٢/٥٨٣)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٨٤

بائعين فزهدهم فيه لأنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به خائف من انتزاعه ، وإن كانوا مبتاعين فلأنهم اعتقدوا أنه آبق.

قال الفراء : لما اشتراه منهم مالك ، قال لهم : اكتبوا لى كتابا بخطكم بأنكم بعتم منى هذا الغلام بكذا وكذا ، فكتبوا له ذلك ، فلما أراد الرحيل قالوا له : اربطه لئلا يهرب ، فلما همّ بربطه قال له يوسف : خلنى أودّع ساداتى فلعلّى لا ألقاهم بعد هذا اليوم. فقال له مالك : ما أكرمك من مملوك ، حيث يفعل بك هذا وأنت تتقرب منهم. فقال له يوسف : كل أحد يفعل ما يليق به ، فقال له : دونك ، فقصدهم وهم قيام صفا واحدا ، فلما دنا منهم بكوا وبكى يوسف عليه السّلام ، ثم قالوا : واللّه لقد ندمنا يا يوسف على ما فعلنا ، ولو لا الخشية من والدنا لرددناك. هـ. ثم ذهبوا به إلى مصر فباعوه ، فاشتراه العزيز الذي كان على خزائن مصر. واسمه : «قطفير» ، وكان الملك يومئذ «ريان بن الوليد العلقمي» ، وقد آمن بيوسف ، ومات فى حياته.

وَقالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ راعيل ، أو زليخا ، أَكْرِمِي مَثْواهُ اجعلي مقامه عندنا كريما ، والمعنى : أحسنى تعهده ، عَسى أَنْ يَنْفَعَنا فى ضياعنا وأموالنا ، نستظهر به فى مصالحنا ، أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً أي : نتبنّاه ، وكان عقيما ، لما تفرس فيه من الرشد. ولذلك قيل : (أفرس الناس عزيز مصر ، وابنة شعيب التي قالت : يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ «١» ، وأبو بكر حين استخلف عمر) «٢».

قال البيضاوي : روى أنه اشتراه العزيز وهو ابن تسع عشرة سنة ، ولبث فى منزله ثلاث عشرة سنة ، واستوزره الريان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة. واختلف فيما اشتراه به

من جعل شراء غير الأول ، فقيل : عشرون دينارا ، وزوجا نعل ، وثوبان أبيضان. وقيل : ملؤه – أي وزنه – فضة ، وقيل : ذهبا. هـ.

وقيل : مسكا وحريرا.

وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ أي : وكما مكنا محبته فى قلب العزيز ، أو كما مكناه فى منزله ، أو كما أنجيته ، وعطفنا عليه العزيز ، مكناه فى الأرض ، ليتصرف فيها بالعدل ، وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ أي :

من تأويل كتب اللّه المتقدمة ، أو من تأويل الأحكام الحادثة بين الناس ليحكم فيها بالعدل ، أو من تعبير المنامات ، ليستعد لها قبل حلولها. أي : كان القصد فى إنجائه وتمكينه : إقامته العدل ، وتيسير أمور الناس ، وليعلم معانى كتب اللّه وأحكامه فينفذها ، وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ : لا يرده شىء ، ولا ينازعه فيما يريد جبار ولا عنيد ، أو : غالب

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة القصص.

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٤٦) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، عن ابن مسعود وكذلك أخرجه الطبراني فى الكبير (٨/ ١٨٥ ح ٨٨٢٩).

على أمر يوسف ، فيدبر أمره بالحفظ والرعاية ، والنصر والعز فى عاقبة أمره ، خلاف ما أراد به إخوته ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أن الأمر كله بيده ، أو لا يفهمون لطائف صنعه ، وخفايا لطفه.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ منتهى اشتداد جسمه ، وكمال عقله. وتقدم تفسير الهروي له ، وحده. وقيل : ما بين الثلاثين والأربعين ، آتَيْناهُ حُكْماً : حكمة ، وهى النبوة. أو العلم المؤيد بالعمل. أو حكما بين الناس بالعدل.

وَعِلْماً يعنى : علم تأويل الأحاديث ، أو علما بأسرار الربوبية ، وكيفية آداب العبودية. وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إذا كمل عقلهم ، وتوفر آدابهم ، وكمل تهذيبهم ، آتيناهم الحكمة وكمال المعرفة. وفيه تنبيه على أنه تعالى إنما آتاه ذلك جزاء على إحسانه وإتقانه عمله فى عنفوان شبابه.

الإشارة : من ظن انفكاك لطف اللّه عن قدره فذلك لقصور نظره ، لا سيما لطفه بالمتوجهين إليه ، أو العارفين به الواصلين لحضرته. فكل ما ينزل بهم فإنما هو أقدار جارية ، وأمداد سارية ، وأنوار بهية ، وألطاف خفية ، تسبق لهم الأنوار قبل نزول الأقدار ، فلا تحوم حول قلوبهم الأكدار ، ولا تغير قلوبهم

رؤية الأغيار ، عند نزول شدائد الأقدار ، يحفظ عليهم أسرار التوحيد ، وينزل عليهم أنوار التأييد ، عند نزول القضاء الشديد ، والبلاء العتيد. ولا بن الفارض رضي اللّه عنه :

أحبّائى أنتم ، أحسن الّدهر أم أسا فكونوا كما شئتم أنا ذلك الخل

وقال صاحب العينية :

تلذّ لى الآلام إذ كنت مسقمى وإن تختبرني فهى عندى صنائع

تحكّم بما تهواه فىّ فإنّنى فقير لسلطان المحبّة طائع

وقد جرت عادة اللّه تعالى أن يعقب الجلال بالجمال ، والمحن بالمنن ، والذل بالعز ، والفقر بالغنى ، فبقدر ما تشتد المحن تأتى بعدها مواهب المنن ، وبقدر ما ينزل من الجلال يأتى بعده الجمال. سنة اللّه فى خلقه ، ولن تجد لسنة اللّه تبديلا. لا راد لما قضى ، ولا معقب لما به حكم وأمضى.

قال تعالى : وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ : قال بعض المفسرين : هذه الآية هى قطب هذه السورة ، ثم قال : أراد آدم البقاء فى الجنة ، وما أراد اللّه ذلك ، فكان الأمر مراد اللّه. وأراد إبليس أن يكون رأس البررة الكرام ، وأراد اللّه أن يكون إمام الكفرة اللئام ، فكان الأمر كما أراد اللّه. وأراد النمرود هلاك إبراهيم عليه السّلام ، ولم يرده اللّه ، فكان الأمر كما

أراد اللّه. وأراد فرعون هلاك موسى عليه السّلام ، فأهلكه اللّه ، ونجى موسى. وأراد داود أن يكون الملك لولده ميشا ، وأراد اللّه أن يكون لسليمان عليه السّلام ، فكان كما أراد اللّه. وأراد أبو جهل هلاك سيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ونبوة الوليد بن المغيرة ، فأهلك اللّه أبا جهل والوليد ونبأ محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم. وأراد المنذر بن عاد البقاء فى الدنيا ، فأهلكه اللّه وخرب ملكه. وأراد إرم العاتي ، الذي بنى إرم ذات العماد ، يحاكى بها الجنة ، أن يسكنها خالدا فيها ، فكذبه اللّه ، وحال بينه وبينها ، وغيبها عنه ، حتى مات بحسرتها. هـ.

ثم ذكر مراودة زليخا ليوسف ، وما كان من شأنهما ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٢٣ الى ٢٩]

وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ

نَفْسِي وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧)

فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ (٢٩)

قلت : المراودة : المطالبة ، من راد يرود : إذا جاء وذهب لطلب الشيء ، ومنه الرائد. و(هيت) : اسم فعل معناه :

تعال ، أو أقبل ، مبنى على الفتح كأين ، واللام للتبيين ، كالتى فى : سقيا لك ، وقرأ ابن كثير : بالضم تشبيها بحيث ، ونافع وابن عامر بالفتح ، وهى لغة فيه. وقرىء : «هئت» بالهمز كجئت ، من هاء يهىء : إذا تهيأ. و(معاذ اللّه) :

مصدر لمحذوف ، أي : أعوذ باللّه معاذا. و(إنه) : ضمير الشأن. و(لو لا) : حرف امتناع ، وجوابها محذوف ، أي :

لخالطها ، ولا يجوز أن يكون (و همّ بها) جوابها لأن حكمها حكم الشرط ، فلا يتقدم عليها جوابها. قاله البيضاوي.

(٥٨٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٨٧

قلت : وبهذا يرد على من وقف على (همت به) ، كالهبطى ومن تبعه ، إلا أن يحمل على أنه ابتداء كلام مع حذف الجواب. واستحسنه البعض ليكون همّ يوسف خارجا عن القسم ، (و كذلك) : فى موضع المصدر ، أي : ثبتناه مثل ذلك التثبيت لنصرف .. إلخ ، و(المخلصين) بالفتح : اسم مفعول من : أخلصه اللّه. وبالكسر : اسم فاعل بمعنى :

أخلص دينه للّه.

يقول الحق جل جلاله : وَراوَدَتْهُ للفاحشة ، أي : تمحلت وطلبت منه أن يوافقها الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها وهى زليخا. وترك التصريح بها استهجانا. فراودته عن نفسه ، وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ ، قيل : كانوا سبعة. والتشديد للتكثير ، أو للمبالغة فى الإيثاق ، وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ أي : أقبل وبادر ، أو تهيأت لك. روى أنها تزينت بأحسن ما عندها ، وقالت : تعال يا يوسف ، قالَ مَعاذَ اللَّهِ أي : أعوذ باللّه معاذا ، إِنَّهُ أي : الشأن ، رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ سيدى أحسن إقامتى وتربيتى ، إذ قال لك أكرمى مثواى ، فما جزاؤه أن أخونه فى أهله ، أو أنه تعالى ربى أحسن منزلى بأن عطف علىّ قلب سيدى ، ولطف بي فى أمورى ، فلا أعصيه ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ المجاوزون الإحسان إلى الإساءة ، أو الزناة فإن الزنى ظلم على الزاني والمزنىّ

بأهله.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها ، قال ابن جزى : أكثر الناس الكلام فى هذه الآية ، حتى ألفوا فيها التآليف ، فمنهم مفرط ومفرّط وذلك أن منهم من جعل همّ المرأة وهمّ يوسف من حيث الفعل الذي أرادته.

وذكروا من ذلك روايات من جلوسه بين رجليها ، وحله للتكّة ، وغير ذلك مما لا ينبغى أن يقال به لضعف نقله ولنزاهة الأنبياء عن مثله ، ومنهم من قال : همت به لتضربه على امتناعه ، وهمّ بها ليقتلها أو يضربها ليدفعها. وهذا بعيد يرده قوله :

لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ. ثم قال : والصواب – إن شاء اللّه – : أنها همت به من حيث مرادها ، وهمّ بها كذلك ، لكنه لم يعزم على ذلك ، ولم يبلغ إلى حد ما ذكر من حل التكّة ، بل كان همه خطرة خطرت على قلبه ، ولم يتابعها ، ولكنه بادر إلى التوبة والإقلاع عن تلك الخطرة ، حتى محاها من قلبه ، لمّا رأى برهان ربه. ولا يقدح هذا فى عصمة الأنبياء لأن الهم بالذنب ليس بذنب ، ولا نقص فى ذلك لأن من همّ بذنب ثم تركه كتب له حسنة. هـ.

قلت : وكلامه حسن لأن الخطرات لا طاقة للبشر على تركها ، وبمجاهدة مخالفتها فضّل البشر على جنس الملائكة ، وقال البيضاوي : والمراد بهمه : ميل الطبع ، ومنازعة الشهوة ، لا القصد الاختياري ، وذلك مما لا يدخل تحت التكليف ، بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل ، لمن يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم أو مشارفته ، كقوله : قتلته لو لم أخف اللّه. هـ. ومثله فى تفسير الفخر ، وأنه مال إليها بمقتضى الطبع ، ومنع منه بصارف العصمة ، كالصائم يشتاق الماء البارد ، ويمنعه منه صومه.

ومثله أيضا فى لطائف المنن : همت به همّ إرادة ، وهمّ

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٨٨

بها همّ ميل لا همّ إرادة. قال المحشى الفاسى : وفيه نظر لأن ذلك لا يتصور فى النفوس المطمئنة. وإنما ذلك شأن أرباب التلوين والمجاهدة ، دون أهل التمكين والمشاهدة ، وخصوصا الأنبياء إذ صارت نفوسهم مشاكلة للروح ، مندرجة فيها ، ولذلك صارت مطمئنة ، وميلها حينئذ إنما يكون للطاعة ، وأما غير الطاعة ، فهى بمنزلة القذر والنتن تشمئز منه ، ولا يتصور بحال ميلها إليه. ثم أطال الكلام فى ذلك.

قلت : أما تفسير الهم بالميل فلا يليق بالنفس المطمئنة. وأما تفسيره بالخاطر فيتصور فى المطمئنة وغيرها.

وإنما سماه اللّه تعالى همّا فى حق يوسف عليه السّلام لأن الأنبياء – عليهم السّلام – لعلو منصبهم ،

وشدة قربهم من الحضرة ، يشدد عليهم فى مطالبة الأدب ، فيجعل الخاطر فى حقهم همّا ، وظنا. كما قال تعالى : حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا «١» فيمن خفف الذال ، أو كما قال تعالى فى حق يونس عليه السّلام : فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ «٢» على أحد التفاسير. واللّه تعالى أعلم.

ثم قال تعالى : لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ لخالطها. والبرهان الذي رأى : قيل : ناداه جبريل : يا يوسف تكون فى ديوان الأنبياء ، وتفعل فعل السفهاء. وقيل : رأى يعقوب عاضا على أنامله ، يقول : إياك يا يوسف والفاحشة.

وقيل : تفكر فى قبح الزنى فاستبصر. وقيل : رأى زليخا غطت وجه صنمها حياء منه ، فقال : أنا أولى أن أستحى من ربى. كَذلِكَ أي : مثل ذلك التثبيت ثبتناه لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ خيانة السيد ، وَالْفَحْشاءَ ، الزنى إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ الذين أخلصناهم لحضرتنا. أو من الذين أخلصوا وجهتهم إلينا.

وَاسْتَبَقَا الْبابَ أي : تسابقا إلى الباب ، وابتدرا إليه ، وذلك أن يوسف عليه السّلام فرّ منها ليخرج حين رأى البرهان ، وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج ، وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ أي : شقت قميصه من خلف لما اجتذبته لترده. والقدّ : الشق طولا ، والقطّ : الشق عرضا ، وَأَلْفَيا سَيِّدَها : وصادفا زوجها لَدَى الْبابِ وفيه إطلاق السيد على الزوج ، وإنما أفرد الباب هنا ، وجمعه فى قوله : وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ لأن المراد هنا الباب البراني الذي هو المخرج من الدار. قالَتْ لزوجها : ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ؟ قالته إيهاما أنها فرت منه تبرئة لساحتها عند زوجها ، وإغراء له عليه انتقاما لنفسها لما امتنع منها.

قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي : طالبتنى بالمواقعة بها. قال ذلك تبرئة لساحته ، ولو لم تكذب عليه ما قاله.

---

(١) من الآية : ١١٠ من سورة يوسف. [.....]

(٢) من الآية/ ٨٧ من سورة الأنبياء.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٨٩

وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها ، قيل : ابن عمها. وقيل : ابن خالها صبيا فى المهد. وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف. وكونه لم يتكلم قط ، ثم تكلم كرامة ليوسف عليه السّلام ، وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «تكلم فى المهد أربعة : ابن ماشطة ابنة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى». وذكر مسلم فى صحيحه – فى قصة الأخدود – : «أن امرأة أتى بها

لتطرح فى النار ، ومعها صبى يرضع ، فقال لها : يا أمّه ، اصبري ، لا تجزعى. فإنك على الحق ..» «١» وعدّ بعضهم عشرة تكلموا فى المهد ، فذكر إبراهيم عليه السّلام ، ويحيى ابن زكريا ، ومريم ، ونبينا محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وطفلا فى زمنه عليه السّلام ، وهو : مبارك اليمامة ، وقد نظمهم السيوطي ، وزاد واحدا ، فقال :

تكلّم فى المهد النّبىّ محمّد ويحيى وعيسى والخليل ومريم

وصبىّ جريج ثم شاهد يوسف وطفل لدى الأخدود يرويه مسلم

وطفل عليه مرّ بالأمة الّتى يقال لها تزنى ولا تتكلّم

وماشطة فى عهد فرعون طفلها وفى زمن الهادي المبارك تختم

وذكر ابن وهب عن أبى لهيعة قال : بلغني أن المولود فيما تقدم كان يولد فى الليل ، فيصبح يمشى مع أمه. هـ وضعف ابن عطية كون شاهد يوسف صبيا بالحديث : «لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة» ، وبأنه لو كان الشاهد صبيا لكان الدليل نفس كلامه ، دون أن يحتاج إلى الاستدلال بالقميص. هـ. وقد يجاب بأن الحصر باعتبار بنى إسرائيل ، مع أن الوحى يتزايد شيئا فشيئا ، فأخبر بثلاثة ، ثم أخبر بآخرين ، وبأن الاستدلال وقع بهما تحقيقا للقضية.

ثم ذكر الحق تعالى ما قاله الشاهد ، فقال : إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ لأنه يدل على أنها قدت قميصه من قدامه بالدفع عن نفسها. أو لأنه أسرع خلفها فعثر بذيله فانقدّ جيبه.

وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ لأنها جذبته إلى نفسها حين فرّ منها. والجملة الشرطية محكية بالقول ، أي : قال : إن كان ... إلخ. وتسميتها شهادة لأنها أدت مؤداها. والجمع بين «إن» و«كان» : على تأويل : إن يعلم أنه كان ، ونحوه ، ونظيره : قولك : إن أحسنت إلىّ فقد أحسنت إليك من قبل. فإن معناه : إن تمدن على بإحسانك امنن عليك بإحسانى. ومعناه : إن ظهر أنه كان قميصه .. إلخ.

---

(١) أخرجه مسلم فى (الزهد والرقائق ، باب قصة أصحاب الأخدود ...) من حديث صهيب رضى اللّه عنه.

فَلَمَّا رَأى زوجها قميص يوسف قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ أي : قولك : ما جَزاءُ ... إلخ. مِنْ كَيْدِكُنَّ من حيلتكن. والخطاب لها ولأمثالها ولسائر النساء ، إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ لأن كيد النساء ألطف وأعلق بالقلب

، وأشد تأثيرا من النفس والشيطان لأنهن يواجهن به الرجال ، والنفس والشيطان يوسوسان مسارقة. ثم التفت العزيز إلى يوسف وقال : يُوسُفُ أي : يا يوسف. وحذف النداء إشارة إلى تقريبه وملاطفته ، أَعْرِضْ عَنْ هذا الأمر واكتمه ، ولا تذكره ، وَاسْتَغْفِرِي يا زليخا لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ من القوم المذنبين ، من خطأ إذا أذنب متعمدا. والتذكير للتغليب. قاله البيضاوي.

الإشارة : إذا أراد اللّه أن يصافى عبده بخصوصية النبوة أو الولاية ، كلأه بعين الرعاية ، وجذبه إليه بسابق العناية فإذا امتحنه أيّده بعصمته ، وسابق حفظه ورعايته. ولا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية فالشهوة فى البشر أمر طبيعى ، وبمجاهدتها ظهر شرفه. لكن النفس المطمئنة لا تحتاج فى دفعها إلى كبير مجاهدة.

والنفس اللوامة لا بد فى دفعها من المكابدة والمجاهدة فالهواجم والخواطر ترد على القلوب كلها ، لكن النفس المطمئنة لها قوة على دفعها ، وقد تتصرف فيها بإمضاء ما قدره اللّه الواحد القهار عليها. وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً. وذلك كمال فى حقهم لا نقصان إذ بذلك تتميز قهرية الربوبية من ضعف العبودية ، فما ظهرت كمالات الربوبية إلا بظهور نقائص العبودية. أما الإصرار على العيوب فلا يوجد مع الخصوصية مطلقا ، وأما هجومها على العبد من غير إصرار فيكون مع وجود خصوصية النبوة والولاية ، وقد تقع بها الزيادة إن صحبها الانكسار والإنابة. وفى الحكم : «ربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول». واللّه تعالى أعلم.

واعلم أن ما امتحن به الصديق عليه السّلام مع العصمة ، قد وقع مثله كثيرا فى هذه الأمة المحمدية مع الحفظ والامتناع ذكر الرصاع فى كتاب التحفة : أن بعض الطلبة كان ساكنا فى مدرسة فاس ، فخرجت امرأة ذات يوم إلى الحمام بابنتها ، فتلفّت البنت وبقيت كذلك إلى الليل ، فرأت بابا خلفه ضوء ، فأتت إليه ، فوجدت فيه رجلا ينظر فى كتاب ، فقالت : إن لم يكن الخير عند هذا فلا يكون عند أحد. فقرعت الباب ، فخرج الرجل فذكرت له قصتها ، وأنها خافت على نفسها. فرأى أنه تعيّن عليه حفظها ، فأدخلها وجعل حصيرا بينه وبينها ، وبقي كذلك ينظر فى كتابه ، فإذا بالشيطان زين له عمله ، فحفظه اللّه ببركة العلم ، فأخذ المصباح ، وجعل يحرك أصابعه واحدا بعد واحد حتى أحرقها ، والبنت تنظر إليه وتتعجب ، ثم خرج ينظر إلى الليل فوجده ما زال ، فأحرق أصابع اليد الأخرى ، ثم لاح الضوء ، فقال : اخرجى ، فخرجت إلى دارها سالمة ، فذكرت القضية لوالديها ، فأتى أبوها إلى مجلس العلم ، وذكر القصة للشيخ ، فقال للحاضرين : أخرجوا أيديكم وأمنوا على دعائى لهذا الرجل ، فأخرجوا أيديهم ، وبقي رجل ، فعلم الشيخ أنه صاحب القضية ، فناداه ، فأخبره ، فذكر أنه زوجه الأب منها. هـ. مختصرا.

فمن ترك شيئا للّه عوضه اللّه مثله ، أو أحسن منه. وكذلك فعل الحق تعالى بيوسف عليه السّلام قد زوجه زليخا على ما يأتى إن شاء اللّه.

وحدثنى شيخ شيخى مولاى العربي رضى اللّه عنه ، أنه وقف على حكايات تناسب هذا وهو أن رجلا صالحا تعلق قلبه بابنة الملك ، فلما رأى نفسه أنه لا يقدر على تزوجها تلطف حتى دخل عليها فى قبتها ليلا ، فوجدها نائمة على فراشها ملقى على وجهها رداؤها ، وشمعة تشعل عند رأسها ، وأخرى عند رجلها ، وطعام موضوع عندها. فكشف عن وجهها فرأى من الجمال ما أبهر عقله فجعل يتردد فى نفسه ، ويخاصمها على فعل الفاحشة ، فبينما هو كذلك إذ أبصر لوحا فوق رأسها مكتوبا فيه وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً «١» ، فتاب للّه تعالى عليه ، وزجر نفسه عن هواها ، فوضع يده فى ذلك الطعام ليأكل منه ، وترك فيه أثرا ، فلما أفاقت البنت رأت أثر اليد فى الطعام ، فسألت أهل الدار ، فكلهم قالوا : ما دخل عليك أحد منا ، فتيقنت أن رجلا دخل عليها ، وكان يخطبها كثير ممن له الرئاسة والجاه ، فخافت على نفسها من أن يطرقها أحد منهم فيغضبها ، فقالت لأبيها : لا بد أن تزوجنى ، فقال فى نفسه : واللّه لا أزوجها الا لرجل صالح ، فخرج مختفيا إلى المدرسة ، فأتى بعض الناس ، فقال : سمعت هنا برجل صالح ، فأردت أن أزوره فأشار إلى ذلك الرجل الذي دخل على بنته ثم سأل ثانيا ، وثالثا ، فكلهم أشار إليه ، فأتى إليه فقال له : إن لى بنتا جميلة خطبها منى كثير من الناس ، فأردت أن أزوجكها ، فجهزها بما يليق بها ، وزوجها إياه. هـ.

وذكر ابن عرضون : أن رجلا كان بالقيروان من العلماء الأتقياء ، يقال له شقران ، وكان جميل الصورة ، فهوته امرأة ، فأرسلت إلى عجوز ، وأسرت إليها أمره على أن توصله إليها ، فأتت إليه العجوز ، وقالت : عندى ابنة مريضة ، وأرادت أن توصى ، وعسى أن تصل إليها وتدعو لها ، فلبس ثيابه ، ومشى معها إلى أن وصلت إلى الدار فأدخلته ، فوجد صبية جميلة ، فقالت له : هلمّ ، فقال : إنى أخاف اللّه رب العالمين. فقالت له العجوز : هيهات يا شقران ، واللّه لئن لم تفعل لأصيحنّ ، وأقول : إنك دخلت علينا وعارضتنا ، فقال لها : إن كان ولا بد فدعينى حتى أدخل الحجرة ، فقالت له : افعل ما بدا لك ، فدخل الحجرة ، فقال : اللهم إنها ما هوت منى إلا صورتى فغيّرها ، فخرج من الحجرة ، وقد ظهر عليه الجذام. فلما رأته ، قالت : اخرج ، فخرج سالما. وهذه الحكاية مشهورة ببلاد القيروان. هـ.

قلت : وقد نزل بنا فى حال شبابنا كثير مما يشبه هذا ، فحفظنا اللّه بمنّه وكرمه وحسن رعايته. فلله المنة والحمد ، لا أحصى ثناء عليه.

---

(١) من الآية ٢ من سورة الطلاق.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٩٢

ولما شاع خبر زليخا مع يوسف عليه السّلام ، عاب عليها بعض النسوة ، كما قال تعالى :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٣٠ الى ٣٤]

وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)

قلت : (نسوة) : اسم جمع لامرأة. وتأنيثه غير حقيقى ، ولذلك جرد فعله من التاء. و(فى المدينة) متعلق بقال ، أي : أشعن الخبر فى المدينة ، أو : صفة لنسوة ، فيتعلق بالاستقرار. و(حبا) : تمييز. و(حاش للّه) : قال أبو على الفارسي : هى هنا فعل ، والدليل على ذلك من وجهين ، أحدهما : أنها دخلت على لام الجر ، ولا يدخل حرف على حرف. والآخر : أنها حذف منها الألف ، على قراءة الجماعة ، والحروف لا يحذف منها شيء. وقرأها أبو عمرو بالألف على الأصل ، والفاعل بحاش ضمير يوسف ، أي : بعد يوسف عن الفاحشة لخوف اللّه.

وقال الزمخشري : حاش : وضع موضع المصدر ، كأنه قال : تنزيها للّه. وحذف منه التنوين مراعاة لأصله من الحرفية. وقال البيضاوي : هو حرف يفيد معنى التنزيه فى باب الاستثناء ، فوضع موضع التنزيه. واللام للبيان ، كما فى قولك : سقيالك. هـ. و(ليكونن) : نون التوكيد الخفيفة كتبت بالألف لشبهها بالتنوين.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ : مصر ، وكانوا خمسا : زوجة الحاجب ، والساقي ، والخباز ، والسجان ، وصاحب الدواب. قلن : امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها : خادمها عَنْ نَفْسِهِ أي : تطلب مواقعة غلامها إياها ، قَدْ شَغَفَها حُبًّا قد دخل شغاف قلبها حبّه ، وهو غلافه ، إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ فى خطأ عن الرشد بيّن ظاهر. فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ باغتيابهن. وسماه مكرا لأنهن أخفينه كما يخفى الماكر مكره. وقيل : كانت استكتمتهن سرها فأفشينه. فلما بلغها إفشاؤه أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ تدعوهن. قيل :

دعت أربعين امرأة فيهن الخمس. وَأَعْتَدَتْ : أعدت لَهُنَّ مُتَّكَأً ما يتكئن عليه من الوسائد ونحوها. وقيل : المتكأ : طعام ، فإنهم كانوا يتكئون للطعام عند أكله ، وقرىء فى الشاذ : «متكأ» ، بسكون التاء وتنوين الكاف ، وهو الأترج. وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً ليقطعن به. وهذا يدل على أن الطعام كان مما يقطع بالسكاكين كالأترج. وقيل : كان لحما.

وَقالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ، فأسعفها لأنه كان مملوك زوجها ، فخرج عليهن ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ : عظمن شأنه وجماله الباهر ، وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : «رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر». وقيل : كان يرى تلألؤ وجهه على الجدران. وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ : جرحنها بالسكين لفرط الدهشة. اشتغلن بالنظر إليه ، وبهتن من جماله حتى قطعن أيديهن ، وهنّ لا يشعرن ، كما يقطع الطعام. وَقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ تنزيها له عن صفات العجز عن أن يخلق مثله. أو تنزيها له أن يجعل هذا بشرا. اعتقدوا أن الكمال خاص بالملائكة ، وكونه فى البشر فى حيز المحال ، أو تعجبا من قدرته على خلق مثله. ما هذا بَشَراً لأن هذا الجمال غير معهود للبشر. ، إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ على اللّه لأن الجمع بين الجمال الرائق ، والكمال الفائق ، والعصمة البالغة.

من خواص الملائكة.

قالَتْ لهن : فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ توبيخا لهن على اللوم ، أي : فهو ذلك الغلام الكنعانى ، الذي لمتننى فى الافتتان به قبل أن ترونه. ولو كنتن رأيتنّه لعذرتنّنى ، وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ : فامتنع طلبا للعصمة. أقرت لهن حين عرفت أنهن يعذرنها كى يعاونها على إلانة عريكته ، وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ به لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ الأذلاء ، وهو من صغر ، بالكسر ، يصغر صغارا. فقلن له : أطع مولاتك.

قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ من فعل الفاحشة بالنظر إلى العاقبة. وإن كان مما تشتهيه النفس. لكن ربّ شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا. قيل : إنما ابتلى بالسجن لقوله هذا ، وإنما كان اللائق به أن يسأل اللّه العافية ، فالاختيار لنفسه أوقعه فى السجن ، ولو ترك الاختيار لكان معصوما من غير امتحان بالسجن ، كما كان معصوما وقت المراودة ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي : وإن لم تصرف عنى كَيْدَهُنَّ من تحبيب ذلك إلىّ ، وتحسينه عندى بالتثبيت على العصمة ، أَصْبُ إِلَيْهِنَّ أمل إلى جانبهن بطبعي ومقتضى شهوتى ، وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ من السفهاء بارتكاب ما يدعوننى إليه. فإن الحكيم لا يفعل ما هو قبيح. أو من الذين لا يعملون بما يعلمون ، فإنهم جهال ، وكلامه هذا : تضرع إلى اللّه تعالى ، واستغاثة به.

فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ : أجاب دعاءه الذي تضمنه كلامه ، فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ حيث ثبته على العصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن ، وآثرها على اللذة الفانية إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لدعاء الملتجئين إليه ، الْعَلِيمُ بإخلاصهم أو بما يصلح بهم.

الإشارة : الحب إذا كان على ظاهر القلب ، ولم يخرق شغافه ، كان العبد مع دنياه ، وآخرته ، بين ذكر ، وغفلة.

فإذا دخل سويداء القلب ، وخرق شغافه نسى العبد دنياه وأخراه ، وغاب عن نفسه وهواه ، وضل فى محبة مولاه.

ولذلك قيل لعاشقة يوسف : (إنا لنراها فى ضلال مبين) أي : فى استغراق فى المحبة حتى ضل عنها ما دون محبوبها. ومنه قوله تعالى : وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى «١» أي : وجدك ضالا فى محبته ، فهداك إلى حضرة مشاهدته ومقام قربه ، فكان قاب قوسين أو أدنى. وعلامة دخول المحبة شغاف القلب أربعة أشياء : الاستيحاش ، والإيناس ، وذكر الحبيب مع الأنفاس ، وحضوره مع الخواطر والوسواس. وأنشدوا :

تاللّه ما طلعت شمس ولا غربت إلّا وذكرك مقرون بأنفاسى
ولا جلست إلى قوم أحدّثهم إلّا وأنت حديثى بين جلّاسى
ولا شربت لذيذ الماء من ظمأ إلا رأيت خيالا منك فى الكأس
إن كان للنّاس وسواس يوسوسهم فأنت واللّه وسواسى وخنّاسي
لو لا نسيم بذكراكم أفيق به لكنت محترقا من حرّ أنفاسى

وقال آخر :

خيالك فى وهمي ، وذكرك فى فهمى ومثواك فى قلبى ، فأين تغيب؟

قوله تعالى : (فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ....) الآية : أدهشتهم طلعة يوسف ، وجماله الباهر. وزليخا لما استمرت معه لم تفعل شيئا من ذلك. كذلك المريد إذا استشرف على أنوار الحضرة وجمالها ، أدهشته وحيرته ، فلو لا التأييد الإلهى ما أطاقها ، فإذا صبر على صدماتها واستمر مع تجليات أنوارها ذهب دهشه ، واطمأن قلبه بشهود محبوبه من وراء أردية العز والكبرياء ، وهذه هى الطمأنينة الكبرى والسعادة العظمى.

وقوله تعالى : (قال رب السجن أحب إلىّ) ، هكذا ينبغى للعبد أن يكون يختار ما يبقى على ما يفنى فرب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا ، ورب صبر ساعة أورثت نعيما جزيلا. وباللّه التوفيق.

---

(١) الآية ٧ من سورة الضحى.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٩٥

ثم ذكر سجن يوسف ، وما يتبعه من إخراجه ، وتمليكه وتمكينه ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٣٥ الى ٣٨]

ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨)

قلت : (ليسجننه) : مفسر للفاعل ، أي : ظهر لهم سجنه إذ الجملة لا تكون فاعلا على المشهور ، وجوزه بعضهم مستدلا بالآية. وقيل : محذوف ، أي : بدا لهم رأى ليسجننه. وقال الإمام القصار ، الفاعل هو القسم المفهوم من اللام الموطئة له ، أي : بدا لهم قسمهم ليسجننه.

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ بَدا لَهُمْ أي : ظهر للعزيز وأهله ، مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ الدالة على براءة يوسف كشهادة الصبى ، وقدّ القميص ، وقطع الأيدى ، واستعصامه منهن ، فظهر لهم سجنه. وأقسموا لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ : حتى يظهر ما يكون منه ليظن الناس أنها محقة فيما ادعت عليه. فخدعت زوجها حتى وافقها على سجنه. وروى أنه لما أدخل السجن ندمت زليخا على سجنه ، وعيل صبرها على فراقه ، فأرسلت إلى السجان ليطلقه ، فأبى ، فلبث فيه سبع سنين.

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ أي : فسجنوه واتفق أنه دخل معه فى ذلك اليوم رجلان آخران ، من عبيد الملك : ساقيه وخبازه ، اتهما أنهما أرادا أن يسمّاه ، قالَ أَحَدُهُما وهو الساقي : إِنِّي أَرانِي فى المنام أَعْصِرُ خَمْراً أي : عنبا. وسماه خمرا : باعتبار ما يؤول إليه. روى أنه قال : رأيت كأن الملك دعانى وردنى إلى قصره ، فبينما أنا أدور فى القصر ، وإذا بثلاثة عناقيد من العنب ، فعصرتها ، وحملت ذلك إلى الملك لأسقيه له.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٩٦

وَقالَ الْآخَرُ وهو الخباز : إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ : تنهش الطَّيْرُ مِنْهُ ، قال :

رأيت كأن العزيز دعانى ، وأخرجنى من السجن ، ودفع لى طيفورة عليها خبز ، فوضعتها على رأسى ، والطير تأكل منه. نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ من الذين يحسنون تأويل الرؤيا. وإنما قالا له ذلك لأنهما رأياه فى السجن يعظ الناس ويعبر رؤياهم ، أو من المحسنين إلى أهل السجن ، كان عليه السّلام إذا رأى محتاجا طلب له ، وإذا رأى مضيقا وسع عليه فقالا له : فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا إن كنت تعرفه.

قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ فى النوم ، إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما تأويله فى الدنيا.

أو : لا يأتيكما طعام ترزقانه فى اليقظة لتأكلاه إلا أخبرتكما به ، ما هو؟ وما لونه؟ وما صفته؟ وكم هو؟ قبل أن يأتيكما ، إخبارا بالغيب ، فيأتيهما كذلك معجزة. وصف نفسه بكثرة العلم والمكاشفة ليكون وسيلة إلى دعائهما إلى التوحيد.

ثم قال لهما : ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي بالوحى والإلهام. وليس ذلك من قبيل التكهن أو التنجيم. روى أنهما قالا له : من أين لك هذا العلم ، وأنت لست بكاهن ولا منجم؟ فقال لهما : ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ طريقة قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ أي : علمنى ذلك لأنى تركت ملة أهل الكفر ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ، وإنما قال ذلك تمهيدا للدعوة ، وإظهارا أنه من بيت النبوة لتقوى رغبتهما فى الاستماع إليه ، والوثوق به. ما كانَ لَنا : ما صح لنا معشر الأنبياء أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ أىّ شرك كان ، ذلِكَ التوحيد مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا بالوحى وَعَلَى النَّاسِ ببعثنا إليهم ، وإرشادنا إياهم وتثبيتهم عليه ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ هذا الفضل فيعرضون عنه. أو من فضل اللّه علينا بالوحى والإلهام ، وعلى الناس بنصب الدلائل وإنزال الآيات. ولكن أكثرهم لا ينظرون إليها ، ولا يستدلون بها ، فيوحدون خالقها ، فهم كمن كفر النعمة ولم يشكرها.

الإشارة : جرت عادة الحق – تعالى – فى خلقه أنه لا يأتى الامتكان إلا بعد الامتحان ، ولا يأتى السلوان إلا بعد الأشجان ، ولا يأتى العز إلا بعد الذل ، ولا يأتى الوجد إلا بعد الفقد. فبقدر ما يضيق على البشرية تتسع ميادين الروحانية ، وبقدر ما تسجن النفس وتحبس عن هواها ، تتسع الروح فى مشاهدة مولاها.

(٥٩٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٩٧

وقوله تعالى : وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ : إشارة إلى أن امتحانه بالسجن كان لتكميل حقيقته وشريعته ، فمن رأى أنه يحمل الطعام فإشارة إلى حمل لواء الشريعة ، ومن رأى أنه يعصر خمرا فإشارة إلى تحقيق خمرة الحقيقة ، فيكون من أهل مقام الإحسان ، ولذلك قال : إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ، ثم ذكر نتيجة

مقام الإحسان – وهو التوحيد الخاص – فقال : ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْ ءٍ. وذكر أن ذلك ناله من باب الكرم لا من باب العمل ، فقال : ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ. واللّه تعالى أعلم.

ثم دعاهم إلى التوحيد ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٣٩ الى ٤٠]

يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠)

قلت : الإضافة فى (صاحبى السجن) : على معنى (فى) كقولك :

يا سارق الليلة أهل الدّار.

يقول الحق جل جلاله : يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أي : يا ساكنيه ، أو يا صاحبى فيه أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ : متعددون ، خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ المتوحّد فى الألوهية ، الْقَهَّارُ : الغالب على أمره ، لا يقاومه غيره ، ما تَعْبُدُونَ أنتم ومن على دينكم من أهل مصر ، مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ أي : ما تعبدون إلا مسميات أسماء من الحجارة والخشب ، سميتموها آلهة من غير حجة تدل على استحقاقها للعبادة. والمعنى : سميتم آلهة ما لا يستحق الألوهية ، ثم عبدتموها. ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها أي : بعبادتها مِنْ سُلْطانٍ : من حجة ولا برهان. إِنِ الْحُكْمُ فى أمر العبادة إِلَّا لِلَّهِ لأنه المستحق لها دون غيره ، من حيث إنه الواجب لذاته ، الموجد للكل ، هو المالك لأمره ، أَمَرَ على لسان أنبيائه أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ولا تعبدوا معه سواه ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ القويم الذي لا عوج فيه ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ دلائل توحيده ، فيتخبطون فى جهالتهم. قال البيضاوي : وهذا من التدرج فى الدعوة وإلزام الحجة بيّن لهم أولا : رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة على طريق الخطابة ، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ،

ويعبدونها لا تستحق الألوهية ، ثم دل على ما هو الحق القويم ، والدين المستقيم ، الذي لا يقتضى العقل غيره ، ولا يرتضى العلم دونه. هـ.

الإشارة : كل من لم يجمع قلبه على مولاه ، واتبع حظوظه وهواه ، فله أرباب متفرقون بقدر ما يميل إليه قلبه من هذا العرض الفاني. قال ابن عطية : وقد ابتلى بأرباب متفرقين من يخدم أبناء الدنيا ويؤملهم. هـ. وفى الحديث : «خاب من رجى غير اللّه وضلّ سعيه ، وطاب وقت من وثق باللّه». وللّه در القائل :

حرام على من وحّد اللّه ربّه وأفرده أن يجتدى أحدا رفدا
فيا صاحبى قف بي على الحق وقفة موت بها وجدا وأحيا بها وجدا
وخلّ ملوك الأرض تجهد جهدها فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى
ثم فسر لهما الرؤيا ، فقال :
[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٤١ الى ٤٢]
يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ (٤١) وَقالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)
قلت : (منهما) : يتعلق بظن ، والظن يحتمل أن يكون بمعنى اليقين لأن قوله : (قضى الأمر) يقتضى ذلك ، أو يبقى على بابه.
يقول الحق جل جلاله : قال يوسف : يا صاحِبَيِ السِّجْنِ المستفتيان عن الرؤيا ، أَمَّا أَحَدُكُما وهو الساقي ، فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً كما كان يسقيه قبل ، ويعود إلى ما كان عليه ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ، فقالا : كذبنا ما رأينا شيئا ، فقال : قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ ، سبق به القضاء فى الأزل ، وهو ما يؤول إليه أمركما ، ولذلك وحده ولم يقل : قضى أمراكما. روى أنه لما دعاهما إلى التوحيد أسلم الساقي وأبى الخباز ، فأخرج بعد ثلاث وصلب.
وَقالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا يوسف ، أي : تيقن ، أو غلب على ظنه أنه ناج منهما ، إما عن وحي ، على الأول ، أو باجتهاد بسبب الرؤيا : اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ عند سيدك ، وهو الملك ، وقل له : غلام سجن ظلما ،

(٢/٥٩٨)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٩٩
لعله يخلصنى. قال ابن عطية : يحتمل أن يذكره بعلمه ومكانته ، ويحتمل أن يذكره بمظلمته وما امتحن به بغير حق. أو يذكره بهما. هـ. وقال الورتجبي : يحتمل أن قوله : اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ : عرّف له طريقتى مع اللّه حتى يعرفنى أنى رسول اللّه ، ويطيعنى فى طاعة اللّه ، وينجو بذلك من عذابه ، ويصل إلى ثوابه ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وليوحد اللّه تعالى ، ويتخلص من كيد الشيطان ، وما معه من الإنسان. هـ.
فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ أي : فأنسى الساقي أن يذكر يوسف لربه. أو أنسى يوسف ذكر اللّه حتى استغاث بغير ، فأدبه ، فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ ، وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلّم : «رحم اللّه أخى

يوسف ، لو لم يقل : اذكرني عند ربّك ، لما لبث فى السّجن سبعا بعد الخمس».

روى أن جبريل عليه السّلام أتاه بعد المقالة ، فقال له : من أخرجك من الجبّ ، وخلّصك من القتل ، وعصمك من الفاحشة؟ فقال : اللّه. فقال : كيف تعتصم بغيره ، وتثق بالمخلوق ، وترفع قصتك إليه ، وتترك ربك؟! قال :

يا جبريل كلمات جرت على لسانى ، وأنا تائب لا أعود لمثلها. هـ. والاستعانة بالمخلوق ، وإن كانت جائزة شرعا ، لكنها لا تليق بمقام الأقوياء. فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ البضع : من الثلاث إلى التسع. روى أن يوسف عليه السّلام سجن خمس سنين أولا ، ثم سجن بعد المقالة سبع سنين.

الإشارة : النسيان والغفلة التي لا تثبت فى القلب ، والخواطر التي ترد وتذهب من أوصاف البشرية التي لا تنافى الخصوصية ، إذ لا انفكاك للعبد عنها. قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ «١» فالطيف لا ينجو منه أحد لأنه من جملة أوصاف العبودية التي بها تعرف كمالات الربوبية. وقد قال تعالى فى حق سيد العارفين : وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ «٢» فالعصمة التي تجب للأنبياء إنما هى مما يوجب نقصا أو غضا من مرتبتهم. وهذه الأمور إنما توجب كمالا لأنها بها يتحقق كمال العبودية التي هى شرف العبد. فافهم وسلم ، ولا تنتقد ، فإن هذه الأمور لا يفهمها إلا العارفون باللّه ، دون غيرهم من أهل العلم الظاهر.

وقال الورتجبي : إن يوسف عليه السّلام لم يعلم وقت إيمان الملك ، ولم يأت وقت دخوله فى الإسلام ، فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فى سابق حكمه ، على تقدير وقت إيمان الملك ، فلبث فى السجن إلى وقت إيمان الملك ، فنسيان يوسف : احتجابه عن النظر إلى قدره السابق. هـ.

---

(١) من الآية ٢٠١ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٢٠٠ من سورة الأعراف.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٠٠

ثم ذكر سبب خروجه من السجن ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٤٣ الى ٤٩]

وَقالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ (٤٣) قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ (٤٤) وَقالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا

الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧)

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)

قلت : يقال : عبرت الرؤيا – بالتخفيف – عبارة ، وهو أفصح من عبّرت – بالتشديد – تعبيرا. واللام للبيان ، أو لتقوية العامل لضعف الفعل بتأخيره عن مفعوله. والأصل : تعبرون الرؤيا. وأصل (ادكر) : اذتكر ، فقلبت التاء دالا مهملة ، وأدغمت المعجمة فيها فبقيت دالا. وإليه أشار ابن مالك بقوله : فى ادّان وازدد وادّكر دالا بقي «١» و(دأبا) حال ، أي : دائبين ، أو مصدر بإضمار فعله ، أي : تدأبون دأبا. وفيه لغتان : السكون ، والفتح.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الْمَلِكُ وهو ملك مصر الذي كان العزيز وزيرا له ، واسمه : «ريان بن الوليد». وقيل : «مصعب بن الريان» ، وكان من الفراعنة – روى أن يوسف عليه السّلام لما لبث فى السجن سبع سنين سجد ، وقال : إلهى ، خلصنى من السجن. فكلما دعا يوسف أمنت الملائكة ، فاتفق فى الليلة التي دعا فيها يوسف أن رأى الملك تلك الرؤيا التي ذكرها بقوله : إِنِّي أَرى فى المنام سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ خرجن من نهر يابس ، وسبع بقرات عجاف – مهازيل – خرجن بأثرهن فابتلعت المهازيل السمان ، وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ قد انعقد حبّها ، وَسبعا أُخَرَ يابِساتٍ قد أدركت ، فالتوت اليابساتعلى الخضر حتى غلبن عليها. فلما رأى

---

(١) صدر البيت : (طاتا افتعال رد إثر مطبق). انظر باب الإبدال.

ذلك انتبه مرعوبا ، وجمع ندماءه ، ودعا المفسرين ، فقال : يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيايَ اعبروها ، إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ أي : إن كنتم عالمين بعبارة الرؤيا.

قالُوا : هذه أَضْغاثُ أَحْلامٍ تخاليطها ، جمع ضغث ، وأصله : ما جمع من أخلاط النبات وحزم ، فاستعير للرؤيا الكاذبة. وإنما جمعوا أَحْلامٍ للمبالغة فى وصف الحلم بالكذب. ثم قالوا : وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ ، والمعنى : ليس لها تأويل عندنا لأنها أكاذيب الشيطان ، وإنما التأويل للمنامات الصادقة.

وَقالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما من صاحبى السجن ، وهو الساقي ، وكان حاضرا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أي : وتذكر بعد جماعة من السنين ، وهى سبع سنين ، أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ إلى من عنده علمها ، أو إلى السجن. روى أنه لما سمع مقالة الملك بكى ، فقال الملك : مالك تبكى؟ قال : أيها الملك إن رؤياك هذه لا يعبرها إلا الغلام العبراني الذي فى السجن ، فتغير وجه الملك ، وقال : إنى نسيته ، وما ذكرته منذ سبع سنين ، ما خطر لى ببال. فقال الساقي : وأنا مثلك ، فقال له الملك : وما يدريك أنه يعبر الرؤيا؟ فحدثه بأمره ، وأمر الساقي فقال له : امض إليه وسله ، فقال : إنى واللّه أستحى منه لأنه أوصانى ونسيت ، فقال له : لا تستح منه لأنه يرى الخير والشر من مولاه فلا يلومك. فأتاه.

فقال : يُوسُفُ أي : يا يوسف ، أَيُّهَا الصِّدِّيقُ : المبالغ فى الصدق. وإنما وصفه بالصّدّيقية لما جرب من أحواله ، وما رأى من مناقبه ، مع ما سمع من تعبير رؤياه ورؤيا صاحبه ، أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ ، وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ أي : أفتنى فى رؤيا ذلك واعبرها لى ، لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ أي : أعود إلى الملك ومن عنده ، أو إلى أهل البلد إذ قيل : إن السجن كان خارج البلد.

لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ تأويلها. أو يعلمون فضلك ومكانتك. وإنما لم يجزم بعلمهم لأنه ربما اخترم دونه ، أو لعلهم لا يفهمون ما يقول لهم.

قالَ فى تعبيرها : تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً أي : على عادتكم المستمرة من الخصب والرخاء.

فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ : اتركوه فِي سُنْبُلِهِ لئلا تأكله السوس ، وهى نصيحة خارجة عن عبارة الرؤيا ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ فى تلك السنين ، أي : لا تدرسوا منه إلا ما تحتاجون إلى أكله خاصة ، وذلك أن أرض مصر لا يبقى فيها الطعام عامين. فعلمهم حيلة يبقى بها السنين المخصبة إلى السنين المجدبة ، وهو أن يتركوه فى سنبله غير مدرس فإن الحبة إذا بقيت فى غشائها حفظت بإذن اللّه.

(٦٠١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٠٢

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ أي : ذات شدة وجوع يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ أي : يأكل أهلهن ما ادخرتم لأجلهن. أسند الأكل إلى السنين مجازا تطبيقا بين المعبر والمعبر به ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ أي :

مما تخزنون وتخبئون للزراعة والبذر. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ أي : يغيثهم اللّه بالفرج من القحط ، أو يغاث بالمطر ، لكن مصر إنما تسقى من النيل. وَفِيهِ أيضا يَعْصِرُونَ العنب والزيتون لكثرة الثمار. أو يعصرون الضروع لحلب اللبن لأجل الخصب. وهذه بشارة بشرهم بها بعد أن أوّل

البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة. والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، وابتلاع العجاف السمان بأكل ما جمع فى السنين المخصبة فى السنين المجدبة. ولعله علم ما فى السنة الثامنة من الخصب والرخاء بالوحى ، أو بأن انتهاء الجدب لا يكون إلا بالخصب ، وبأن سنة اللّه الجارية أن يوسع على عباده بعد ما ضيّق عليهم ، لقوله فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً «١». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الروح فى أصل نشأتها علامة داركة ، تكاشف بالأمور قبل وقوعها ، إذا غابت عن إحساسها الذي حجبها عن ذلك العلم ، ولو كانت من كافر إذا غابت عن حسها بنوم ، أو اصطلام عقل. فمن طهرها من دنس الشرك بالتوحيد ، وغيبها عن شواغل الحس بالتفرغ والتجريد ، رجعت إلى أصلها ، وفاضت عليها العلوم التي كانت لها قبل التركيب فى هذا القالب الحسى ، علما وكشفا. ولا شىء أنفع لها فى الرجوع من السهر والجوع. وفى الجوع أسرار كثيرة حسية ، ومعنوية ، وبسببه جمع اللّه شمل يوسف بأبيه وإخوته. وبه أيضا ملّك اللّه يوسف ونصره ومكنه فى الأرض حتى ملك مصر وأهلها.

ولذلك قال نبينا – عليه الصلاة والسّلام – : «اللهم أعنّى عليهم – أي على قريش – بسبع كسبع يوسف» «٢».

وذكر الغزالي فى الإحياء ، فى أسرار الجوع ، أربعين خصلة. وفى بعض الأثر : (أن اللّه تعالى عذب النفس بأنواع من العذاب ، ومع كل عذاب يقول لها : من أنا؟ فتقول هى : ومن أنا؟ حتى عذبها بالجوع ، فقالت : أنت ربى سبحانك الواحد القهار). والممدوح منه هو المتوسط دون إفراط ولا تفريط ، كما قال البوصيرى :

واخش الدّسائس من جوع ومن شبع فربّ مخمصة شرّ من التّخم

وباللّه التوفيق.

---

(١) الآية ٥ من سورة الشرح.

(٢) أخرجه البخاري فى أكثر من موضع ، منها : (كتاب التفسير – سورة الروم).

ثم ذكر خروجه من السجن وتمكينه من الملك ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٥٠ الى ٥٧]

وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ

مِنْ سُوءٍ قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ (٥٢) وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣) وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤)

قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)

يقول الحق جل جلاله : ولما جاء الرسول من عند يوسف بالتعبير ، وسمعه الملك ، تعجب منه ، واستعظم علمه وعقله وقال : لا ينبغى لمثل هذا أن يسجن ، ائْتُونِي بِهِ ، فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ ليخرجه ، قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ : ما شأنهن حتى قطعن أيديهن ، وهل رأين منى ميلا إليهن. وإنما تأنى فى الخروج ، وقدّم سؤال النسوة ، والفحص عن حاله ليظهر براءة ساحته ، وليعلم الملك أنه سجن ظلما ، فلا يقدر الحاسد أن يتوسل به إلى تقبيح أمره. وفيه دليل على أنه ينبغى أن يتقى مواضع التهم ، ويجتهد فى نفيها ، وفى الحديث : «من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فلا يقفنّ مواقف التّهم».

وفيه دليل على حلمه وصبره ، وعدم اهتباله بضيق السجن إذ لم يجب الداعي ساعة دعى بعد طول سجنه.

ومن هذا المعنى تواضع معه نبينا صلّى اللّه عليه وسلّم حيث قال : «لو لبثت فى السّجن ما لبث يوسف لأجبت الدّاعى» «١». ولم يذكر امرأة العزيز كرما ، ومراعاة للأدب ، ورعيا لذمام زوجها ، وسترا لها. بل ذكر النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

---

(١) أخرجه البخاري فى (تفسير يوسف – باب فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك ...) عن أبى هريرة رضى اللّه عنه.

ثم قال : إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ حين قلن لى : أطع مولاتك. وفى عبارته تعظيم لكيدهن ، والاستشهاد عليه بعلم اللّه ، وبراءته مما قذف به ، والوعيد لهن على كيدهن. ثم جمع الملك النسوة ، وكن ستّا أو سبعا ، مات منهن ثلاث ويوسف فى السجن ، وبقي أربع ومعهن امرأة العزيز. وقالَ لهن : ما خَطْبُكُنَّ ما

شأنكن إِذْ راوَدْتُنَّ أي : حين راودتن يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ، وأسند المراودة إلى جميعهن لأن الملك لم يتحقق أن امرأة العزيز هى التي راودته وحدها. قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ تنزيها للّه أن يعجز عن خلق عفيف مثله ، أو تنزيها ليوسف أن يعصيه لأجل خوف اللّه. وهذه تبرئة ليوسف ولهن ، أو لهن فقط. وتكون تبرئة يوسف فى قولهن :

ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ : من ذنب.

قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أي : تبين ووضح ، أو ثبت واستقر ، أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ فى قوله : راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي فلما رجع إليه الرسول ، وذكر ما قالته النسوة ، وما أقرت به امرأة العزيز ، قال : ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ أي : فعلت ذلك التثبت والتأنى فى الخروج ليعلم العزيز أنى لم أخنه فى زوجته بِالْغَيْبِ فى حال غيبته ، أو بظهر الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة ، بل تعففت عنها. وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ أي : لا ينفذه ولا يسدده. أو لا يهدى الخائنين لكيدهم. وأوقع الفعل على الكيد مبالغة. وفيه تعريض بامرأة العزيز فى خيانتها زوجها ، وتوكيد لأمانته.

روى عن ابن عباس أنه لما قال : لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ قال له جبريل عليه السّلام : ولا حين هممت. فقال : وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي لا أنزهها فى عموم الأحوال ، أو لا أزكيها على الدوام. قاله تواضعا وإظهارا للعبودية ، وتنبيها على أنه لم يرد بذلك تزكية نفسه ، ولا العجب بحاله ، بل إظهارا لنعمة العصمة والتوفيق.

ثم قال : إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ بحيث إنها مائلة بالطبع إلى الشهوات ، فتهم بها ، وتستعمل القوى والجوارح فى نيلها فى كل الأوقات. ، إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي : إلا وقت رحمة ربى بالعصمة والحفظ ، أو : إلا ما رحم اللّه من النفوس فيعصمها من ذلك. وقيل : الاستثناء منقطع ، أي : لكن رحمة ربى هى التي تصرف الإساءة ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ، يغفر ما همت به النفوس ، ويرحم من يشاء بالعصمة. أو يغفر للمستغفر ذنبه المعترف على نفسه ، ويرحمه بالتقريب بعد تعرضه للإبعاد.

وقيل : إن قوله تعالى : ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ إلى هنا ، هو من كلام زليخا. والأول أرجح «١».

---

(١) ورجح الحافظ ابن كثير القول الثاني ، وقال : إنه الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة.

وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي أي : أجعله خاصتى وخلاصتى ، أو أجعله خالصا لنفسى. قال

أولا : ائْتُونِي بِهِ فقط ، فلما تبين له حاله وظهر كماله ، قال : ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي روى أنه لما أراد أن يخرجه أرسل إليه بخلعة يأتى فيها ، وكان بين السجن والبلد : أربعة فراسخ ، فقال يوسف : لا أخرج من السجن حتى لا يبقى فيه أحد ، فأمر الملك بخروج جميع من فيه. فلما خرج من السجن اغتسل وتنظف ، ولبس ثيابا جددا ، فلما دخل على الملك ، قال : اللهم إنى أسألك من خيره ، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره. ثم سلّم عليه ودعا له بالعبرانية ، فقال : ما هذا اللسان؟. فقال : لسان آبائي. وكان الملك يعرف سبعين لسانا ، فكلمه بها ، فأجابه بجميعها ، فتعجب منه ، فقال : أحب أن أسمع رؤياى ، فحكاها ، ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها ، فأجلسه على السرير ، وفوض إليه أمره. وهذا معنى قوله تعالى : فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ أي : فلما أتوا به وكلمه وشاهد منه الرشد والدهاء ، قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ عندنا مَكِينٌ أي : فى مكانة ومنزلة ، أَمِينٌ :

مؤتمن على كل شىء ، ثم فوض إليه أمر المملكة.

وقيل : توفى قطفير – أي : العزيز – فنصّبه منصبه ، وزوجه من زليخا بعد أن شاخت ، وافتقرت ، فدعا اللّه تعالى فرد عليها جمالها وشبابها ، فوجدها عذراء ، وولد منها إفرائيم وميشا. ثم قال له الملك : ما ترى نصنع فى هذه السنين المخصبة؟.

قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ أي : أرض مصر ألى أمرها. والخزائن : كل ما يخزن فيه طعام ومال وغيرهما. إِنِّي حَفِيظٌ لها ممن لا يستحقها ، عَلِيمٌ بوجوه التصرف فيها. قال البيضاوي : ولعله عليه السّلام لما رأى أنه يستعمله فى أمره لا محالة ، آثر ما تعم فوائده وعوائده ، وفيه دليل على جواز طلب التولية ، وإظهار أنه مستعد لها ، والتولي من يد الكافر ، إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق وسياسة الخلق إلا بالاستظهار به. وعن مجاهد : أن الملك أسلم على يديه. هـ. قلت : وقد تقدم عن الورتجبي ما يدل عليه.

وقال ابن عطية : وطلب يوسف للعمل إنما هو حسبة منه عليه السّلام لرغبته أن يقع العدل ، ونحو هذا هو دخول أبى بكر رضى اللّه عنه فى الخلافة ، مع نهيه المستشير له من الأنصار عن أن يتأمّر على اثنين. فجائز للفاضل أن يعمل ويطلب العمل إذا رأى ألا عوض منه. هـ. وفى «الاكتفاء فى أخبار الخلفاء» : أن عمر أراد أبا هريرة على العمل ، فامتنع ، فقال له : أوليس يوسف خيرا منك ، وقد طلب العمل؟ فقال : يوسف نبى بن نبى ، وأنا ابن أميمة ، فأنا أخاف ثلاثا واثنين : أن أقول بغير علم ، وأقضى بغير عدل ، وأن يضرب ظهرى ، ويشتم عرضى ، ويؤخذ مالى. هـ.

وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ أي : ومثل ذلك الصنع الجميل الذي صنعنا بيوسف مكناه فِي الْأَرْضِ أرض مصر ، يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ : ينزل من بلادها حيث يريد هو ، أو ينزل منها حيث نريد «١» ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ فى الدنيا والآخرة ، وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، بل نوفى أجورهم عاجلا وآجلا.

ويوسف أفضلهم فى زمانه ، فمكّنه اللّه من أرض مصر ، حتى ملكها بأجمعها وذلك أنه لما فوض إليه الملك اجتهد فى جمع الطعام وتكثير الزراعات ، حتى دخلت السنون المجدبة ، وعم القحط مصر والشام ، ونواحيهما ، وتوجه الناس إليه ، فباعهم فى السنة الأولى بالدراهم والدنانير حتى لم يبق لهم منها شىء ، ثم فى السنة الثانية بالحلى والحلل ، ثم فى السنة الثالثة بأمتعة البيوت ، ثم فى الرابعة بالدواب ، ثم فى الخامسة بالرباع والعقار ، ثم فى السادسة بأولادهم ، ثم فى السابعة برقابهم حتى استرقهم جميعا ، ثم عرض الأمر على الملك فقال : الرأى رأيك. فأعتقهم ورد إليهم أموالهم.

قال تعالى : وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ الشرك والفواحش ، فهو أحق بالرغبة وأولى بالطلبة. وقال ابن جزى فى قوله : نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ : الرحمة هنا المراد بها الدنيا ، وكذلك الأجر فى قوله : وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ بدليل قوله بعد ذلك : وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ فأخبر تعالى أن رحمته فى الدنيا يصيب بها من يشاء من مؤمن وكافر ، وطائع وعاص ، وأن المحسنين لا بد من أجرهم فى الدنيا. فالأول فى المشيئة ، والثاني واقع لا محالة. ثم أخبر أن أجر الآخرة خير من ذلك كله لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ ، وفيه إشارة إلى أن يوسف عليه السّلام جمع اللّه له بين الدنيا والآخرة. هـ.

الإشارة : فى الآية ثلاث فوائد : الأولى : مدح التأنى فى الأمور ، ولو كانت جلالية لأنه يدل على كمال العقل والرزانة ، وطمأنينة القلب. وذم العجلة لأنها من خفة العقل والطيش ، وعدم الصبر والاحتمال. يؤخذ ذلك من تأنى يوسف عليه السّلام فى السجن بعد طول مدته. وفى الحديث : «التّأنّى من اللّه ، والعجلة من الشّيطان» «٢».

الثانية : عدم تزكية النفس ، ودوام اتهاما ، ولو بلغت من التصفية ما بلغت. وقد تقدم فى قوله تعالى : وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها «٣» ، وقال بعض الصوفية : وكيف يصح لعاقل أن يزكى نفسه والكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يقول : إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ، والنفوس ثلاثة : أمارة ، ولوامة ، ومطمئنة. وزاد بعضهم : اللهامة من قوله تعالى : فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها «٤» ..

---

(١) هذا المعنى على قراءة (نشاء) بالنون ، وبها قرأ ابن كثير ، انظر الإتحاف (٢/ ١٤٩).

(٢) أخرجه الترمذي فى (كتاب البر والصلة ، باب ما جاء فى التأنى والعجلة) بلفظ «الأناة» ، من حيث سهل بن سعيد الساعدي ، وأخرجه – بلفظ المفسر ، البيهقي فى : شعب الايمان ، من حديث أنس. وضعف السيوطي حديث البيهقي. انظر الجامع الصغير (ح/ ٣٣٩٠)

(٣) من الآية ٧٠ من سورة الأنعام. [.....]

(٤) الآية : ٨ من سورة الشمس.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٠٧

الثالثة : تسلية أهل البلاء ، إذا صحبهم الإحسان والتقوى ، وبشارتهم بالعز بعد الذل ، والغنى بعد الفقر ، والنصر والتمكين فى الأرض بعد الاستضعاف والهوان ، يؤخذ ذلك من قوله : وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وفى ذلك يقول الشاعر :

وكلّ عبد أراد اللّه عزّته فهو العزيز ، وعزّ اللّه يغشاه

قد لاح عزّ له فى الأرض منتشر فهو الحبيب لمن ناداه لبّاه

يا حسنه ومتى قد طال مطلبه تاج البرية والرحمن صفّاه.

ولما أصاب أرض كنعان ما أصاب سائر البلاد ، وسمع يعقوب عليه السّلام بأن ملك مصر يبيع الطعام ، أرسل بنيه – غير بنيامين – إلى مصر للميرة ، كما قال تعالى :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٥٨ الى ٦٢]

وَجاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ (٦٠) قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَإِنَّا لَفاعِلُونَ (٦١) وَقالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)

يقول الحق جل جلاله : وَجاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ إلى مصر للميرة ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ، إنما أنكروه لبعد العهد ولتغير سنه ، ولأنهم فارقوه فى سن الحداثة ، ولتوهمهم أنه هلك ، أو لقلة تأملهم فى حاله لشدة هيبتهم إياه ، أو لأنه كان ملثما. روى أنهم دخلوا عليه فى قصر ملكه وهو فى هيئة عظيمة من الملك ، والتاج على رأسه ، فقال لهم بعد أن عرفهم : من أنتم ، وما أمركم ، وما جاء بكم إلى بلادي ، ولعلكم عيون؟

فقالوا : معاذ اللّه ، نحن بنوا أب واحد ، وهو شيخ صدّيق ، نبى من الأنبياء ، اسمه يعقوب. قال : كم أنتم؟ قالوا : كنا اثنى عشر ، فذهب أحدنا إلى البرية ، فهلك. فقال : فكم أنتم هاهنا؟ قالوا : عشرة. قال : فأين الحادي عشر؟ قالوا : عند أبيه يتسلّى به عن الهالك ، قال : فمن يشهد لكم؟ قالوا : لا يعرفنا هاهنا من يشهد لنا. قال : فدعوا عندى بعضكم رهينة ، وائتوني بأخ لكم من أبيكم حتى

أصدقكم ، فاقترعوا فأصابت شمعون. وهذا معنى قوله : وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ أعطاهم ما اشتروا منه من الطعام ، وأوقر ركابهم ، قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ وهو : بنيامين

(٢/٦٠٧)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٠٨

– بكسر الباء – على وزن إسرائيل ، قاله فى القاموس. وقيل : كان يوسف عليه السّلام يعطى لكل نفس حملا ، ولا يزيد عليه ، فسألوه حملا زائدا لأخيهم من أبيهم فأعطاهم ، وشرط عليهم أن يأتوا به ليعلم صدقهم. ثم قال لهم : أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ للأضياف. قال لهم ذلك ترغيبا فى رجوعهم ، وقد كان أحسن ضيافتهم غاية الإحسان.

روى أنه عليه السّلام نادى صاحب المائدة ، وقال له : لا تنزل هؤلاء بدار الغرباء ، ولا بدار الأضياف ، ولكن أدخلهم دارى ، وانصب لهم مائدة كما تنصبها لى ، واحفظهم وأكرمهم. فسأله عنهم ، فلم يجب ، فبسط لهم الفرش والوسائد ، فلما جن الليل أمر أن توضع بين أيديهم الموائد ، والشماع ، والمجامر ، وهم ينظرون من كوة إلى دار الأضياف ، وقد بلغ بهم الجهد ، فكانوا يعطونهم قرصة شعير لكل أحد من الغرباء ، وهم يرون ما بين أيديهم من الإكرام والطعام ، وقد بلغ الحمل من الطعام ألفا ومائتى دينار. فقال بعضهم لبعض : إن هذا الملك أكرمنا بكرامة ما أكرم بها أحدا من الغرباء! فقال شمعون : لعل الملك سمع بذكر آبائنا فأكرمنا لأجلهم. وقال آخر : لعله أكرم فقرنا وفاقتنا. ويوسف عليه السّلام ينظر إليهم من كوة ويسمع كلامهم ، ويبكى. ثم قال لولده ميشا : أشدد وسطك بالمنطقة واخدم هؤلاء القوم ، فقال له : من هم يا أبت؟ فقال : هم أعمامك يا بنى ، قال : يا أبت هؤلاء الذين باعوك؟ قال : نعم ، باعوني حتى صرت ملك مصر ، ما تقول يا بنى ، أحسنوا أم أساءوا؟ قال : بل أحسنوا ، فما أقول لهم؟ قال : لا تكلمهم ، ولا تفش لهم سرا حتى يأذن اللّه بذلك ، فبقوا فى الضيافة ثلاثا أو أكثر ، ثم جهزهم ، وأرسلهم ، وشرط عليهم أن يأتوا بأخيه بنيامين.

قال لهم : فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ. أي : لا تدخلوا ديارى ولا تقربوا ساحتى ، قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ أي : سنجهد فى طلبه منه ، وَإِنَّا لَفاعِلُونَ ذلك ، لا نتوانى فيه ، وَقالَ لِفِتْيانِهِ لغلمانه الكيالين ، وقرأ الأخوان وحفص : لِفِتْيانِهِ ، بجمع الكثرة : اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ أي : ثمنهم الذي اشتروا به ، فِي رِحالِهِمْ فى أوعيتهم. فأمر أن يجعل بضاعة كل واحد فى رحله ، وكانت نعالا وأدما. وإنما فعل ذلك يوسف تكرما وتفضلا عليهم ، وترفقا أن يأخذ ثمن الطعام منهم ، وخوفا من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به إليه.

لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها أي : لعلهم يعرفون هذه اليد والكرامة فى رد البضاعة إليهم ، فيرجعون إلينا. فليس

الضمير للبضاعة لأن ميز البضاعة لا يعبر عنه بلعل ، وإنما المعنى : لعلهم يعرفون لها يدا وتكرمة ، ويرون حقها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ، أي : لعل معرفتهم بهذه الكرامة تدعوهم إلى الرجوع. وقصد بذلك

(٦٠٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٠٩

استمالتهم والإحسان إليهم. أو : لعلهم يعرفون البضاعة ، ولا يستحلون متاعنا فيرجعون به إلينا ، وضعف هذا ابن عطية ، فقال : وقيل : قصد يوسف برد البضاعة أن يتحرجوا من أخذ الطعام بلا ثمن فيرجعوا لدفع الثمن. وهذا ضعيف من وجوه. ثم قال : ولسرورهم بالبضاعة ، وقولهم : هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا ، يكشف أن يوسف لم يقصد هذا ، وإنما قصد أن يستميلهم ويصلهم كما تقدم.

الإشارة : قوله : فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ، كذلك أهل الخصوصية من أهل مقام الإحسان ، يعرفون مقامات أهل الإيمان ومراتبهم ، وأهل مقام الإيمان ينكرونهم ولا يعرفون مقامهم ، كما قال القائل :

تركنا البحور الزّخرات وراءنا فمن أين يدرى النّاس أين توجّهنا؟

فكلما علا بالولى المقام خفى عن الأنام ، ولا يعرف مراتب الرجال إلا من دخل معهم ، وشرب مشربهم ، وإلا فهو جاهل بهم. وقوله تعالى : فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي : كذلك الحق – جل جلاله – يقول لعبده : ائتنى بقلبك ، فإن لم تأتنى به فلا أقبل طاعتك ، ولا تقرب إلى حضرتى. قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنّ اللّه لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم ، وإنّما ينظر إلى قلوبكم ونيّاتكم». أو كما قال – عليه الصلاة والسّلام – .

وقوله تعالى : سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ : كذلك ينبغى للعبد أن يحتال على قلبه حتى يرده إلى ربه وذلك بقطع العلائق ، والفرار من الشواغل والعوائق ، حتى تشرق عليه أنوار الحقائق.

وقوله تعالى : اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ ... الآية. كذلك ينبغى للواعظ والمذكر أن يبشر الناس ، وينمى بضاعتهم ، وهو : الإيمان والمحبة للّه ومعرفته ، ويجعلها فى قلوبهم بحسن وعظه ، ونور حاله ، فيكون ممن ينهض الناس حاله ، ويدل على اللّه مقاله. ولا يقنط الناس ويفلسهم من الإيمان والمحبة ، بل ينبغى أن يجمع بين التبشير والتحذير ، والترغيب والترهيب ، ويغلب جانب الترغيب بذكر إحسان اللّه وآلائه .. لعلهم يعرفون ذلك إذا انقلبوا إلى أسبابهم ، لعلهم يرجعون إلى اللّه فى غالب أحوالهم. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر رجوعهم من مصر إلى أبيهم ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٦٣ الى ٦٧]

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (٦٣) قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا وَنَمِيرُ أَهْلَنا وَنَحْفَظُ أَخانا وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) وَقالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧)

(٢/٦٠٩)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦١٠

قلت : (نكتل) : أصله : نكتيل ، بوزن نفتعل ، من الكيل ، قلبت الياء ألفا لتحرك ما قبلها ، ثم حذفت للساكنين.

و(حفظا) : تمييز ، ومن قرأ بالألف فحال ، كقوله : للّه دره فارسا. أو تمييز ، وهو أرجح. و(ما نبغى) : استفهامية ، أو نافية. و(نمير أهلنا) : عطف على محذوف ، أي : ردت فنستظهر بها ونمير ... إلخ.

قال فى القاموس : مار يمير بالكسر : جلب الطعام. هـ. و(إلا أن يحاط) : استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أي : لتأتننى به على كل حال إلا حال الإحاطة بكم.

يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ أي : حكم بمنعه بعد هذا ، إن لم نذهب بأخينا بنيامين ، فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ أي : نرفع المانع من الكيل ، ونكتل ما نحتاج إليه. وقرأ الأخوان بالياء : يكتل لنفسه ، فنضم اكتياله إلى اكتيالنا ، وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ من أن يناله مكروه. قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ أي : ما آمنكم عليه إِلَّا كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ، وقد قلتم فى يوسف : وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ ، فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً «١» فأثق به ، وأفوض أمرى إليه ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فأرجو أن يرحمنى بحفظه ، ولا يجمع علىّ مصيبتين.

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ : أوعيتهم ، وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي أي : ما نطلب ، فهل من مزيد على هذه الكرامة ، أكرمنا وأحسن مثوانا ، وباع منا ، ورد علينا متاعنا ، ولا نطلب وراء ذلك إحسانا.

أو : ما نتعدى فى القول ، ولا نزيد على ما حكينا لك من إحسانه. أو : ما نبغى على أخينا ، ولا نكذب على الملك.

هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا ، هو توضيح وبيان لقولهم : ما نَبْغِي ، أي : ردت إلينا فنتقوى بها. وَنَمِيرُ أَهْلَنا

(١) قراءة حمزة والكسائى وحفص : «حافظا» بالألف ، وقرأ الآخرون : حفظا بغير الألف ، على المصدر ، انظر الإتحاف (٢/ ١٥٠).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦١١

: نسوق لهم الميرة – وهو : الطعام حين نرجع إلى الملك ، وَنَحْفَظُ أَخانا من المكاره فى ذهابنا وإيابنا .. وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ بزيادة حمل بعير أخينا ، إذ كان يوسف عليه السّلام لا يعطى إلا كيل بعير لكل واحد.

ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ أي : ذلك الطعام الذي أتينا به شيء قليل لا يكفينا حتى نرجع ويزيدنا كيل أخينا. أو ذلك الحمل الذي يزيدنا لبعير أخينا – كيل قليل عنده ، يسهل عليه لا يتعاظمه ، فلا يمنعنا منه. كأنهم استقلّوا ما كيل لهم فأرادوا أن يضاعفوه بالرجوع إلى الملك ، ويزدادوا إليه ما يكال لأخيهم. وقيل : إنه من كلام يعقوب عليه السّلام ، والمعنى : أن حمل بعير شيء قليل لا يخاطر لمثله بالولد.

قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ لأنى رأيت منكم ما رأيت ، حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ حتى تعطونى ما أثق به من عهد اللّه ، وتحلفوا لى الأيمان الموثقة لَتَأْتُنَّنِي بِهِ فى كل حال ، إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ إلا أن تغلبوا ، ولا تطيقوا الإتيان به. أو : إلا أن تهلكوا جميعا ويحيط الموت بكم فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ عهدهم وحلفوا له ، قالَ أبوهم : اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ من طلب الموثق وإتيان الولد وَكِيلٌ أي : مطلع رقيب ، لا يغيب عنه شيء.

ثم وصاهم وَقالَ لهم : يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ. وكانت فى ذلك العهد خمسا : باب الشام ، وباب المغرب ، وباب اليمن ، وباب الروم ، وباب طيلون. فقال لهم : ليدخل كل أخوين من باب ، خاف عليهم العين لأنهم أهل جمال وأبّهة ، مشتهرين فى مصر بالقربة والكرامة فإذا دخلوا كبكبة واحدة أصابتهم العين. ولعله لم يوصهم بذلك فى المرة الأولى لأنهم كانوا مجهولين حينئذ ، وللنفس آثار من العين ، وقد قال عليه الصلاة والسّلام : «العين حقّ ، تدخل الرّجل القبر والجمل القدر» «١».

وكان عليه الصلاة والسّلام يتعوذ منها ، بقوله : «اللهم إنّى أعوذ بك من كلّ نفس هامّة ، وعين لامّة» «٢». ويؤخذ من الآية والحديث : التحصن منها قياما برسم الحكمة. والأمر كله بيد اللّه. ولذلك قال يعقوب عليه السّلام : وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ مما قضى عليكم بما أشرت به عليكم ، والمعنى : أن ذلك لا يدفع من قدر اللّه شيئا ، فإن الحذر لا يمنع القدر ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ فما حكم

به عليكم لا ترده حيلة ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ أي : ما وثقت إلا به ، ولا ينبغي أن يثق أحد إلا به. وإنما كرر حرف الجر زيادة في الاختصاص ترغيبا في التوكل على اللّه والتوثق به.

---

(١) قال في كشف الخفاء : (ح ١٧٩٧) رواه أبو نعيم عن جابر مرفوعا ، وحديث «العين حق» بدون الزيادة ، متفق عليه.

مكث أخرجه البخاري في (الطب ، باب العين حق) ومسلم في (السّلام ، باب الطب والمرضى) من حديث أبي هريرة – رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه البخاري في (كتاب الأنبياء ، باب ١٠) من حديث ابن عباس ، قال : كان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يعوذ الحسن والحسين ويقول ... وذكر الحديث.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦١٢

الإشارة : روى أن إخوة يوسف لما رجعوا عنه صاروا لا ينزلون منزلا إلا أقبل عليهم أهل ذلك المنزل بالكرامات والضيافات ، فقال شمعون : لما قدمنا إلى مصر ما التفت إلينا أحد ، فلما رجعنا صار الناس كلهم يكرموننا؟ فقال يهوذا : الآن أثر الملك عليكم ، ونور حضرته قد لاح عليكم. هـ. قلت : وكذلك من قصد حضرة العارفين لا يرجع إلا محفوفا بالأنوار ، معمورا بالأسرار ، مقصودا بالكرامة والإبرار.

قوله تعالى : فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا ... إلخ قال الأستاذ القشيري : المحبة غيور لما كان ليعقوب تسلّ عن يوسف برؤية بنيامين ، أبت المحبة إلا أن تظهر سلطانها بالكمال ، فغارت على بنيامين أن ينظر إليه يعقوب بعين يوسف. هـ. قلت : وكذلك الحق تعالى غيور أن يرى في قلب حبيبه شيئا غيره ، فإذا رأى ذلك أزاله عنه ، وفرق بينه وبين ذلك الشيء ، حتى لا يحب شيئا سوى محبوبه. هذا مما يجده أهل الأذواق في قلوبهم.

وقوله تعالى في وصية يعقوب : لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ ، فيه إشارة إلى أن الدخول على اللّه لا يكون من باب واحد بحيث يلتزم المريد حالة واحدة وطريقة واحدة كالعزلة فقط ، أو الخلطة فقط ، أو الصمت على الدوام ، أو ذكر الاسم على الدوام. بل لا بد من التلوين قبل التمكين وبعده فالعزلة على الدوام : مقام الضعف ، والخلطة من غير عزلة بطالة. بل لا يكون عارفا حتى يعرف اللّه ، ويكون قلبه معه في العزلة والخلطة ، والصمت والكلام ، والقبض والبسط ، والفقد والوجد ، ويترقى من ذكر الاسم إلى الفكرة والنظرة ، كما هو مقرر عند أهل الفن.

وقوله تعالى : عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ، فيه تهييج على مقام التوكل ، وحث على الثقة

باللّه فى جميع الأمور. وفى ذلك يقول الشاعر :

توكّل على الرّحمن فى كلّ حاجة وثق باللّه ، دبّر الخلق أجمع

وضع عنك همّ الرّزق فالربّ ضامن وكفّ عن الكونين والخلق أربع

قوله : «والخلق أربع» : أراد العالم العلوي والسفلى ، والدنيا والآخرة. وكلها أكوان مخلوقة يجب كف البصر والبصيرة عن الميل إليها ، والوقوف معها. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر رجوعهم إلى مصر ، واتصال يوسف بأخيه ، وإمساكه عنده إلى أن اتصل بأبيه ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٦٨ الى ٧٦]

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦٨) وَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ (٧٠) قالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ (٧١) قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢)

قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَما كُنَّا سارِقِينَ (٧٣) قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ (٧٤) قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)

قلت : (ما كان) : جواب «لما» ، و(إلا حاجة) : استثناء منقطع. و(جزاؤه) : مبتدأ ، و(من) : شرطية أو موصولة ، وخبرها : (فهو جزاؤه) ، والجملة : خبر (جزاء) الأول. أو (جزاؤه) : مبتدأ ، و(من) : خبر ، على حذف مضاف ، أي :

جزاؤه أخذ من وجد فى رحله ، وتم الكلام ، و(فهو جزاؤه) : جملة مستقلة تقريرية لما قبلها.

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ أي : من أبواب متفرقة فى البلد ، ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ أي : ما أغنى عنهم رأى يعقوب واتّباعهم له مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ مما قضى عليهم ، فاتّهموا بالسرقة وظهرت عليهم ، فأخذ بنيامين الذي كان الخوف عليه ، وتضاعفت المصيبة على يعقوب ، إِلَّا حاجَةً : لكن حاجة فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ يعنى : شفقته عليهم ، وتحرزه من أن يعانوا ، قَضاها أظهرها ووصى بها. وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ بالوحى ونصب الدليل. ولذلك قال : وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ

شَيْءٍ فلم يغتر بتدبيره ، ففيه تنزيه ليعقوب عن الوقوف مع الأسباب والعوائد ، ورفع إيهام وقوفه مع عالم الحكمة. وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ سر القدر ، وأنه لا ينفع منه الحذر.

قال ابن عطية : قوله : ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، معناه : مادرأ عنهم قدرا لأنه لو قضى أن تصيبهم عين لأصابتهم ، مفترقين أو مجتمعين. وإنما طمع يعقوب عليه السّلام أن تصادف وصيته القدر فى سلامتهم.

(٦١٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦١٤

ثم أثنى اللّه – عز وجل – على يعقوب بأنه لقن مما علمه اللّه من هذا المعنى ، واندرج غيره فى ذلك العموم ، وقال :

إن أكثر الناس ليس كذلك. هـ.

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ أي : ضم إليه بنيامين على الطعام ، أو فى المنزل. روى أنه أضافهم ، فأجلسهم اثنين اثنين ، فبقى بنيامين وحيدا فبكى ، وقال : لو كان يوسف حيا لجلس معى ، فأجلسه معه على مائدته ، ثم قال : لينزل كل اثنين بيتا ، وهذا لا ثانى له فيكون معى ، فبات عنده وقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال : من يجد إذا مثلك ، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ وعرفه بنفسه ، فَلا تَبْتَئِسْ لا تحزن بِما كانُوا يَعْمَلُونَ فى حقنا من الأذى ، أو : لا تحزن بما يعمله فتيانى ، ولا تبالي بما تراه فى تحيّلى فى أخذك.

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ ، التي هى الصواع ، فِي رَحْلِ أَخِيهِ ، وهى إناء يشرب بها الملك ، ويأكل فيها ، وكان من فضة ، وقيل : من ذهب. وقيل : كان صاعا يكال به. وقصد بجعله فى رحل أخيه أن يحتال على إمساكه معه إذ كان شرع يعقوب أن من سرق استعبده المسروق منه. ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بعد أن انصرفوا : أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ ، والخطاب لإخوة يوسف ، وإنما استحل رميهم بالسرقة مع علمه بأنهم أبرياء لما فى ذلك من المصلحة فى المآل ، وبوحي لا محالة ، وإرادة من اللّه تعالى عنتهم بذلك ، يقويه قوله تعالى :

كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ، ويمكن من أن يكون فيه تورية ، وفيها مندوحة عن الكذب ، أي : إنكم لسارقون يوسف من أبيه ، حين باعوه.

قالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ أي : أىّ شىء ضاع منكم؟ والفقد : غيبة الشيء عن الحس. قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ الذي يكيل به ، أو يشرب فيه ، وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ من الطعام ، وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ كفيل أؤديه إلى من رده. وفيه دليل على جواز الجعل ، وضمان الجعل قبل تمام العمل. قاله البيضاوي.

قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَما كُنَّا سارِقِينَ فيما مضى ، استشهدوا بعلمهم بديانتهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم من الديانة والأمانة فى دخولهم أرضهم ، حتى كانوا يجعلون الأكمة فى أفواه إبلهم لئلا تنال زرع الناس ، قالُوا فَما جَزاؤُهُ أي : السارق ، إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ فى ادعاء البراءة. قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ يحبس فى سرقته ، ويسترقّ للمسروق منه ، وهذا كان قصد يوسف عليه السّلام ، وهى كانت شريعة يعقوب ، وكانت أيضا شريعتنا فى أول الإسلام ثم نسخ بالقطع. ثم قالوا : كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ بالسرقة.

(٢/٦١٤)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦١٥

فَبَدَأَ المؤذن أو يوسف لأنهم ردّوا إلى مصر ، أي : بدأ فى التفتيش ، بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ بنيامين ، تقية للتهمة ، ثُمَّ اسْتَخْرَجَها أي : السقاية ، أو الصواع لأنه يذكر ويؤنث ، مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ أي : مثل ذلك الكيد كِدْنا لِيُوسُفَ أي : علمناه الحيلة بالوحى فى أخذ أخيه ، ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ملك مصر لأن دينه كان الضرب وتغريم ضعف ما أخذ دون الاسترقاق. إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك. أو : لكن أخذه بمشيئة اللّه وإرادته. نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ بالعلم والعمل ، كما رفعنا درجته ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ أرفع درجة منه.

قال البيضاوي : واحتج به من زعم أنه تعالى عالم بذاته إذ لو كان ذا علم لكان فوقه من هو أعلم منه – أي :

لدخوله تعالى فى عموم الآية – والجواب : أن المراد كل ذى علم من الخلق لأن الكلام فيهم ، ولأن العليم هو اللّه تعالى. ومعناه : الذي له العلم البالغ ، ولأنه لا فرق بينه وبين قولنا : فوق كل العلماء عليم ، وهو مخصوص. هـ.

قلت : وقد ورد ثبوت العلم له تعالى فى آيات وأحاديث. كقوله تعالى : أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ «١» ، وأُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ «٢» «وإنى على علم من علم اللّه علّمنيه» «٣» إلى غير ذلك مما هو صريح فى الرد عليهم.

الإشارة : يؤخذ من قوله تعالى : وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ : امتثال أمر الأب فيما يأمر وينهى. ولا فرق بين أب البشرية وأب الروحانية – وهو الشيخ – ، فامتثال أمره واجب على المريد ، ولو كان فيه حتف أنفه ، وأمره مقدم على أمر الأب كما تقدم فى سورة النساء. وقد قالوا : أركان التصوف ثلاثة : الاجتماع ، والاستماع ، والاتباع. وقوله تعالى : ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حاجَةً ... إلخ : فيه الجمع بين مراعاة القدرة والحكمة ، فالقدرة تقتضى التفويض إذ لا فعل لغير اللّه ، والحكمة تقتضى الحذر ، واستعمال الأسباب لأن الحكمة رداء للقدرة. فالكمال هو الجمع بينهما سترا لأسرار

الربوبية ، فالباطن ينظر لتصريف القدرة ، والظاهر يستعمل أستار الحكمة.
وقوله تعالى : فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ... الآية. هذا من فعل أهل التصريف باللّه ، المأخوذين عنهم ، لا يدخل تحت قواعد الشرع لأن فاعله مفعول به ، أو ناظر بنور اللّه إلى غيب مشيئة اللّه ، كأفعال

---

(١) من الآية ١٦٦ من سورة النساء.
(٢) من الآية ١٤ من سورة هود.
(٣) جزء من حديث موسى الخضر وأخرجه البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب حديث الخضر) ، من حديث ابن عباس رضى اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦١٦
الخضر عليه السّلام. قال الورتجبي : إن اللّه سبحانه إذا خصّ نبيا ، أو وليا ألبسه صفاته بتدريج الحال ففى كل حالة له يكسوه نورا من صفته ، فمن جملة صفاته : كيد الأزل ومكر الأبد ، فكسى علم كيده قلب يوسف ، حتى كاد برؤية كيد اللّه الأزلى ، فعرفه فيه أسرار لطف صنائعه ، وعلم حقائق أفعاله وقدرته. هـ.
وقوله : نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ : أي : بالعلم باللّه كالكشف عن أسرار ذاته وأنوار صفاته ، والتخلق بمعاني أسمائه ، والتحقق بمقامات اليقين ، ومنازل السائرين. وهذه درجات المقربين ، وليس فوقها إلا درجة الأنبياء والمرسلين. أو بالعلم بأحكام اللّه وشرائعه كالعلم بأحكام العبادات والعادات ، وسائر المعاملات. وهذه درجات عامة أهل اليمين من العلماء الأتقياء والصالحين ، ومنتهى درجاتهم هى ابتداء درجات العارفين المقربين ، ثم الأنبياء والمرسلين. وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ، ومنتهى العلم إلى اللّه العظيم.
ثم ذكر جوابهم ، فقال :
[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٧٧ الى ٧٩]
قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ (٧٧) قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قالَ مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ (٧٩)
قلت : معنى الشرط والجواب : إن ثبت أن بنيامين يسرق فقد سرق أخ له ، أي : سرقته كسرقة أخيه ،

و(مكانا) :

تمييز.

يقول الحق جل جلاله : قال إخوة يوسف ، لما ظهرت السرقة عليهم : إِنْ يَسْرِقْ بنيامين فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ أخوه يوسف مِنْ قَبْلُ ، فهذا الأمر إنما صدر من ابني راحيل ، لا منا ، قصدوا بذلك رفع المضرة عن أنفسهم ، ورموا بها يوسف وشقيقه ، وهذه السرقة التي رموه بها قيل : كانت ورثت عمته من أبيها منطقة ، وكانت تخص يوسف وتحبه ، فلما شب ، أراد يعقوب انتزاعه منها ، فشدت المنطقة على وسطه ، ثم أظهرت ضياعها ، ففتّش عليها ، فوجدت مشدودة على وسطه ، فصارت أحق به فى حكمهم ، وقيل : كان لجده من أمه صنم من ذهب ، فسرقه وكسره ، وألقاه فى الجيف. وقيل : كان فى البيت عناق أو دجاجة فأعطاها السائل «١».

---

(١) لم يرد نص ثابت عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فى تعيين المراد بالسرقة التي وصفوه بها ، فاللّه أعلم بالذي كان.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦١٧

فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ أي : أخفى هذه الإجابة ، ولم يكذبهم فيها. أو : الحزازة التي وجد فى نفسه من قولهم : فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ أي : أسر كراهية مقالتهم. أو : المقالة التي يفسرها قوله : قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً أي : قال فى نفسه خفية : أنتم شر مكانا ، أي : أنتم أقبح منزلة فى السرقة بسرقتكم أخاكم ، أو بسوء صنيعكم بما فعلتم معى. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ ، وقد علم سبحانه أن الأمر ليس كما يصفون ، فهو إشارة إلى كذبهم فيما نسبوا إليه من السرقة.

قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فى السن ، أو القدر ، ذكروا حاله استعطافا له ، وكانوا أعلموه بشدة محبة أبيه فيه ، فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ فإن أباه ثكلان ، أي : حزين على أخيه الهالك ، يستأنس به ، إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ إلينا ، فأتمم إحسانك ، أو من المتعودين الإحسان فلا تغير إحسانك. قالَ مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ فإنّ أخذ غيره ظلم ، فلا آخذ أحدا مكانه إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ فى مذهبكم لأن اللّه أمرنا باسترقاق السارق فاسترقاق غيره ظلم.

الإشارة : النفس الأمارة من شأنها الانتصار ، ودفع النقائص عنها والعار. والنفس المطمئنة من شأنها الاكتفاء بعلم اللّه ، والرضا بما يجرى به القضاء من عند اللّه ، فإذا اختلجها شىء من الانتصار أسرّته ، ولم تخرجه إلى حالة الإظهار.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى اللّه عنه : آداب الفقير المتجرد أربعة أشياء : الحرمة للأكابر ، والرحمة للأصاغر ، والانتصاف من نفسه ، وعدم الانتصار لها. هـ. فالفقير إذا انتصر لنفسه فقد نقض العهد مع ربه ، فيجب عليه التوبة. وقالوا : [الصوفي دمه هدر ، وعرضه وماله مباح]. يعنى : أنه لا ينتصر لنفسه ، فكل من آذاه لا يخاف من جانبه فكأنه مباح ، مع كونه حراما بالشريعة ، بل هو أشد حرمة من غيره. واللّه تعالى أعلم.

ثم قال تعالى :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٨٠ الى ٨٣]

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَما شَهِدْنا إِلاَّ بِما عَلِمْنا وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ (٨١) وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَإِنَّا لَصادِقُونَ (٨٢) قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)

(٦١٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦١٨

قلت : (نجياً) : حال ، أي : انفردوا عن الناس مناجين. وإنما أفرده لأنه مصدر ، أو بزنته. و(من قبل ما) :

يحتمل أن تكون مزيدة ومصدرية مرفوعة بالابتداء ، أي : تفريطكم فى يوسف واقع من قبل هذا. قاله ابن جزى.

وفيه نظر فإن الظرف المقطوع لا يقع خبرا ، أو منصوبة بالعطف على مفعول (تعلموا) ، أي : لم تعلموا أخذ ميثاق أبيكم ، وتفريطكم فى يوسف قبل هذا.

يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا أي : يئسوا مِنْهُ من يوسف أن يجيبهم إلى ما دعوه إليه من أخذ أحدهم مكان أخيهم ، خَلَصُوا أي : تخلصوا من الناس ، وانفردوا عنهم نَجِيًّا متناجين ، يناجى بعضهم بعض : كيف وقع للصاع؟ وكيف يتخلصون من عهد أبيهم؟ ثم فسر تلك المناجاة : قالَ كَبِيرُهُمْ فى السن ، وهو رويبيل ، أو فى الرأى ، وهو شمعون ، وقيل يهوذا : أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ عهدا وثيقا ، وحلفتم له لتأتن بابنه إلا أن يحاط بكم؟ فكيف تصنعون معه ، وَمِنْ قَبْلُ هذا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ واعتذرتم بالأعذار الكاذبة؟ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ فلن أفارق أرض مصر حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي فى الرجوع ، أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي : أو يقضى لى بالخروج منها ، أو بتخليص أخى منهم قهرا ، وَهُوَ خَيْرُ

الْحاكِمِينَ لأن حكمه لا يكون إلا بالحق.

روى أنهم كلموا العزيز فى إطلاقه ، فقال رويبيل ، وقيل : يهوذا : أيها الملك ، لتتركن أخانا أو لأصيحن صيحة تضع منها الحوامل ، ووقف شعر جسده فخرجت من ثيابه ، فقال يوسف لابنه الصغير ، واسمه نائل : قم إلى جنبه ومسّه ، فمسه ، وكان بنو يعقوب إذا غضب أحدهم لا يسكن غضبه إلا إذا مسه أحد من آل يعقوب ، فلما مسه ولد يوسف عليه السّلام سكن غضبه ، فقال : من هذا؟ إن فى هذا البلد لبذرا من بذر يعقوب.

وقيل : إنهم هموا بالقتال ، وقال يهوذا لإخوته : تفرقوا فى أسواق مصر ، وأنا أصيح صيحة نشق مراريهم ، فإذا سمعتم صوتى ، فاخربوا يمينا وشمالا ، فلما غضب ، وأراد أن يصيح ، مسه ولد يوسف فسكن ، فلما لم يسمعوا صوته أتوا إليه فوجدوه قد سكن غضبه ، فقال : إن هنا بذرا من آل يعقوب.

ثم قال لهم : ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ على ما شهدنا من ظاهر الأمر ، وَما شَهِدْنا إِلَّا بِما عَلِمْنا بأن رأينا الصاع استخرج من وعائه. وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ أي : ما كنا

لباطن الأمر حافظين ، فلا ندرى أسرق ، أو أحد دسه فى وعائه؟ أو ما كنا حين أعطيناك العهد حافظين للغيب ، عالمين بالقدر المغيب ، وأنك تصاب به كما أصبت بأخيه. وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وهى القرية التي لحقهم فيها المنادى ، أي : أرسل إليهم واسألهم عن القصة إن اتهمتنا. وَسل أيضا الْعِيرَ : أهل العير ، الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها ، والعير : جماعة الإبل. وَإِنَّا لَصادِقُونَ فيما أخبرناك به. هذا تمام وصية كبيرهم. فلما رجعوا إلى أبيهم ، وقالوا له ما قال لهم كبيرهم ، .

قالَ لهم أبوهم : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً أي : زينت لكم أمرا فصنعتموه ، وإلا فمن أين يدرى الملك أن السارق يؤخذ فى السرقة ، إذ ليست بشريعته ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ أي : فأمرى صبر جميل ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً بيوسف وبنيامين ، وأخيهما الذي بقي بمصر إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ بحالي وحالهم ، الْحَكِيمُ فى تدبيره. روى أن عزرائيل دخل ذات يوم على يعقوب – عليهما السّلام – فقال له يعقوب : جئت لقبض روحى ، أو لقبض روح أحد من أولادى وأهلى؟. قال : إنما جئت زائرا ، فقال له : أقسمت عليك باللّه إلا ما أخبرتنى ، هل قبضت روح يوسف؟ فقال : لا ، بل هو حى سوىّ ، وهو ملك وله خزائن ، وجنود وعبيد ، وعن قريب يجمع اللّه شملك به. هـ.

الإشارة : فلما استيأس القلب من الدنيا ، والرجوع إليها ، وقطع يأسه من حظوظها وهواها ، خلصت له المناجاة ، وصفت له أنوار المشاهدات ، وأنواع المكالمات ، والقلب هو كبير الأعضاء وملكها ،

فيقول لها : ألم تعلموا أن اللّه قد أخذ عليكم موثقا ألا تعصوه ولا تخالفوه ، ومن قبل هذا ، وهو زمان البطالة ، قد فرطتم فى عبادته ، فلن أبرح أرض العبودية حتى يأذن لى فى العروج إلى سماء شهود عظمة الربوبية ، أو يحكم لى بالوصال ، وهو خير الحاكمين. فإن وقعت من الجوارح هفوة فيقال لها : ارجعوا إلى أبيكم – وهو القلب – فقولوا : إن ابنك سرق ، أي : تعدى وأخذ ما ليس له من الهوى فيما ظهر لنا ، وما شهدنا إلا بما علمنا ، فرب معصية فى الظاهر طاعة فى الباطن ، واسأل البشرية التي كنا فيها والخواطر التي أقبلنا على المعصية فيها ، فيقول القلب : بل زينت لكم أنفسكم أمر الهوى ، فدواؤكم الصبر الجميل ، والتوبة للعظيم الجليل ، عسى اللّه أن يأتينى بهم جميعا ، فنصرفهم فى طاعة اللّه ومرضاته. واللّه تعالى أعلم بأسرار حكم كتابه ، فعلم الإشارة يقبل مثل هذا وأكثر. وإياك والانتقاد فقد قالوا فى باب الإشارة أرق من هذا وأغرب. وباللّه التوفيق.

(٦١٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٢٠

ثم قال تعالى :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٨٤ الى ٨٧]

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ (٨٥) قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٨٦) يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ (٨٧)

قلت : يا أسفى ، ويا ويلتى ، ويا حسرتى ، مما عوض فيه الألف عن ياء المتكلم. والأسف : أشد الحزن. وقيل : شدة الحسرة. و(كظيم) : إما بمعنى مفعول ، كقوله : (و هو مكظوم) أي : فهو مملوء غيظا على أولاده ، ممسك له فى قلبه ، تقول : كظم السقاء إذا شد على ملئه. أو بمعنى فاعل كقوله : وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ «١» من كظم البعير جرّته إذا ردها فى جوفه. و(تفتأ) : من النواقص اللازم للنفى ، وحذفه هنا لعدم الإلباس لأنه لو كان مثبتا لأكد باللام والنون. والحرض : المريض المشرف على الهلاك ، وهو فى الأصل مصدر ، ولذلك لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع. والبث : أشد الحزن.

يقول الحق جل جلاله : وَتَوَلَّى يعقوب عن أولاده ، أي : أعرض عَنْهُمْ لما لم يصدقهم ، كراهة إما صادف منهم ، ورجع إلى تأسفه وَقالَ يا أَسَفى أي : يا شدة حزنى عَلى يُوسُفَ. وإنما تأسف على يوسف دون أخويه لأن محبته كانت أشد لإفراط محبته فيه ، ولأن مصيبته سبقت عليهما. وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ من كثرة البكاء مِنَ الْحُزْنِ ، كأنّ العبرة محقت سوادها ، وقيل : ضعف بصره ، وقيل : عمى. وقد

روى أنه :

«حزن يعقوب حزن سبعينثكلى ، وأعطى أجر مائة شهيد ، وما ساء ظنّه باللّه قطّ».

وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند التفجع. ولعل أمثال ذلك لا يدخل تحت التكليف ، فإنه قلّ من يملك نفسه عند الشدائد ، وقد بكى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وقال : «القلب يحزن ، والعين تدمع ، ولا نقول إلّا ما يرضى ربّنا ، وإنّا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون».

فَهُوَ كَظِيمٌ أي : مملوء غيظا على أولاده لما فعلوا. أو كاظم غيظه ، ماسك له ، لم يظهر منه شيئا ، ولم يشك لأحد.

---

(١) من الآية ١٣٤ من سورة آل عمران.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٢١

قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا : لا تزال تَذْكُرُ يُوسُفَ تفجعا عليه ، حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً : مشرفا على الهلاك ، أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ : من الميتين.الَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي

أي : شدة همى حُزْنِي

الذي لاصبر عليه ، لَى اللَّهِ

لا إلى أحد منكم ولا غيركم فخلّونى وشكايتى ، فلست ممن يجزع ويضجر فيستحق التعنيف ، وإنما أشكو إلى اللّه ، ولا تعنيف فيه لأن فيه إظهار الفقر ، والعجز بين يديه ، وهو محمود. أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

أي : أعلم من لطف اللّه ورأفته ورحمته ، ما يوجب حسن ظنى وقوة رجائى ، وأنه لا يخيب دعائى ، ما لا تعلمون. أو : وأعلم من طريق الوحى من حياة يوسف ما لا تعلمون لأنه رأى ملك الموت فأخبره بحياته ، كما تقدم. وقيل : علم من رؤيا يوسف أنه لا يموت حتى تخر له إخوته سجّدا.

يا بَنِيَّ اذْهَبُوا إلى الأرض التي تركتم بها أخويكم ، فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ أي : تعرفوا من خبرهما ، وتفحّصوا عن حالهما. والتحسس : طلب الشيء بالحواس. وإنما لم يذكر الولد الثالث لأنه بقي هناك اختيارا ، وفى ذكر يوسف دليل على أنه كان عالما بحياته. وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ : لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه ، أو من رحمته ، وقرىء بضم الراء ، أي : من رحمته التي يحيى بها العباد ، أي : ولا تيأسوا من حى معه روح اللّه فكل من بقي روحه يرجى ، أي : ويوسف عندى ، فمن معه روح اللّه فلا تيأسوا من رجوعه. إِنَّهُ أي :

الشأن لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ باللّه وصفاته لأن العارف لا يقنط من رحمته فى شىء من الأحوال. وإنما جعل اليأس من صفة الكافر لأن سببه تكذيب بالربوبية ، أو جهل بصفة اللّه وقدرته ، والجهل بالصفة جهل بالموصوف ، فالإياس من رحمة اللّه كفر.

وأما حديث الرجل الذي قال : (إذا متّ فاحرقونى ، ثم اذرونى فى البحر والبر فى يوم رائح ، فلئن قدر اللّه علىّ ليعذبنى عذابا ما عذبه أحد من الناس) ، حسبما فى الصحيح «١» ، فليس فيه اليأس ولا تعجيز القدرة ، لكن لما غلبه الخوف المفرط لم يتأمل ولم يضبط حاله إما لحقه من الخوف وغمره من الدهش والخشية ، دون عقد ولا إصرار على نفى الرحمة واليأس منها. ويدل على ذلك قوله : (لما قال له الرب – تعالى – : ما حملك على هذا؟ قال :

مخافتك ، فغفر له). ولم يقل اليأس من رحمتك. انظر المحشى الفاسى.

الإشارة : لم يتأسف يعقوب عليه السّلام على فقد صورة يوسف الحسية ، إنما تأسف على فقد ما كان يشاهد فيه من جمال الحق وبهائه ، فى تجلى يوسف وحسن طلعته البهية ، وفى ذلك يقول ابن الفارض :

عينى لغير جمالكم لا تنظر وسواكم فى خاطرى لا يخطر

---

(١) أخرج قصة هذا الرجل البخاري فى (الرقاق ، باب الخوف من اللّه) من حديث أبى سعيد الخدري رضى اللّه عنه.

فلما فقد ذلك التجلي الجمالي حزن عليه ، وإلا فالأنبياء – عليهم الصلاة والسّلام – أولى بالغنى باللّه عما سواه.

فإذا حصل للقلب الغنى باللّه لم يتأسف على شىء ، ولم يحزن على شىء لأنه حاز كل شىء ، ولم يفته شىء.

«ماذا فقد من وجده ، وما الذي وجد من فقده». وللّه در القائل :

أنا الفقير إليكم والغنىّ بكم وليس لى بعدكم حرص على أحد

وهذا أمر محقق ، مذوق عند العارفين أهل الغنى باللّه. وقوله : (إنما أشكو بثي وحزنى إلى اللّه) : فيه رفع الهمة عن الخلق ، والاكتفاء بالملك الحق ، وعدم الشكوى فيما ينزل إلى الخلق .. وهو ركن من أركان طريق التصوف ، بل هو عين التصوف. وباللّه التوفيق.

ثم ذهبوا إلى مصر كما أمرهم أبوهم ، قال تعالى :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٨٨ الى ٩٢]

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ (٨٩) قالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ (٩١) قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)

قلت : (من يتق ويصبر) : من قرأ بالياء : أجرى الموصول مجرى الشرط لعمومه وإبهامه ، فعطف على صلته بالجزم ، ومنه قول الشاعر :

كذلك الذي يبغى على النّاس ظالما تصبه على رغم عواقب ما صنع

يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ على يوسف حين رجعوا إليه مرة ثالثة ، قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ شدة الجوع ، وَجِئْنا إليك بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ : رديئة ، أو قليلة ، أو ناقصة ، تدفع

(٦٢٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٢٣

وترد ، من أزجيته ، دفعته. ومنه : يُزْجِي سَحاباً «١» قيل : كانت دراهم زيوفا وقيل : الصنوبر وحبة الخضراء.

وقيل : سويق المقل أي : الدوم. وقيل : عروضا. فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ : أتممه لنا ، وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا بالمسامحة ، وقبول المزجاة ، أو بالزيادة على ثمننا. وهذا يقتضى أن الصدقة كانت حلالا على الأنبياء قبل نبينا صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو خلاف المشهور. أو برد أخينا ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ أحسن الجزاء. والتصدق : التفضل مطلقا ، ومنه قوله صلّى اللّه عليه وسلّم فى القصر : «هذه صدقة تصدّق اللّه عليكم بها ، فأقبلوا صدقته» «٢».

روى أن يعقوب عليه السّلام لما أرسلهم المرة الثالثة ليتحسسوا أخبار يوسف وأخيه ، أرسل معهم كتابا ونصه : بسم اللّه الرحمن الرحيم ، من يعقوب الحزين إلى عزيز مصر ، ولو عرفت اسمك لذكرتك فى كتابى هذا ، يا من اعتز بعز اللّه ، فاللّه يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وإنى أيها العزيز قد اشمأز قلبى ، وقطع الحزن أوصالى ، وإنى ناه إلى الإقراح ، دائم البكاء والصياح ، وإنى من نطفة آباء كرام ، فكيف يتولد اللصوص منى وأنا من الخصوص! وقد أخبرت أنك وضعت الصّاع بالليل فى رحل ولدي الأصغر ، وإنى حزين عليه كما كنت حزينا على أخيه الفقيد ، حزنا دائما سرمدا شديدا. وإن كنت

أفجعتنى فى الآخر ، فإن قلبى لا محالة طائر. ثم ختمه بالسلام.
فلما دفعوه ليوسف قرأه ، وبكى بكاء شديدا ، ثم دفعه لأخيه بنيامين فقرأه وبكى أيضا. ثم نزل عن سريره ، ثم دفع لهم الكتاب الذي كانوا كتبوه لمالك بن ذعر لمّا باعوه بخطوط شهادتهم ، كان أخذه من مالك حين باعه. فلما قرأوه تغيرت ألوانهم وتضعضعت أركانهم ، وبهتوا ، فقال لهم : هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ من إيذاء يوسف ، وتفريقه من أبيه ، ومضرة أخيه من بعده ، فإنهم كانوا يذلونه ويشتمونه ، أي : هل علمتم قبحه فتبتم منه؟
قاله نصحا وتحريضا لهم على التوبة. إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ أي : فعلتم ذلك حين كنتم جاهلين قبح ذلك. وإنما سماهم جاهلين لأن فعلهم حينئذ فعل الجهال ، أو لأنهم حينئذ كانوا صبيانا طياشين ، فعرفوه حينئذ على ظن ، فقالوا : أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ؟ بالاستفهام التقريرى. وقرأ ابن كثير على الإيجاب. قيل : عرفوه بذوائبه وشمائله حين نزل إليهم وكلمهم. وقيل : تبسم فعرفوه بثناياه. وقيل : رفع التاج عن رأسه فعرفوه بشامة كانت فى رأسه بيضاء ، وكانت لسارة ويعقوب مثلها.
قالَ لهم : أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي من أبى وأمي. ذكره تعريفا لنفسه به ، وتفخيما لشأنه ، وإدخالا له فى المنة بقوله : قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا بالسلامة والكرامة والعز ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللّه وَيَصْبِرْ على بلواه ، وعلى طاعته وتقواه فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وضع المحسنين موضع المضمر تنبيها على أن المحسن جمع بين الصبر والتقوى. فمن اتقى اللّه وصبر فهو محسن ..

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة النور.
(٢) أخرجه مسلم فى (صلاة المسافرين ، باب صلاة المسافرين وقصرها) من حديث سيدنا عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه.

قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا بحسن الصورة وكمال السيرة ، أو فضلك علينا رغما على أنفنا ، وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ أي : والحال أن شأننا أنّا كنا مذنبين فيما فعلنا معك. قالَ لا تَثْرِيبَ : لا عتاب عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ أي : لا عقوبة عليكم فى هذا اليوم. ثم دعا لهم فقال : يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ، فيوقف على اليوم. وقيل : يتعلق بيغفر ، فيوقف على ما قبله ، وهو بعيد لأنه تحكم على اللّه ، وإنما يصلح أن يكون دعاء ، إذ هو الذي يليق بآداب الأنبياء ، فكأنه أسقط حق نفسه بقوله : لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، ثم دعا اللّه أن يغفر لهم اللّه حقه. قاله ابن جزى ، وصدر به البيضاوي. وبه تعلم ضعف وقف الهبطى. ثم قال فى تمام

دعائه : وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فإنه يغفر الصغائر والكبائر ، ويتفضل على التائب.

قال البيضاوي : ومن كرم يوسف عليه السّلام أنهم لما عرفوه أرسلوا له ، وقالوا : إنك تدعوننا بالبكرة والعشى إلى الطعام ، ونحن نستحى منك لما فرط منا فيك ، فقال لهم : إن أهل مصر كانوا ينظرون إلىّ بالعين الأولى ، ويقولون :

سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما ما بلغ ، ولقد شرفت بكم ، وعظمت فى أعينهم حيث إنكم إخوتى ، وإنى من حفدة إبراهيم عليه السّلام. هـ.

الإشارة : من رام الدخول إلى حضرة الكريم الغفار ، فليدخل من باب الذل والانكسار. وفى الحكم : «ما طلب لك شيء مثل الاضطرار ، ولا أسرع بالمواهب مثل الذلة والافتقار». فإذا قرعت الباب ، ورمت الدخول مع الأحباب ، فقل بلسان التضرع والانكسار : يا أيها العزيز الغفار مسنا الضر ، وهو البعد والغفلة ، وجئنا ببضاعة مزجاة عمل مدخول ، وقلب معلول ، فأوف لنا ما أملناه من الجزاء المأمول ، وتفضل علينا بالقبول والوصول ، وقل : اليوم نغفر لكم ونغطى مساوءكم ، ونوصلكم بما منى إليكم من الإحسان ، لا بما منكم إلينا من الطاعة والإذعان. هؤلاء إخوة يوسف لما أظهروا فاقتهم ، واستقلوا بضاعتهم ، وأحضروا شكايتهم ، سمح لهم وقربهم ، وكشف لهم عن وجهه الجميل ، ومنحهم العطاء الجزيل ، فما ظنك بالرب العظيم الجليل ، الذي هو أرحم الراحمين ، ومحل أمل القاصدين.

ثم أمرهم بالرجوع إلى أبيهم ، والإتيان به وبمن معه من أولادهم ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٩٣ الى ٩٨]

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٩٦) قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ (٩٧)

قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٢٥

قلت : جواب (لو لا) : محذوف ، أي : لو لا أن تفندون لقلت إنه قريب ، أو لصدقتمونى.

يقول الحق جل جلاله : قال يوسف لإخوته لما عرفوه ، وأزال ما بينه وبينهم من الوحشة ، وقد أخذ قميصه :

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا ، روى أن هذا القميص كان لإبراهيم الذي لبسه حين كان فى النار ، وقيل : ألبسه

له جبريل حين خرج من النار ، وكان من ثياب الجنة ، ثم كان لإسحاق ثم ليعقوب ، ثم كان دفعه ليوسف ، فكان عنده فى حفاظ من قصب ، وكان فى عنقه فى الجب ، وأمره جبريل بإرساله ، وقال : إن فيه ريح الجنة ، لا يلقى على مبتلى إلا عوفى. قال ابن عطية : وهذا كله يحتاج إلى سند ، والظاهر : أنه قميص يوسف الذي هو منه بمنزلة قميص كل أحد. وبهذا تتبين الغرابة فى أن وجد يعقوب ريحه من بعد ، ولو كان من قميص الجنة لما كان فى ذلك غرابة ، ويجده كل أحد. هـ.

قلت : وما قاله لا ينهض لأن ما ظهر من الجنة إلى دار الدنيا لا يبقى على حاله دائما لأنه من أسرار الغيب ، بل لا يجده إلا أهل الذوق من أهل القرب ، كنور الحجر الأسود ، وغيره مما نزل من الجنة. واللّه تعالى أعلم.

ثم قال لهم اذهبوا به : فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً أي : يرجع بصيرا ، علم ذلك بوحي ، أو تجربة من القميص ، وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ نسائكم وذارريكم وأموالكم.

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ من مصر ، وخرجت من عمارتها ، قالَ أَبُوهُمْ لمن حضره : إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ أوجده اللّه ، ريح ما عبق من قميصه حين أقبل إليه به يهوذا من ثمانين فرسخا لأن يعقوب كان إذ ذاك ببيت المقدس ، ويوسف بمصر ، لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ تنسبونى إلى الفند ، وهو : نقصان عقل يحدث من هرم. ولذلك لا يقال عجوز مفندة لأن نقصان عقلها ذاتى. أي : لو لا أن تحمقونى لقلت إنه قريب ، أو لصدقتمونى فى ذلك ، أو لو لا أن تلومونى ، وتردوا علىّ قولى لقلت إنه ريح يوسف. قالُوا أي : الحاضرون : تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ أي : إنك لفى خطئك القديم بالإفراط فى محبة يوسف ، وإكثار ذكره ، وتوقع لقائه.

(٢/٦٢٥)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٢٦

فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أي : المبشر ، وهو : يهوذا. روى أنه قال : كنت أحزنته بحمل قميصه الملطّخ بالدم إليه ، اليوم أفرحه بحمل هذا إليه. وفى رواية عنه قال : إنى ذهبت إليه بقميص التّرحة ، فدعونى أذهب إليه بقميص الفرحة. فلما وصل إليه أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ طرح البشير القميص على وجه يعقوب ، أو : ألقاه يعقوب بنفسه على وجهه ، فَارْتَدَّ بَصِيراً بقدرة اللّه وبركة القميص. قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ من حياة يوسف ، وإنزال الفرج.

قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ ، وقد اعترفنا بذنوبنا ، وسألنا المغفرة. قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، أخره إلى السّحر ، أو إلى صلاة الليل ، أو إلى ليلة الجمعة ، تحريا لوقت الإجابة ، أو إلى أن يتحلل لهم من يوسف ، فإن عفو المظلوم شرط فى المغفرة ، ويؤيده ما روى

أنه لما اجتمع به ، وتحلل منه ، استقبل يعقوب القبلة قائما يدعو ، ويوسف خلفه يؤمن ، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين ، حتى نزل جبريل وقال : إن اللّه قد أجاب دعوتك فى أولادك ، وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة. وهو ، إن صح ، دليل نبوتهم ، وأن ما صدر منهم كان قبل نبوتهم ، قاله البيضاوي.

الإشارة : اعلم أن الحق – جل جلاله – جعل للبشرية عينين حسيين ، تبصر بهما الحسيات ، وجعل للقلب عينين معنويين يرى بهما المعاني. فالأول : يسمى البصر ، والثاني : البصيرة. فأحد عينى القلب تبصر أنوار الشريعة ، والأخرى تبصر أسرار الحقيقة. وقد يغشى القلب ظلمة الكفر ، فتغطيهما معا ، وهو : عمى البصيرة. وقد يغشاه ظلمة المعاصي ، واتباع الحظوظ والهوى ، فتعمى عين الحقيقة ، وتضعف عين الشريعة ، ودواؤهما : إلقاء قميص المعرفة على وجه عين الحقيقة ، وجلباب العصمة على عين الشريعة ، فيرجع القلب بصيرا. ولا بد من صحبة شيخ عارف يعطيه هذا القميص ، ويقول : اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه بصيرتكم ، تأتى بصيرة عارفة ، فإذا قرب منها هذا القميص هبّ عليها نسيم الوصال ، وهاج عليها الوجد والحال. وأنشدت بلسان المقال :

سويداء قلبى أصبحت حرما لكم تطوف بها الأسرار من عالم اللّطف
وسائل ما بين المحبّين أصبحت تجلّ عن التّعريف والرّسم والعرف
رسائل جاءتنا برؤيا جنابكم عوارف عرف فاق كلّ شذا عرف

(٢/٦٢٦)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٢٧

ثم ذكر دخول يعقوب مصر ، وجمع شمله بيوسف – عليهما السّلام – ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٩٩ الى ١٠٠]

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)

يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ. قبل هذا الكلام محذوفات ، وهى : فرحل يعقوب بأهله حتى بلغوا إليه ، ولما دخلوا على يوسف .... إلخ.

روى أن يوسف عليه السّلام وجه إليه رواحل وأموالا ليتجهز إليه بمن معه ، وأرسل إليه مائة وثمانين كسوة من رفيع الثياب والعمائم لإخوته ، وقميصان مذهبان للإناث ، فلما وصلت إلى يعقوب لبس ، وألبس أولاده ، وركبوا المراكب ، وخرجوا من أرض كنعان يريدون مصر ، فلما قربوا ، أمر يوسف عليه

السّلام العساكر أن تخرج معه للقائهم ، فأول من لقيهم ثلاثون ألف فارس ، كلهم يسجدون بين يدى يعقوب ، وهو يتعجب من عظم تلك الأجناد ، ويضحك من نصر اللّه تعالى ، وعزه لابنه. ثم لقيهم البغال ، والجواري لنساء إخوته وأولادهم. ثم لقيهم أربعون ألف شيخ من الوزراء والكبراء. ثم استقبلهم يوسف عليه السّلام مترجلا ماشيا على قدميه ، متواضعا لأبيه ، فى مائة ألف ، كلهم على أرجلهم ، معهم الملك «ريّان» ثم سلّم يوسف عليه السّلام والملك على أبيه ، ثم أقبلا يبكيان ، وبكى إخوته وضج الناس بالبكاء ، ثم ضم إليه أبويه ، وقيل : أباه وخالته ، وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ، ثم حمل يعقوب عليه السّلام فى هودج من الذهب ، ويوسف عليه السّلام ، وإخوته يمشون بين يديه مترجلين حتى دخلوا مصر ، ثم أتوا إلى قصر مملكته.

قال ابن عباس : فجلس يوسف عليه السّلام على سريره ، وأبوه عن يمينه ، وخالته عن شماله ، وإخوته بين يديه ، فخروا له سجدا لأنها كانت عادتهم فى ذلك الزمان – يعنى تحيتهم على الملوك – روى أنهم قالوا فى سجودهم :

سبحان مؤلف الشتات بعد الإياس ، سبحان كاشف الضر بعد البأس. فقال يوسف لأبيه : يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ ... إلخ – هكذا ذكر القصة صاحب الزهر الأنيق فى قصة يوسف الصديق. وهذا معنى قوله : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ بلده ومملكته آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ أي : اعتنقهما ، وسلّم عليهما ، وضمهما إليه. قيل : الأبوين حقيقة. وقيل : أباه وخالته. ونزّل الخالة منزلة الأم تنزيل العم منزلة الأب فى

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٢٨

قوله : نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ

«١» ، .

وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ من القحط وأصناف المكاره. والمشيئة متعلقة بالدخول المكيّف بتلك الهيئة لا بالأمن. وقال ابن جزى : راجعة إلى الأمن. قال البيضاوي : وكان أولاد يعقوب الذين دخلوا مصر اثنين وسبعين رجلا ، وامرأة ، وكانوا حين خرجوا مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وتسعين رجلا سوى الذرية ، والهرمى. هـ.

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ، أي : حين دخلوا قصر مملكته ، وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً تحية وتكرمة فإن السجود كان عندهم يجرى مجرى التحية. وقيل : معناه : خروا لأجله سجدا للّه شكرا. وقول البيضاوي : الرفع مؤخر عن الخرور ، فيه نظر لما تقدم عن صاحب الزهر الأنيق ، ولا داعى إلى الخروج عن الظاهر إلا

بنص صريح.

قال ابن عطية : واختلف فى هذا السجود فقيل : كان المعهود عندنا من وضع الوجه بالأرض ، وقيل : بل دون ذلك كالركوع البالغ ونحوه ، مما كان سيرة تحيتهم للملوك فى ذلك الزمان. وأجمع المفسرون أن ذلك السجود ، كيفما كان ، إنما كان تحية لا عبادة.

قال قتادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم ، وأعطى اللّه هذه الأمة السّلام تحية أهل الجنة. ثم قال : قال أبو عمرو الشيباني : تقدم يوسف يعقوب عليه السّلام فى المشي فى بعض تلك المواطن ، فهبط جبريل فقال : أتتقدم أباك؟ إن عقوبتك لذلك ألا يخرج من نسلك نبى. هـ. قال المحشى الفاسى : وما أظن لهذا صحة ، وقد كان من ذريته «يوشع بن نون» عليه السّلام ، ويوسف المذكور فى سورة الطّول «٢» على قول. وفى البيضاوي : وكان عمر يوسف مائة وعشرين سنة ، وقد ولد له من راعيل : إفرائيم وميشا ، وهو جد يوشع بن نون ورحمة امرأة أيوب. هـ. قلت : المذكور فى قصة أيوب أن زوجه رحمة إنما كانت ابنة إفرائيم بن يوشع لابنته.

ثم قال : يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ التي رأيتها أيام الصبا ، وهى : رؤيا أحد عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون لى ، قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا : صدقا. وكان بين رؤياه وبين صدق تأويلها ثمانون عاما ، وقيل :

أربعون ، وهو الأصح. وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ، ولم يذكر الجب لئلا يخجل إخوته ، ولأنه خرج من الجب إلى الرق ، ومن السجن إلى الملك ، فالنعمة هذا أوضح. وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ : من البادية لأنهم كانوا أصحاب المواشي وأهل البدو ، فعد عليهم من النعم انتقالهم للحاضرة لأنها محل الراحة. مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي : أفسد بيننا وحرش ، من نزغ الدابة إذا نخسها. إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ

---

(١) من الآية ١٣٣ من سورة البقرة.

(٢) أي سورة غافر من الآية ٣٤. [.....]

أي : لطيف التدبير لما يشاء من الأمور إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته ، ويتسهل دونها ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ بوجوه المصالح والتدابير ، الْحَكِيمُ الذي يفعل كل شىء فى وقته ، على وجه تقتضيه الحكمة.

روى أن يوسف عليه السّلام طاف بأبيه – عليهما السّلام – فى خزائنه ، فلما أدخله خزانة القرطاس ،

قال : يا بنى ، ما أغفلك ، عندك هذه القراطيس وما كتبت لى على ثمانى مراحل ، قال : أمرنى جبريل ، قال : أو ما تسأله؟ قال :

أنت أبسط منى ، سله ، فقال جبريل : أمرنى ربى بذلك لقولك : (إنى أخاف أن يأكله الذئب) ، فهلا خفتنى. هـ.

قاله البيضاوي. وزاد فى القوت : لم خفت عليه الذئب ولم ترجنى؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ، ولم تنظر إلى حفظى له؟ فهذا على معنى قول يوسف عليه السّلام للساقى : (اذكرني عند ربك) ، فهذا مما يعتب على الخصوص من خفى سكونهم ، ولمح نظرهم إلى ما سوى اللّه عز وجل. هـ.

الإشارة : ما أحلى الوصال ، بعد الفراق ، وما ألذ شهود الحبيب على الاشتياق ، فبقدر طول البين يعظم قدر الوصول ، وبقدر حمل مشاق الطلب يظفر بالمأمول. فجدّ أيها العبد فى طلب مولاك ، وغب فى سيرك إليه عن حظوظك وهواك ، تظفر بالوصل الدائم فى عزك وعلاك ، وتتصل بكل ما كنت تأمله من مطالبك ومناك. وأنشدوا :

وإن امرؤ أمسى بقربك نازلا فأهلا به ، حاز الفضائل كلّها

وألبسته حلى المحاسن فاكتسى حلل الرضا فازداد قربا ما انتهى

وباللّه التوفيق.

ثم إن يوسف عليه السّلام لما تمكن من الملك الفاني ، اشتاق إلى الملك الباقي ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : آية ١٠١]

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)

قلت : (فاطر) : نعت المنادى ، أو منادى بنفسه.

يقول الحق جل جلاله ، حاكيا عن يوسف عليه السّلام : رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ أي : من بعض الملك ، وهو ملك مصر ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ الكتب المتقدمة ، أو تأويل الرؤيا. و«من» : للتبعيض فيهما إذ لم يعط ملك الدنيا كلها ، ولا أحاط بالعلم كله. فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ : مبدعهما ومنشئهما ، أَنْتَ وَلِيِّي فِي

(٦٢٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٣٠

الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ

: أنت ناصرى ومتولى أمرى فى الدارين ، تَوَفَّنِي مُسْلِماً : اقبضنى مسلما ، وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ من

آبائي ، أو جماعة الصالحين فى الرتبة والكرامة ، أو بالصالحين لحضرة قدسك.
روى أن يعقوب عليه السّلام أقام معه أربعا وعشرين سنة ، ثم توفى ، فنقله يوسف عليه السّلام إلى الشام ليدفن مع أبويه.
هكذا ذكر بعض المفسرين. وقال فى الزهر الأنيق : بقي يعقوب عليه السّلام بمصر أربعين سنة فى أطيب وقت ، وأكمل عافية ، ثم أوحى اللّه إلى جبريل : أن انزل إلى يعقوب ، وقل له : يرحل إلى الأرض المقدسة ، عند قبور آبائه ، يجاورهم حتى ألحقه بهم. فنادى يعقوب عليه السّلام يوسف وأولاده ، وقال لهم : قد أمرنى ربى بمجاورة أبى ليقبض روحى هناك ، ثم ودّعهم ، وخرج إلى الأرض المقدسة ، فزار قبور آبائه فبكى ، فرأى فى المنام إبراهيم على كرسى ، وإسماعيل عن يمينه ، وإسحق عن يساره ، وهم يقولون : الحق بنا يا يعقوب ، فانتبه ، ثم قام فوجد قبرا محفورا تخرج منه رائحة المسك ، فقال : لمن هذا؟ قال له ملك عنده : هو لمن يتمنى سكناه ، فقال : أنا ، فقبض روحه ملك الموت ، ثم نزل جبريل وميكائيل – عليهما السّلام – وكفناه ، وصليا عليه ، ودفناه.
قال كعب الأحبار : توفى يعقوب وهو ابن مائتى سنة ، ولما وصل نعيه يوسف بكى ، وبكى معه إخوته. هـ.
«قلت» : ظاهره أنهم لم يحضروا موته ، وهو خلاف قوله تعالى : أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ «١» ، إلا أن يؤول بمعنى : قرب ، فتكون وصيته وقعت حين أراد الرجوع إلى الشام ، وهو خلاف الظاهر.
ثم إن يوسف تاقت نفسه إلى الملك المخلد ، فتمنى الموت ، فقال : رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ... إلخ. روى أنه عاش بعد قوله هذا مدة ، ثم ماتت زليخا ، ولم يتزوج بعدها ، وعاش بعدها أربعين يوما ، ثم اشتاق إلى اللقاء واللحوق بآبائه ، فتوفاه اللّه طيبا طاهرا ، فتخاصم أهل مصر فى مدفنه ، حتى هموا بالقتال ، فرأوا أن يجعلوه فى صندوق من مرمر – أي : رخام – فيدفنوه فى النيل بحيث يمر عليه الماء ، ثم يصل إلى مصر ليكونوا شرعا فيه.
وفى رواية : أنهم دفنوه على ضفة النيل فخصبت وجدبت الأخرى فنقلوه للأخرى فخصبت وجدبت الأولى ، فجعلوه فى صندوق ، ودفنوه فى النيل فاخضرت الجهتان ، ثم نقله موسى عليه السّلام إلى مدفن آبائه. وكان عمره :
مائة وعشرين سنة ، وقد تقدم ذكر أولاده الثلاثة : إفرائيم ، وميشا ، ورحمة امرأة أيوب ، وتقدم البحث فيها ، وذكر فى الزهر الأنيق أنه ولد له من زليخا عشرة أولاد ، فانظره. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : إذا كان العبد فى زيادة من الأعمال ، وفى الترقي إلى مقامات الكمال ، فلا بأس أن يتمنى البقاء فى هذه الدار لزيادة الزاد إلى دار القرار ، وإذا كان فى نقصان من الأعمال ، أو خاف النقصان بعد الكمال ، فلا بأس بطلب الرحيل والانتقال كما طلبه الصّدّيق عليه السّلام بعد الملك التام. وكما فعل عمر رضى اللّه عنه حين انتشرت

(١) الآية ١٣٤ من سورة البقرة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٣١

رعيته ، وخاف التقصير فى سيرته. وقد تقدم فى سورة البقرة تفصيل ذلك ، ولقد أحسن الشاعر فى التحذير ، من الاغترار بزخرف هذه الدار ، فقال :

هو الحمام فلا تبعد زيارته ولا تقل : ليتنى منه على حذر

يا ويح من غرّه دهر فسرّ به لم يخلص الصّفو إلا شيب بالكدر

انظر لمن باد تنظر آية عجبا وعبرة لأولى الأبصار والبصر

بادوا فعادوا حديثا ، إنّ ذا عجب ما أوضح الرّشد لو لا غفلة النّظر

تنافس النّاس فى الدّنيا وقد علموا أنّ المقام بها كاللّمح بالبصر

فخلّ عن زمن تخشى عواقبه إنّ الزمان إذا فكّرت ذو غير

واعمل لأخراك لا تبخل بمكرمة ومهّد العذر ليس العين كالأثر

ثم نبه الحق تعالى أن الإخبار بقصة يوسف عليه السّلام من أعلام النبوة لنبينا صلّى اللّه عليه وسلّم فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ١٠٢ الى ١٠٧]

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦)

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٠٧)

قلت : (ذلك) : مبتدأ ، و(من أنباء الغيب) : خبر. و(نوحيه) : حال.

يقول الحق جل جلاله : ذلِكَ أي : خبر يوسف وقصته ، هو مِنْ أَنْباءِ أخبار الْغَيْبِ التي لم يكن لك بها علم ، وإنما علمته بالوحى الذي نُوحِيهِ إِلَيْكَ فأخبرتهم به. وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ أي : وما حضرت عندهم ، إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ : حين عزموا أمرهم على أن يجعلوه فى غيابة الجب ، وَهُمْ يَمْكُرُونَ به ، وبأبيه ليرسله معهم. ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحدا من الأحبار

فتعلمت ذلك منه ، فتحققوا أنه وحي من عند اللّه ، ولكن جحدوا وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ على إيمانهم ، وبالغت فى إظهار الآيات لهم ، بِمُؤْمِنِينَ لعنادهم وتصميمهم على الكفر ، وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ على تبليغ هذا النبأ ، أو القرآن ، مِنْ أَجْرٍ كما يفعله حملة الأخبار من الأحبار. إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ : عظة من اللّه ، لِلْعالَمِينَ من الجن والإنس.

وَكَأَيِّنْ : كثيرا مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الدالة على وجود صانعها وتوحيده ، وكمال قدرته وتمام حكمته ، يَمُرُّونَ عَلَيْها ويشاهدونها ، وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ : لا يتفكرون فيها ، ولا يعتبرون. وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ أي : وما يصدق أكثرهم بوجود اللّه فى إقرارهم بوجوده ، وخالقيته للأشياء ، وأنه الرزاق المميت ، إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ بعبادة الأصنام ، أو باتخاذ الأحبار والرهبان أربابا ، أو بنسبة التبني إليه ، أو بالوقوف مع الأسباب ، أو غير ذلك من أنواع الشرك الجلى والخفي. قيل : نزلت فى مشركى مكة ، وكانوا يقولون فى تلبيتهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكا تملكه وما ملك. وقيل : فى أهل الكتاب.

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ : عقوبة تغشاهم وتشملهم ، مِنْ عَذابِ اللَّهِ المرسل على الأمم المتقدمة ، أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً : فجأة ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ بإتيانها ، غير مستعدين لها.

الإشارة : قوله تعالى : وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ : مثله يقال لأهل الوعظ والتذكير الداعين إلى مقام الخصوصية ، وما أكثر الناس ولو حرصت على هدايتهم ، بمهتدين إلى مقام الخصوصية لأن أهل الخصوصية أفراد قليلون فى كل زمان قال تعالى : وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ «١». وتقدم فى سورة هود «٢» ما يتعلق بقوله : وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ.

وقوله تعالى : وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ ... إلخ ، فيه ذم الغفلة ، والإعراض عن التفكر والاعتبار فإن الحق – جل جلاله – ما أظهر هذه الكائنات إلا ليعرف بها ، وتظهر فيها أسرار ذاته ، وأنوار صفاته. قال فى لطائف المدن :

فما نصبت الكائنات لتراها ، ولكن لترى فيها مولاها فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها تراها من حيث ظهوره فيها ، ولا تراها من حيث كونيتها. قال «٣» : ولنا فى هذا المعنى :

ما أثبت لك المعلم إلا لتراها بعين من لا يراها

فارق عنها رقى من ليس يرضى حالة دون أن يرى مولاها. هـ.

---

(١) من الآية ١٣ من سورة سبأ.

(٢) عند إشارة الآية ٢٩.

(٣) أي : الشيخ السكندرى صاحب لطائف المدن

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٣٣

وقوله تعالى : وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ : لا ينجو من الشرك الخفي إلا أهل التوحيد الخاص ، وهم الذين غابوا عن الأكوان جملة بشهود المكون ، قد سقط من نظرهم وجود الأغيار ، وتطهرت سرائرهم من لوث الأكدار ، ولم يبق فى مشهدهم إلا الواحد القهار ، فلم يعتمدوا على الوسائط والأسباب ، برؤية مسبب الأسباب ، ولم يركنوا إلى العشائر والأصحاب ، فإن التفتوا إلى غيره غفلة ، أدبهم ، وردهم إلى حضرته. هذا شأنهم معه أبدا. جعلنا اللّه منهم ، وخرطنا فى سلكهم. آمين.

ثم أوضح طريقهم ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : آية ١٠٨]

قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحانَ اللَّهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)

قلت : (أدعو) : حال من الياء ، و(على بصيرة) : حال ثان ، و(أنا ومن اتبعنى) : الضمير – تأكيد للمستكن فى (أدعو) ، أو فى (على بصيرة) ، أو مبتدأ خبره : (على بصيرة) ، مقدم.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : هذِهِ سَبِيلِي : طريقى الذي جئت به من عند ربى وهى الدعوة إلى التوحيد ، والتأهب ليوم المعاد. ثم فسرها بقوله : أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ ، أو حال كونى داعيا إلى اللّه أي : إلى توحيده ومعرفته والأدب معه ، عَلى بَصِيرَةٍ : حجة واضحة ، وبينة من ربى ، لا عن تقليد أو عمى. أدعو إلى اللّه أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي فمن كان على قدمى فهو يدعو أيضا إلى اللّه على بصيرة وبينة من ربه ، وَسُبْحانَ اللَّهِ :

وأنزهه عن الشركاء والأنداد ، وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ به شركا جليا ولا خفيا ، بل مخلصا موحدا.

الإشارة : لا يصلح العبد أن يكون داعيا إلى الله حتى يكون على بصيرة من ربه ، بحيث لا يبقى فيه تقليد بحت ، ولا يختلجه شك ولا وهم. والدعاة إلى الله على ثلاث مراتب : فمنهم من يدعو على بصيرة الإسلام وهم الدعاة إلى معرفة أحكام اللّه وشرائعه ، ومنهم من يدعو علي بصيرة الإيمان ، وهم الدعاة إلى معرفة صفات الله تعالى وكمالاته ، ومعرفة ما يجب له تعالى وما يستحيل وما يجوز على طريق البرهان الواضح. ومنهم من يدعو إلى الله على بصيرة الإحسان ، وهم الدعاة إلى معرفة الذات العلية على نعت الشهود والعيان ، من طريق الذوق والوجدان وهم العارفون بالله ، أهل النور المخرق ، بحيث كل من واجههم خرق النور إلى باطنه. وهذه الدعوة الحقيقية والبصيرة النافذة ، وأهل هذا المقام هم أهل التربية النبوية ، فدعوة هؤلاء أكثر نفعا ، وأنجح تأثيرا فى زمن يسير يهدى الله على أيديهم الجم الغفير.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٣٤

قال فى نوادر الأصول : الداعي إلى الله على بصيرة – أي معاينة – هو الذي قلبه عند الله ، وعلى بصيرة فى الطريق ، ومحل القلوب فى تلك المراتب ناطقا بالله ، عن الله ، فلذلك يلج آذان المستمعين ، مع الكسوة التي تخرق كل حجاب ، وهو نور الله ، لأنه خرج من قلب مشحون بالنور ، فخرق كل حجاب قد تراكم على قلوب المخلصين ، فخلصها إلى نور التوحيد فأنارها بمنزلة جمرة وصلت النفخة إليها ، فالتهبت نارا ، فأضاءت البيت. وهذا سبيل الناطق عن الله. ثم قال : وكيف يجوز الدعاء إلى الله لمن ليس عند الله ، وهو لله ، وإنما قلبه عند نفسه ولنفسه ، مشغول بنهمته وشهواته وأحواله ، وإنما هذا لمن تفرغ من نفسه ، واشتغل بالله. هـ.

ثم رد على من زعم من الكفار أن الرسول من البشر ، فقال :

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ١٠٩ الى ١١٠]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)

قلت : (يوحى) : نعت لرجال ، وكذا (من أهل القرى) : نعت ثان ، و(حتى) : غاية لمحذوف ، أي : وما أرسلنا إلا رجلا يوحى إليهم فأوذوا مثلك ، ودام عليهم ، حتى إذا استيأسوا جاءهم نصرنا.

يقول الحق جل جلاله : وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ يا محمد إِلَّا رِجالًا بشرا لا ملائكة ، وهو رد لقولهم : لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً «١» ، وقيل : معناه : نفى استنباء النساء. وصفة أولئك الرجال : يوحى إليهم «٢» كما أوحى إليك ، فتميزوا بالوحى عن غيرهم ، وهم مِنْ أَهْلِ الْقُرى . وهم المدن والأمصار ، والمداشر «٣» الكبار لأنهم أحلم وأعلم ، بخلاف أهل العمود فإنهم أهل جفاء وجهالة. قال الحسن : (لم يبعث اللّه نبيا من أهل البادية ، ولا من النساء ، ولا من الجن).

قال ابن عطية : والتبدّى مكروه إلا فى الفتن ، وحين يفرّ بالدين ، لحديث : «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها سعف الجبال ... «٤»» الحديث. وفى ذلك أذن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لسلمة بن الأكوع «٥». هـ.

---

(١) من الآية ١٤ من سورة فصلت.

(٢) قرأ حفص (نوحى) بنون العظمة.

(٣) المداشر : القرى.

(٤) أخرجه البخاري فى (كتاب الإيمان ، باب من الديين الفرار من الفتن) من حديث أبى سعيد الخدري.

(٥) أخرج البخاري فى (الفتن ، باب التعرب فى الفتنة) ، عن سلمة بن الأكوع : (أنه دخل على الحجاج ، فقال : يا ابن الأكوع ، ارتددت على عقيبك؟ قال : لا ، ولكن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أذن لى فى البدو).

(٦٣٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٣٥

قلت : والفتنة تتنوع بتنوع المقامات ففتنة أهل الظاهر : تعذر إقامة الشريعة لكثرة الهرج والفتن ، وفتنة أهل الباطن : تعذر جمع القلب باللّه لكثرة الحس ، وتعرض الشواغل والعلائق. فمن وجد ذلك فى الحواضر فلينتقل إلى البوادي ، إن وجد من يعينه على الدين. والغالب أن الحواضر فى هذا الزمان يغلب فيها العوائد والشهوات ، وتعترى فيها الشواغل والشواغب ، بخلاف البادية. فإذا كان عليه الصلاة والسلام أذن لسلمة : خوف فتنة الظاهر ، فأولى خوف فتنة الباطن لأنه إذا فسد القلب فسد الجسد كله.

ثم قال ابن عطية : وقال صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا تعرب فى الإسلام «١»». وقال : «من بدا جفا» «٢». وعن معاذ بن جبل أنه قال : (الشّيطان ذئب الإنسان ، كذئب الغنم يأخذ الشّاة القاصية فإيّاكم والشّعاب ، وعليكم بالمساجد ، والجماعات ، والعامة) «٣».

ثم قال : ويعترض هذا ببدو يعقوب ، وينفصل عن ذلك بوجهين : أحدهما : أن ذلك البدو لم يكن فى أهل العمود ، بل بتقرّ فى منازل وربوع ، والثاني : إنما جعله بدوا بالإضافة إلى مصر ، كما هى بنات الحواضر الصغار بدو بالإضافة إلى الحواضر الكبار. هـ.

قلت : فالتعرب المنهي عنه هو اعتزال الرجل وحده فى جبل أو شعب ، وأما إن تقرر فى جماعة يقيمون الدين ، ويجتمعون عليه ، فليس بتعرب ولا بدو. ويدل عليه جواب ابن عطية الأول عن يعقوب عليه السّلام. والحاصل : أن أهل القلوب يفتشون على مصالح قلوبهم ، فأينما وجدوها فهى حاضرتهم. وقد ظهر فى البوادي أكابر من الأولياء ، ربما لم يظهروا فى الحواضر. واللّه تعالى أعلم.

ثم قال تعالى : أَفَلَمْ يَسِيرُوا أي : كفار مكة ، فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من المكذبين لرسلهم : كيف هلكوا وتركوا آثارهم يشاهدونها خرابا دارسة ، فيحذروا تكذيبك ليؤمنوا ويتأهبوا للدار الآخرة وَلَدارُ الْآخِرَةِ أي : ولدار الحياة الآخرة خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا الشرك والمعاصي ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ، وتستعملون عقولكم لتعلموا أنها خير. أو : أفلا يعقلون الذين يسيرون فى الأرض ليعلموا أن

الدنيا فانية ، والدار الآخرة خير لأنها باقية.

---

(١) ورد : «لا تعرب بعد الهجرة» ، أخرجه ، مطولا ، عبد الرزاق فى المصنف ، (باب : لا رضاع بعد الفطام ، ٧/ ٤٦٤ ح ١٣٨٩٩) ، من حديث جابر بن عبد الله رضى اللّه عنه ..

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٣٧١) ، وأبو داود فى (الصيد ، باب اتباع الصيد) والترمذي فى (الفتن ، باب سكنى البادية) والنسائي فى (الصيد ، باب اتباع الصيد) من حديث ابى هريرة ، وصححه الترمذي.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٢٣٣) من حديث معاذ بن جبل.

فإن أبيتم وكذبتم نبيكم فقد كذب من قبلكم رسلهم ، وآذوهم ، وتأخر نصرهم حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ من النصر ، أو من إيمان قومهم لانهماكهم فى الكفر ، وتماديهم من غير وازع ، وَظَنُّوا أي : تيقنوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا «١» أي : أن قومهم كذبوهم فيئسوا من إيمانهم. أو : وظنوا أن من آمن بهم قد كذبوهم لطول البلاء وتأخر النصر. وأما قراءة (كذبوا) بالتخفيف فمعناه : وظنوا أنهم قد كذب عليهم فى وعد النصر .. وأنكرت عائشة – رضى اللّه عنها – هذه الرواية ، وقالت : معاذ اللّه لم تكن الرسل تظن بربها ذلك. كما فى البخاري «٢».

وقد يجاب بأن ذلك كانت خواطر وهواجس من وسواس النفس ، يمر ولا يثبت ، وهو من طبع البشر ، لا يدخل تحت التكليف. وسماه ظنا مبالغة فى طلب المراقبة ، كما تقدم فى قوله : وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها. وقال ابن جزى ، على هذه القراءة : الضميران يعودان على المرسل إليهم ، أي : ظن الأتباع أن الرسل قد كذبوا عليهم فى دعوى الرسالة ، أو فى مجيء النصر لما اشتد عليهم البلاء ، وتأخر عنهم النصر.

فلما يئسوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ نجاته ، وهو : النبي والمؤمنون. وإنما لم يعينهم للدلالة على أنهم الذين يستأهلون نجاتهم بالمشيئة القديمة ، لا يشاركهم فيها غيرهم ، وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ إذا نزل بهم. وفيه بيان المستثنين بالمشيئة ، كأنه قال : ولا نشاء نجاة المجرمين.

الإشارة : قد وجد كثير من الأولياء بالمدن والحواضر ، وكثير منهم فى القرى والمداشر. وفضل اللّه يؤتيه من يشاء ، لا يختص بمكان ولا زمان ، غير أن جلهم جمعوا بين علم المدن وتفرغ البوادي ، يعنى : جمعوا بين شريعة المدن وحقيقة البوادي لأن أهل المدن شريعتهم قوية ، وحقيقتهم ضعيفة.

والبوادي بالعكس لكثرة العلائق فى المدن وخفتها فى البوادي ، والحقيقة تحتاج إلى تفرغ كبير وتفكر كثير ، واللّه تعالى أعلم.

وقوله تعالى : وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا بالتخفيف ، معناه : أنهم لم يقفوا مع ظاهر الوعد لسعة علمهم لأن ذلك الوعد قد يكون فى علم الغيب متوقفا على شروط خفية لا يعلمها ذلك النبي أو الولي ، ليتحقق انفراده تعالى بالعلم الحقيقي ، والقهرية الغالبة. فلذلك كان العارفون لا يزول اضطرارهم ، ولا يكون مع غير اللّه قرارهم.

وقال الورتجبي : إنهم استغرقوا فى قلزوم «٣» الأزلية ، وغابوا تحت بحار الديمومية ، ولم يروا الحق من كمال استغراقهم فى الحق. فلما لم يروه ناداهم لسان غيرة قهر القدم : أين أنتم؟ غبتم عنه وعن الحقيقة ، فتطلع أنوار الحقيقة عليهم ، ويأخذ لطفها عن شبكات امتحان القهر. وهذا دأب الحق مع الأنبياء والأولياء حتى لا يسكنوا إلى ما وجدوا منه ، بل يفنوا به عن كل ماله إليهم. هـ.

---

(١) قرأ «كذبوا» بالتخفيف ، عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر ، وقرأ الباقون «كذّبوا» بالتشديد. انظر القراءة وتوجيهها فى الإتحاف (٢/ ١٥) والبحر المحيط (٥/ ٣٤٧).

(٢) (كتاب التفسير ، باب سورة يوسف). [.....]

(٣) أي : بحر.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٣٧

قال المحشى الفاسى : وحاصل ما أشار إليه : أن قراءة التخفيف تشير إلى أخذهم عن الوقوف مع الوعد ، والسكون إليه ، غيبة فى الحق عن مقتضى وعده ، لا تكذيبا لوعده ، بل ذلك أحوال غالبة آخذة عن الصفة ، غيبة فى الموصوف. وهذا حال الصوفي كما يعرف ذلك أهله. وهو صحيح فى نفسه ولكنه بعيد عن مرمى الآية فإن صاحب الغيبة لا يوصف بظن خلاف الوعد ، وإن كان غائبا عنه. وأقرب منه ما ذكره الترمذي الحكيم : من أن ظن ذلك كان لظن فقد شرط فى الموعود أوجب عدم القطع لوقوع الوعد. واللّه أعلم.

وقد قال فى الحكم : «لا يشككنك فى الوعد عدم وقوع الموعود ، وإن تعين زمنه». يعنى أنه قد يتخلف لفقد شرط كما فى قضية الجرو الذي تخلف جبريل من أجله. أو لعدم تحقيق الوقت لأن تعيينه كان من قبل أنفسهم من غير وحي ، فلما تأخر ظنوا ذلك بأنفسهم. واللّه تعالى أعلم. هـ.

والحاصل : أن الرسل – عليهم الصلاة والسلام – لما تأخر عنهم النصر هجس فى أنفسهم تخلف

الوعد خوفا أن يكون متوقفا على شرط لم يعلموه ، أو جعلوا له وقتا فهموه من أمارات ، فلما تأخر عنه ظنوا أنه قد تخلف. وأما قضية الجرو الذي أشار إليها : فكان جبريل عليه السّلام وعد نبينا صلّى اللّه عليه وسلّم أن يأتيه فى وقت مخصوص ، فدخل جرو البيت ، فلم ينزل فى ذلك الوقت ، فلما نزل بعد ذلك ، قال : «إنما تخلّفنا عن الوقت لأنّ الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب» «١». كما فى الصحيح.

ثم قال تعالى :

[سورة يوسف (١٢) : آية ١١١]

لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ أي : فى قصص الأنبياء وأممهم ، أو فى قصة يوسف وإخوته ، عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ : لذوى العقول الصافية الخالصة من شوائب الإلف والعادة ، ومن الركون إلى الحس لأن الإخبار بهم على يد نبى أمي آية واضحة لمن تفكر بقلب خالص. ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى أي : ما كان القرآن حديثا مفترى ، وَلكِنْ كان تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ من الكتب الإلهية ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ يحتاج إليه فى الدارين إذ ما من أمر دينى إلا وله مستند من القرآن بوسط ، أو بغير وسط. وَهُدىً من الضلال ، وَرَحْمَةً ينال بها خير الدارين ، لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ : يصدقون به ، ويتدبرون فى معانيه.

---

(١) أخرجه البخاري فى (كتاب اللباس/ باب : لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة).

الإشارة : تفكر الاعتبار يشد عروة الإيمان ، وفكرة الاستبصار تشد عروة الإحسان. قال فى الحكم : «الفكرة فكرتان : فكرة تصديق وإيمان ، وفكرة شهود وعيان. فالأولى : لأهل التفكر والاعتبار ، والثانية : لأهل الشهود والاستبصار». ومرجع الاعتبار إلى خمسة أمور :

الأول : التفكر فى سرعة انصرام الدنيا وانقراضها ، وذهاب أهلها. قرنا فقرنا ، وجيلا فجيلا. فيوجب ذلك الزهد فى الدنيا ، والإعراض عن زخارفها الغرارة ، والتأهب للدار الباقية.

الثاني : التفكر فى الدار الباقية ، ودوام نعيمها ، أو عذابها. وذلك مرتب على السّعى فى هذه الدار ، فيوجب ذلك انتهاز الفرصة فى الأعمال ، واغتنام الأوقات والساعات قبل الفوات.

الثالث : التفكر فى النعم التي أنعم الحق – تعالى – بها على الإنسان إما ظاهرة كالعافية فى البدن ، والرزق الحلال ، وما يتبع ذلك مما لا يحصى قال تعالى : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها «١». وإما

باطنة : كنعمة الإسلام والإيمان ، وصحيح العرفان ، والاستقامة فى الدين ، ولا سيما إن رزقه اللّه من يأخذ بيده من شيخ عارف. فهذه نعمة عظمى قلّ من يسقط عليها. فيوجب له ذلك الشكر الذي هو أعلى المقامات ، ومتكفّل بالزيادات ، قال تعالى :

لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ «٢» .. ولا يعرف العبد ما عليه من النعم إلا بالتفكر فى أضدادها ، والنظر إلى أهل البلاء.

الرابع : التفكر فى عيوبه ومساوئه ، لعله يسعى فى تطهيرها ، أو يشتغل بها عن عيوب غيره.

الخامس : التفكر فيما أظهر اللّه تعالى من أنواع المكونات ، وضروب المصنوعات فيعرف بذلك جلالة الصانع ، وعظيم قدرته ، وإحاطة علمه ، وحكمته. فإن اتصل بشيخ عارف غيّبه عنها بشهود مكونها.

وباللّه التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) من الآية ٣٤ من سورة إبراهيم ..

(٢) من الآية ٧ من سورة إبراهيم.

فهرس المجلد الثاني

تفسير سورة المائدة/ ٣ تفسير سورة الأنعام/ ٩٥ تفسير سورة الأعراف/ ١٩٥ تفسير سورة الأنفال/ ٣٠٣ تفسير سورة التوبة/ ٣٥٥ تفسير سورة يونس/ ٤٤٧ تفسير سورة هود/ ٥٠٧ تفسير سورة يوسف/ ٥٧١

[المجلد الثالث]

سورة الرّعد

مكية إلى قوله : وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، والباقي مدنى ، وقيل : مدنية كلها.

وآيها :

خمس وأربعون. ومناسبتها لما قبلها : قوله : ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى ، مع قوله تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَالَّذِي

أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ فإنه كالدليل على كونه غير مفترى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ المر ....

[سورة الرعد (١٣) : آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١)

قيل : معناه : أنا أعلم ، اللّه أعلم وأرى. وقيل : مختصرة من لفظ المرسل ، على عادة رمز المحبين. أو إشارة إلى العوالم الأربعة : فالألف لوحدة الجبروت ، واللام لتدفق أنوار الملكوت ، والميم لحس عالم الملك ، والراء لسريان أمداد الرحموت.

قال تعالى :

تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ ...

قلت : تِلْكَ : مبتدأ ، وآياتُ : خبر ، والَّذِي أُنْزِلَ : مبتدأ ، والْحَقُّ : خبر ، والجملة الثانية كالحجة على الجملة الأولى.

يقول الحق جل جلاله : أيها المرسل المعظم ، والحبيب المفخم ، تِلْكَ الآيات التي تتلوها على الناس هى آياتُ الْكِتابِ المنزل من حضرة قدسنا. وَالكتاب أي : القرآن الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هو الْحَقُّ الذي لا ريب فيه ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه.

الإشارة : لو صفت القلوب من الأكدار ، وملئت بالمعارف والأنوار لفهمت أسرار الكتاب ، وجواهر معانيه ، ولأدركت معرفة الحق من كلامه لأن الكلام صفة المتكلم ، ولكن أكثر الناس اشتغلوا بمتابعة الهوى ، فصرفوا عن فهم الكلام ، وفاتهم معرفة المتكلم ، ولذلك لم يكتف الحق تعالى بآيات الكتاب حتى ذكر دلائل توحيده وكمال قدرته ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : آية ٢]

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٦

قلت : اللَّهُ : مبتدأ ، والَّذِي رَفَعَ : خبره ، ويجوز أن يكون الموصول صفة ، والخبر : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، وعَمَدٍ :

اسم جمع عمود ، وقياس جمعه : عمد ، كرسول ورسل ، وشهاب وشهب ، وليس جمعا خلافا لأبى

عبيد. قاله ابن عطية. وقال البيضاوي : جمع عماد ، كإهاب وأهب. وجملة : تَرَوْنَها : إما حال ، أو استئنافية فالضمير للسماوات ، وإما صفة لعمد فالضمير لها ، أي : ليس لها عمد مرئية ، فيقتضى بالمفهوم أن لها عمدا لا ترى. وقيل : إن عمدها جبل قاف المحيط بالدنيا. والجمهور : أنه لا عمد لها البتة. فالمراد نفى العمد ، ونفى رؤيتها. قاله ابن جزى.

يقول الحق جل جلاله مستدلا على وجوده ، وكمال قدرته : اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ فوقكم كالسقف المرفوع بِغَيْرِ عَمَدٍ : أساطين ، بل بقدرة أزلية ، تَرَوْنَها مرفوعة فوقكم. أو بغير عمد مرئية ، بل بعمد خفية ، وهى : أسرار الذات العلية إذ لا فاعل سواه. ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ استواء استيلاء وإحاطة ، حتى صار العرش غيبا فى إحاطة قهريته وأسرار ذاته. وقد كانت العرب تجعل لملوكها سريرا يجلسون عليه لتدبير المملكة ، فخاطبنا الحق تعالى بقدر ما نفهم «١» ، ولذلك رتب عليه قوله : وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لأن هذا من تدبير ملكه ، أي : ذللهما لما أراد منهما ، كالحركة المستمرة على حد من السرعة لينتفع بهما عباده فى معاشهم ومعالم دينهم. كُلٌّ منهما يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى : لمدة معينة تتم فيها أدواره ، أو لغاية مضروبة ينقطع فيها سيرهما وهى يوم القيامة حين تكوّر الشمس والقمر. يُدَبِّرُ الْأَمْرَ أمر ملكه من الإيجاد والإعدام ، والإحياء والإماتة ، وغير ذلك ، يُفَصِّلُ الْآياتِ : ينزلها ، ويبين معانيها مفصلة ، أو يحدث الدلائل واحدا بعد واحد لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ : لكى تتفكروا فيها ، وتتحققوا كمال قدرته ، فتعلموا أنّ من قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها قادر على الإعادة والجزاء.

الإشارة : اللّه الذي رفع سموات الأرواح ، وزينها بنجوم العلم وقمر التوحيد ، وأشرق عليها شموس العرفان وأسرار التفريد ، ثم استوى بأسرار ذاته وأنوار صفاته على العرش ، وهو قلب العارف لأنه سرير المعرفة ، ومحل بيت الرب ، وسخر شمس المعرفة وقمر التوحيد ، يجريان بالترقي إلى محل التمكين ، وهو الأجل المسمى لهما ، يدبر أمر السير والترقي ، ويفصّل دلائل الطريق الموصلة إلى عين التحقيق لعلكم بالوصال إلى ربكم توقنون ، حين يكون ذوقا وكشفا. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر العالم السفلى ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٣ الى ٤]

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)

---

(١) سئل الإمام مالك ، عن الاستواء على العرش ، فقال : (الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ..) ، وإذا كان علم حقيقة الصفات فرع عن علم حقيقة الذات المقدسة ، وإذا كنا لا نحيط بالله علما ، فإننا لن نحيط بصفات الله علما ، كذلك ، فنقول : آمنا به ، كلّ عند ربنا.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٧

قلت : رَواسِيَ : جمع راسية ، من رسى الشيء : ثبت ، وجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ من خفض عطف على أَعْنابٍ ، ومن رفع عطف على جَنَّاتٌ. وصِنْوانٌ : نعت تابع ، وغَيْرُ : عطف عليه.

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ بسطها طولا وعرضا لتثبت عليها الأقدام وتتقلب عليها الحيوان والأنام ، وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ : جبالا ثوابت لتستقر وتثبت ، فلا تميد كالسفينة ، وَجعل فيها أَنْهاراً مطردة دائمة الجري ، من غير نفاد ولا فتور. ضمها إلى الجبال لأنها أسباب لتولدها فى العادة.

وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ أي : وجعل فيها صنفين اثنين من كل الثمرات فكل ثمرة فيها صنفان أحمر وأسود ، أو حلو وحامض ، قال ابن جزى : فإن قيل : تقتضى الآية أنه تعالى خلق من كل ثمرة صنفين ، وقد خلق من كثير من الثمرات أصنافا كثيرة؟ فالجواب : أن ذلك زيادة فى الاعتبار ، وأعظم فى الدلالة على القدرة بذكر الاثنين لأن دلالة غيرهما من باب أولى. هـ.

يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ ، أي : يجعل الليل غشاء على النهار ولباسا له ، فيصير الجو مظلما بعد ما كان مضيئا.

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ دلائل وجوده وباهر قدرته لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فيها فإن وجودها وتخصيصها فى هذا الشكل العجيب ، دليل على وجود صانع حكيم ، دبر أمرها ، وهيأ أسبابها.

وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ قريب بعضها من بعض ، مع اختلاف أوصافها ، بعضها طيبة وبعضها سبخة ، وبعضها رخوة وبعضها صلبة ، وبعضها يصلح للزرع دون الشجر ، وبعضها بالعكس ، وبعضها معادن مختلفة. ولو لا تخصيص قادر مخصص لتلك الأفعال ، على وجه دون وجه ، لم يكن الحكم كذلك لاشتراك تلك القطع فى الطبيعة الأرضية ، وما يلزمها ويعرض لها بتوسط ما يعرض من الأسباب السماوية ، من حيث إنها متضامة متشاركة فى السبب والأوضاع. قاله البيضاوي. وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ أي : وفى الأرض أيضا بساتين فيها أنواع من الأعناب والزروع ، والنخيل ، من صفة تلك النخيل : صِنْوانٌ أي : نخلات كثيرة متفرعة من أصل واحد ، وَغَيْرُ صِنْوانٍ أي : غير متفرعة ، بل كل نخلة منفردة بأصل واحد ، يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ. وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ أي : فى الثمر المأكول قدرا وشكلا ، وطعما ، ورائحة ولونا ،

مع اتفاق الماء الذي تسقى به. وذلك مما يدل أيضا على الصانع القادر الحكيم ، فإن إيجادها ، مع اختلاف الأصول والأسباب ، لا يكون إلا بتخصيص قادر مختار. وفيه رد على الطبائعيين. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ :

يستعملون عقولهم بالتفكر والاعتبار ، فيدركون عظمة الواحد القهار.

الإشارة : ذكر أولا سماء الأرواح ، وما يناسبها من أنوار التوحيد وأسرار التفريد ، وذكر هنا أرض النفوس ، وما يلائمها من جبال العقول وأنهار العلوم ، فقال : وهو الذي مد أرض النفوس ، وجعل فيها جبالا من العقول الشامخة ، حتى أدركت الصانع ، وتحققت بوجوده ووحدانيته ، بالدلائل الواضحة ، والبراهين القطعية. وأنبع منها أنهارا من العلوم الرسمية ، والرقائق الوعظية. وجعل فيها من كل صنف من ثمار ما جنت بمجاهدتها صنفين اثنين : قبضا وبسطا ، منعا ووجدا ، ذلا وعزا ، فقرا وغنى. يغشيانها غشاء الليل للنهار فإذا كان ليل القبض غشيه نهار البسط ، فيزيله ، وإذا كان المنع ، غشيه الوجد ، وإذا كان الذل غشيه العز ، وإذا كان الفقر غشيه الغنى ، وهكذا. ودوام حال من قضايا المحال.

وفى أرض النفوس أيضا قطع متجاورة ، مع اختلاف ألوانها وطبائعها ، وعلومها ومعارفها ، ومواجدها وألسنتها.

وفيها أيضا جنات المعارف – إن اتصلت بطبيب عارف – من أعناب الحقائق الناشئة عن خمرة الأزل ، وزرع الشرائع الناشئة عن الكسب والتحصيل ، ونخيل الأذواق والوجدان ، صنوان وغير صنوان – يعنى من تعتريه الأحوال ، ومن لا تعتريه لكمال رسوخه ، تسقى بخمرة واحدة ، وهى الخمرة الأزلية ، على أيدى الوسائط ، أو بلا وسائط ، وهو نادر. ونفضل بعضها على بعض فى الأذواق والوجدان فترى العارفين بعضهم قطب فى الأحوال ، وبعضهم قطب فى المقامات كان الجنيد رضى اللّه عنه قطبا فى العلوم ، وكذا الشاذلى والجيلاني والغزالي ، وأمثالهم. وكان الشيخ أبو زيد قطبا فى الأحوال ، وكان سهل التستري قطبا فى المقامات. والأولياء كلهم لا يخرجون عن هذا التقسيم ، كل واحد وما يغلب عليه ، مع مشاركته لغيره فى الثلاث «١». واللّه تعالى أعلم.

ولما ذكر دلائل قدرته ذكر وعيد من أعرض عنها حتى أنكر البعث ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : آية ٥]

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٥)

---

(١) هذه الإشارة ينبغى أن تتضمن توجيها : لدراسة الكون دراسة علمية والاستفادة فى ذلك فى إعمار الأرض ، وإنقاذ المسلمين من التخلف العلمي والحضارى ، ومن التبعية لحضارة الغرب المادية فانظر إلى قوله تعالى : (يتفكرون) ، (يعقلون) ومتعلقهما ، أعنى : الأرض ، والرواسي ، والأنهار ، والنبات ،

والري .. وغير ذلك ، كيف غفلنا نحن المسلمين عن التفكر ، والتعقل فى هذه الموضوعات؟ وما العلم الطبيعي إلا مبنى على هذا الأصل ، فلله الأمر من قبل ومن بعد.

(٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٩

قلت : فَعَجَبٌ : خبر ، وقَوْلُهُمْ : مبتدأ ، وأَ إِذا كُنَّا ... إلخ – محكى به. واختلف القراء هنا ، وفى مواضع من القرآن ، فمنهم من قرأ بالاستفهام فى الأول دون الثاني ، ومنهم بالعكس ، ومنهم من قرأ بالاستفهام فيهما. فمن قرأ بالاستفهام فى الأول دون الثاني فإنما القصد هو الثاني لأنهم إنما أنكروا كون الإنسان يصير ترابا ثم يبعث ، وأما كونهم يصيرون ترابا فلا إنكار عندهم فيه. ومن قرأ بالاستفهام فى الثاني فعلى الأصل ، ومن قرأ بالاستفهام فيهما فزيادة تأكيد. والعامل فى إِذا محذوف ، دل عليه : لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أي : أنجدد إذا .... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ تَعْجَبْ يا محمد من إنكارهم البعث فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أي : فقولهم حقيق بأن يتعجب منه ، فإنّ من قدر على إنشاء ما قصّ عليك من عجائب السماوات والأرض ، وأنواع الثمار على اختلاف أصنافها وألوانها ، كانت الإعادة أيسر شيء عليه ، فالآيات المعدودة كما هى دالة على وجود المبدأ ، فهى دالة على إمكان الإعادة ، لأنها دالة على كمال قدرته تعالى. ثم فسر قولهم فى الإنكار : قالوا : أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أي : أنجدّد إذا متنا ، وكنا ترابا ، أُولئِكَ القائلون ذلك ، أو المنكرون البعث ، الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ لأنهم كفروا صفة القدرة ، وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ أي : مقيدون بالضلال ، قد أحاط بهم الشقاء ، لا يرجى خلاصهم ، أو : يغلّون يوم القيامة. وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ لا ينفكون عنها. وتوسط ضمير الفصل لتخصيص الخلود بالكفار ، ففيه رد على المعتزلة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إنكار بعث الأرواح من غفلاتها وجهلها ، كإنكار بعث الأشباح بعد موتها ، يتعجب من الأول كما يتعجب من الثاني فالقدرة صالحة ، فمن قدر على بعث الأشباح بعد موتها الحسى قدر على بعث الأرواح بعد موتها المعنوي. «من استغرب أن ينقذه اللّه من شهوته ، وأن يخرجه من وجود غفلته ، فقد استعجز قدرة الإلهية وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً». وقد أحيا اللّه أرواحا كثيرة كانت ميتة بالجهل والمعاصي ، فصارت عارفة باللّه ، من خواص أولياء اللّه من كانوا لصوصا فصاروا خصوصا ، ومنهم من كانوا كفارا ، فصاروا أبرارا. وباللّه التوفيق.

ثم استمر بهم الإنكار حتى استعجلوا ممن أوعدهم بذلك العذاب ، فقال تعالى :

[سورة الرعد (١٣) : آية ٦]

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ (٦)

قلت : «المثلات» : جمع مثلة ، كسمرة ، وهى العقوبة العظيمة ، التي تجعل الإنسان مثلا لمن بعده. وفيها لغات وقراءات شاذة. وعَلى ظُلْمِهِمْ : حال ، والعامل فيه : المغفرة.

يقول الحق جل جلاله : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ أي : بالنقمة قبل العافية ، طلبوا نزول العذاب الذي أوعدهم به استهزاء ، وَقَدْ خَلَتْ : مضت مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ : عقوبات أمثالهم من

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٠

المكذبين ، أو المصيبات الدواهي ، حتى صاروا مثلا لمن بعدهم. فمالهم لم يعتبروا ، ولم يخافوا حلول مثلها عليهم؟

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ أي : مع ظلمهم أنفسهم بالكفر والمعاصي ، فسترهم وأمهلهم فى الدنيا. فالمغفرة هنا لغوية ، وقيل : يغفر لهم بالتوبة. وقيل : بلا قيد التوبة ، بل بمجرد الحلم. قال البيضاوي : وفيه جواز العفو قبل التوبة ، فإن التائب ليس على ظلمه ، ومن منع ذلك خص الظلم بالصغائر المكفرة باجتناب الكبائر. هـ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ لمن يريد تعذيبه ، أو للكفار. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «لو لا عفو اللّه وتجاوزه ما هنأ أحد العيش ، ولو لا وعيده وعقابه لاتّكل كلّ أحد» «١». قاله البيضاوي.

الإشارة : ترى بعض المستهزئين بالأولياء يؤذيهم بلسانه ، أو بغيره ، ويقول : إن كان بيده ما يفعل يفعله بي ، واللّه تعالى يقول : «من آذى لى وليّا فقد آذنته بالحرب». ولكن الحق تعالى يمهل ولا يهمل وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ.

ثم طلبوا المعجزة ، كما قال تعالى :

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٧ الى ١٠]

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ (٧) اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ (٨) عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ (٩) سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ (١٠)

.

قلت : وَسارِبٌ : عطف على جملة مَنْ هُوَ أي : ومن هو سارب ، ليكمل التقسيم أربعة : من أسر ، ومن جهر به ، ومن استخفى ، ومن سرب أي : برز. انظر ابن جزى. والْمُتَعالِ : منقوص ، يجوز فى

الوقف عليه حذف الياء وإثباتها ، وكذلك : هاد ، وواق ، وشبهه ، غير أن الراجح فى المعرّف بأل الإثبات ، وفى المنوّن : الحذف. قال ابن مالك :

وحذف يا المنقوص ذى التّنوين ما لم ينصب) أولى من ثبوت فاعلما

وغير ذى التّنوين بالعكس ، وفى نحو مر : لزوم ردّ اليا اقتفى

وأثبتها ابن كثير فى الجميع ، ووافقه يعقوب فى المعرّف بأل ، وحذفها غيره مطلقا.

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٢١٤٥) عن سعيد بن المسيب ، مرسلا ، وزاد فى الفتح السماوي (٢/ ٧٣٨) عزوه للثعلبى.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١١

يقول الحق جل جلاله : وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا من أهل مكة : لَوْ لا : هلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ أي : معجزة واضحة مِنْ رَبِّهِ كما أوتى موسى وعيسى. ولم يعتدوا بالآيات المنزلة عليه كانشقاق القمر وانقياد الشجر ، وتسليم الحجر ، وأعظمها : القرآن العظيم. وذلك عناد منهم. قال تعالى : إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ مرسل إليهم لتنذرهم كغيرك من الرسل ، وما عليك إلا الإتيان بما تصح به نبوتك من جنس المعجزات ، لا مما يقترح عليك.

وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ رسول يهديهم إلى الحق والصواب ، مخصوص بمعجزات من جنس ما هو الغالب عليهم ففى زمن موسى عليه السّلام كان الغالب عليهم السحر ، فأوتى بالعصا تنقلب حية ليبطل سحرهم ، وفى زمن عيسى عليه السّلام كان الغالب عليهم الطب ، فأوتى إبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى الذي يعجزون عن مثله ، وفى زمن نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم كان الغالب عليهم البلاغة والفصاحة ، بها كانوا يتباهون ويتناضلون ، فأوتى القرآن العظيم ، أعجز ببلاغته البلغاء والفصحاء. أو : ولكل قوم هاد ، يقدر على هدايتهم ، وهو اللّه تعالى ، أي : إنما عليك الإنذار ، واللّه هو الهادي لمن يشاء ، أو : ولكل قوم واعظ ومذكر من نبيّ أو وليّ. روى أنها لما نزلت قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «أنا المنذر ، وأنت يا عليّ الهادي» «١».

ثم أردف ذلك ما يدل على كمال علمه وقدرته ، وشمول قضائه وقدره تنبيها على أنه تعالى قادر على إنزال ما اقترحوه ، وإنما لم ينزله لعلمه بأن اقتراحهم كان عنادا لا استرشادا. أو أن وقت الإنزال لم يحضر ، فقال :

اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى هل هو ذكر أو أنثى ، أو تام أو ناقص ، أو حسن أو قبيح «٢». وهو من

الخمس التي اختص بها. وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ أي : ما تنقص فى الجثة بمرض الجنين أو إسقاطه ، وما تزداد بنمو الجنين إلى أمده أو أكثر. قال البيضاوي : مدة الحمل عندنا أربع سنين ، وخمس عند مالك ، وسنتان عند أبى حنيفة. روى أن الضحاك ولد لسنتين ، وهرم بن حيان لأربع سنين. وأعلى عدده لا حد له. «٣» – قلت : يعنى مع تحققه – وقيل : المراد نقصان دم الحيض وزيادته. هـ. وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ : بقدر محدود ، ووقت مخصوص ، لا يجاوزه ولا ينقص عنه ، فالحق – تعالى – قد خص كل حادث بوقت مخصوص معين ، وهيأ له أسبابا تسوقه إليه على ما تقتضيه حكمته.

---

(١) أخرجه الطبري فى تفسيره (١٣/ ١٠٨) عن ابن عباس. وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٠٢) والآلوسى (١٣/ ٨).

(٢) هذا النوع الذي ذكره الشيخ المفسر ، من المعرفة ، ليس هو النوع الذي اختص الله نفسه بعلمه – وهو يعلمه أيضا – فإن هذا العلم ممكن للإنسان ، بل قد علمه فعلا عن طريق الأشعة وغيرها.

والأساس فى فهم الآية قوله تعالى فى الآية «ما» وهى التي تدل على الماهية.

فقوله تعالى : اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى أي : يعلم ماهيته وحقيقته ، هل يكون شخصا مؤمنا أو كافرا ، سعيدا أو شقيا فى الدنيا والآخرة ، يعلم كنهه وهويته ومعتقده ، واتجاهاته وميوله ، وفكره وعمله ، ونيته ومصيره ، علما كليا وتفصيليا ، وهو ما يستحيل على العقل البشرى أن يعلمه ، فالله هو المختص وحده بعلم ذلك كله ، فضلا على علمه : هل هو ذكر أو أنثى .. إلخ ما يعلمه الإنسان بأدوات العلم التجريبى.

(٣) ما قاله الإمام البيضاوي عن مدة الحمل يرجع فيه إلى أهل الطب المختصين ، فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ، وقد قال أهل الاختصاص : إن الجنين إذا ظل فى الرحم أكثر من مدته ، فإن الرحم قد ينفجر. إلخ ما قالوا.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٢

عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أي : الغائب عن الحس ، والظاهر فيه الْكَبِيرُ : العظيم الشأن ، الذي يصغر كل شيء دون عظمته وكبريائه ، الْمُتَعالِ : المستعلى عن سمة الحوادث ، أو : المستعلى بقدرته على كل شيء.

سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ فى نفسه وَمَنْ جَهَرَ بِهِ لغيره ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ : طالب للخفاء مستترا بظلمة الليل ، وَمن هو سارِبٌ بِالنَّهارِ أي : بارز فيه. فقد أحاط اللّه بذلك ، علما وسمعا وبصرا.

فالآية مقررة لما قبلها من كمال علمه وشموله.

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ١١ الى ١٣]

لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ (١١) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ (١٣)

لَهُ مُعَقِّباتٌ أي : لمن أسر أو جهر ، أو استخفى أو برز ، مُعَقِّباتٌ : ملائكة تعتقب فى حفظه ، أي : يعقب بعضها بعضا ، اثنان بالليل واثنان بالنهار ، أو : لأنهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونها. أو : جماعة من الملائكة وكلّهم اللّه بحفظ الآدمي ، يعقب بعضهم بعضا ، وهو مناسب لقوله : يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ أي :

يحرسونه من الآفات التي تنزل من أمر اللّه وإرادته. أو : يحفظونه من عقوبة اللّه وغضبه. إذا أذنب ذنبا أمهلوه واستغفروا له. أو : يراقبون أحواله من أجل أمر اللّه ، إذ أمرهم اللّه بذلك ، أو يكون صفة للمعقبات ، أي : له معقبات من أجل أمر اللّه ، حيث أمرهم بحفظه. وقيل : الضمير فى لَهُ : يعود إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، المتقدم فى قوله : إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ ، فتكون نزلت فيمن أراد غدر النبي صلى اللّه عليه وسلم سرا ، على ما يأتى فى الآية الآتية. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد تقدم مرارا حال من طلب الكرامة من الأولياء ، وأنه جاهل بهم ، ولا يعرفهم مادام يلتمس الكرامة منهم. وأىّ كرامة أعظم من الاستقامة ، والمعرفة باللّه ، على نعت الشهود والعيان؟!. وقوله تعالى : وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ أي : ولكل عصر عارف باللّه ، يهدى الناس إلى حضرة اللّه ، وهم ورثة الهادي الأعظم والنبي الأفخم ، نبينا – عليه الصلاة والسّلام – أولهم سيدنا على – كرم اللّه وجهه للحديث المتقدم ، لأنه أول من أظهر علم التصوف وأفشاه ، ثم أخذه عنه الحسن البصريّ وهذبه ، ثم حبيب العجمي ، ثم داود الطائي ، ثم معروف الكرخي ، ثم سرى السقطي ، ثم إمام الطريقة : أبو القاسم الجنيد ، ثم انتشر فى الأرض ، فلكل عصر رجال يحملون لواء الحقيقة ، ويهدون الناس إلى لباب الشريعة. وهم العارفون باللّه. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «يبعث اللّه على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد لهذه الأمّة أمر دينها» «١» أي : يجدد الطريقة بعد دروسها ، ويحيى الحقيقة بعد خمود أنوارها ، ويظهر الشريعة بعد خفاء أعلامها. وقد يكون واحدا ومتعددا. وقد بعث اللّه فى رأس هذه المائة الثالثة عشر ، أربعة ، أحيا اللّه بهم الحقيقة ، وأظهر بهم أنوار الشريعة ، يمشون فى الأرض بالنصيحة ، ويهدون الناس إلى رب العالمين ، واللّه ولى المتقين ، وشهرتهم تغنى عن تعيينهم ، وتقدم اثنان فى العقود.

---

(١) أخرجه ابن داود فى (الملاحم ، باب ما يذكر فى قرن المائة) من حديث أبى هريرة ، وصححه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ١٨٤٥).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٣

وقوله تعالى : اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى : ما تحمل كل نفس من العلوم ، وما تحمل كل روح من الأسرار.

وما تغيض الأرحام ، أي : القلوب ، فقد تنقص أنوارها بمباشرة الأغيار ، وقد تزداد بالتفرغ أو صحبة العارفين الكبار.

وكل شيء عنده بمقدار ، فالفتح له وقت معلوم ، وحد محدود ، والمراتب والمقامات مقسومة محدودة فى الأزل ، كل أحد يأخذ ما قسم له. وقوله تعالى : سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ ... إلخ ، فيه تحقيق المراقبة وتشديد المحاسبة على الخواطر والقلوب. واللّه تعالى أعلم.

وإذا كان العبد على هداية من ربه أو نعمة ، فلا تزول عنه إلا من جهته ، كما قال تعالى :

إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ...

قلت : وَإِذا : ظرف ، والعامل فيه : مادل عليه الجواب ، أي : لا يرد ما قضى إذا أراد إنفاذه. وخَوْفاً وَطَمَعاً :

منصوبان على العلة بتقدير المضاف ، أي : إرادة الخوف والطمع ليتحد الفاعل. أو بتأويل : يجعلكم ترون البرق خوفا وطمعا. والثِّقالَ : نعت للسحاب ، وجمعه لأن السحاب جنس بمعنى الجمع. وجملة : وَهُمْ يُجادِلُونَ : إما استئنافية ، أو حال من الموصول. والْمِحالِ : المكر والخديعة. من محل بفلان إذا كاده وعرّضه للهلاك ، ومنه تمحّل : إذا تكلّف استعمال الحيلة ، فالميم أصلية ، ووزنه : فعال ، وقيل : مشتق من الحيلة ، فالميم زائدة ، ووزنه : مفعل ، وأصله : محيل.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ من النعم والعافية إلى النقمة والبلية حَتَّى يُغَيِّرُوا هم ما بِأَنْفُسِهِمْ من الطاعة وترك المعصية ، إلى ارتكاب الذنوب. فلا يسلب النعم عن قوم إلا بارتكاب ذنب ، ولو من البعض إذا سكت الكل. وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ أي : فلا رادّ له ولا معقب لحكمه ، وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ أي : ليس لهم من يلى أمرهم ، ويدفع عنهم السوء الذي قضاه اللّه عليهم ، وأراد نزوله بهم لأن وقوع خلاف مراد اللّه تعالى محال.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً أي : خوفا مما ينشأ عن البرق من الصواعق والأمور الهائلة ، وطمعا فى نزول الغيث الذي يكون معه غالبا ، وَيُنْشِئُ أي : يخلق السَّحابَ الغيم المسحب ، الثِّقالَ :

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٤

المثقل بالمطر الحاملة له ، وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ أي : متلبسا بحمده ، يقول : سبحان اللّه وبحمده. أو : يدل الرعد بنفسه على وحدانيته تعالى وكمال قدرته ، ملتبسا بالدلالة على كمال فضله ، ونزول رحمته. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : سئل النبي صلى اللّه عليه وسلم عن الرعد فقال : «ملك موكّل بالسّحاب ، له مخاريق من نار يسوق السّحاب» «١».

وَتسبح أيضا الْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ أي : من خوفه وإجلاله ، وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ نار تنزل من السماء وقت ضرب الرعد ، فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ فيهلكه ، وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ أي : الكفار ، حيث يكذبون رسوله فيما يصفه به من كمال العلم والقدرة ، والتفرد بالألوهية ، وبعث الناس وحشرهم للمجازاة ، وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ أي : شديد المكر بأعدائه ، الذين أرادوا أن يمكروا بنبيه – عليه الصلاة والسّلام – .

روى أن عامر بن الطّفيل وأربد بن ربيعة وفدا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قاصدين لقتله ، فأخذ عامر بالمجادلة مع سيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ليشغله ، ودار أربد من خلفه ليضربه بالسيف ، فتنبه له الرسول – عليه الصلاة والسّلام – وقال :

«اللّهمّ اكفنيهما بما شئت» ، فأرسل اللّه على أربد صاعقة فقتلته ، ورمى عامر بغدة ، فمات فى بيت امرأة سلوليّة ، فكان يقول : غدّة كغدّة البعير ، وموت فى بيت امرأة س لوليّة! فنزلت الآية من أولها «٢» ، وهو قوله : لَهُ مُعَقِّباتٌ ...

إلخ ، على قول.

الإشارة : من جريان حكمته تعالى فى خلقه أنه لا يسلب النعم عنهم إلا بسوء أدب منهم ، كلّ على قدر مقامه ، فالنعم الظاهرة يسلبها بترك الطاعة الظاهرة ، أو بالمخالفة الظاهرة ، والنعم الباطنة يسلبها بترك المراقبة الباطنة أو المشاهدة الباطنة. فلكل مقام حقوق وآداب فمن أخلّ بحقوق مقام نقص له منه ، إلا أن يتوب. وقد يسيء الأدب فتؤخر العقوبة عنه ، فيظن أنه لم يسلب. ولو لم يكن إلا ترك المزيد. وقد يبعد ، وهو لا يشعر ، ولو لم يكن إلا وتركه وما يريد. كما فى الحكم. : «إن اللّه لا يغير ما فى القلوب من أنوار الشهود والعيان ، حتى يغيروا ما بأنفسهم من حسن الأدب بسوء الأدب». وهذا ما لم يتحقق له مقام المحبوبية والتمكن مع اللّه فى المعرفة. وإلا فالرعاية والعناية محفوفة بقلبه ، فقد يبلغ الولي إلى مقام يقال له : افعل ما شئت فقد غفرت لك ، كما وقع لأهل بدر ، وراجع ما تقدم عند قوله : أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ «٣» وقد يغير اللّه قلب عبده اختبارا له ، فيسلبه حلاوة المعاملة أو المعرفة ، فإن هو اضطرب وتضرع ردّ له حاله ، وإن لم يضطرب ولم يفزع إلى اللّه لم يرد له شيئا. وإليه الإشارة بقوله : وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ ... الآية.

(١) أخرجه فى سياق طويل ، أحمد فى المسند (٢/ ٢٧٤) والترمذي في (تفسير سورة الرعد) ، وقال : حسن غريب.

(٢) أخرجه ابن جرير فى التفسير (١٣/ ١٢٦) عن ابن عباس رضى اللّه عنه فى سياق أطول من هذا. وهو ضعيف لوجود السدى والكلبي فى السند.

(٣) الآية ٨٢ من سورة الأنعام. [.....]

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٥

هو الذي يريكم برق لمعان أنوار المشاهدة ، عند الاستشراف على الحضرة القدسية ، خوفا من الرجوع لعدم إطاقة ذلك النور ، وطمعا فى الوصول إلى التمكين ، فلا يزال تترادف عليه البروق حتى يستمر ذلك كبرق متصل ، وهى أنوار المواجهة. وينشئ سحاب الواردات ثقالا بالعلوم والأسرار ، ويرسل الصواعق تصعق وجود الحس عن أسرار المعاني ، فيصيب بها من يشاء ممن سبقت له العناية. وأهل الإنكار والتكذيب بطريق الخصوص يجادلون فى اللّه بتكذيب أوليائه وإنكار هذه الأنوار ، وهو شديد المحال ، فيمكر بهم ويتركهم فى مقام البعد ، وهم لا يشعرون.

ومن جملة التغيير الذي يسلب النعم ويوجب النقم : الركون إلى غير اللّه بالدعاء وغيره ، كما قال تعالى :

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ١٤ الى ١٥]

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ (١٥)

يقول الحق جل جلاله : لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ لأنه الذي يحق أن يدعى فيجيب ، دون غيره فإنما له الدعاء الباطل لأنه يدعى فلا يسمع ولا يجيب. أو : له دعوة الحق ، وهى كلمة التوحيد «لا إله إلا اللّه» ، فمن دعا إليها فقد دعا إلى الحق. والأول أرجح لمناسبة قوله : وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ ، أي : والأصنام الذين يدعونهم من دونه لا يستجيبون لهم بشىء مما طلبوا ، أو : والمشركون الذين يدعون أصناما من دون اللّه لا يستجيبون لهم بشىء ، فحذف المفعول للدلالة عليه ، فلا يستجيبون لهم إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ إلا استجابة كاستجابة من بسط كفيه إلى الماء يشير إليه ، لِيَبْلُغَ فاهُ أي : يطلب منه أن يصعد إليه ويبلغ فاه وَما هُوَ بِبالِغِهِ أي : ليس الماء ببالغ فاه لأنه جماد لا

يشعر بدعائه ، ولا يقدر على إجابته من حيث هو ، شبّه إجابة الأصنام لمن عبدهم بإجابة الماء لمن بسط إليه كفه ، وأشار إليه بالإقبال إلى فيه ، ولا يبلغ فاه أبدا لأنه جماد لا يسمع ولا يعقل ، وكذلك الأصنام لا تسمع ولا تجيب من بسط إليها يده ليطلب منها لأنها خشب وأحجار. وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ للأصنام إِلَّا فِي ضَلالٍ وخسران وضياع.

ثم ذكر الحقيق بالعبادة والطلب ، فقال : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً يحتمل أن يكون السجود حقيقة ، فالملائكة والمؤمنون يسجدون طوعا فى الشدة والرخاء ، والكفار يسجدون كرها فى الشدة والضرورة. أو يكون مجازا وهو : انقيادهم لما أراد منهم ، شاءوا أو كرهوا. وَتسجد أيضا ظِلالُهُمْ بانقيادها للّه تعالى فى طولها وقصرها ، وميلها من جانب إلى جانب ، بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ ، أي : طرفى النهار.

وخصّ هذان الوقتان – وإن كان سجودهما دائما – لأن الضلال إنما تعظم وتكبر فيهما. وقال الواحدي : كل شخص مؤمن أو كافر ظله يسجد للّه تعالى ، ونحن لا نقف على كيفية ذلك. هـ.

(١٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٦

وقال القشيري : ذلك سجود شهادة ، لا سجود عبادة ، فإن امتنع من إقامة الشهادة قوم قالة فقد شهد كل جزء منهم من حيث البرهان والدلالة ، فكل مخلوق من عين وأثر ، حجر ومدر أو غير ذلك فمن حيث البرهان للّه ساجد ، ومن حيث البيان للواحد شاهد. هـ.

وقال أبو حيان : عن الفراء : الظل فى الأصل مصدر ، ثم أطلق على الخيال الذي يظهر للجرم طوله بسبب انخفاض الشمس ، وقصره بسبب ارتفاعها ، فهو منقاد للّه تعالى فى طوله وقصره وميله من جانب. ثم قال :

والحاصل أنها جارية على مقتضى إرادته تعالى ومشيئته ، من الامتداد والتقلص ، والفيء والزوال. هـ.

وقيل : لا يعلم تسبيح الجماد والنبات والحيوان البهيمى وسجودها إلا من كاشفه اللّه تعالى بحقيقة ذلك من نبى أو ملك أو صدّيق. وأما حمدها للّه تعالى وتسبيحها بلسان الحال فيعلمه العلماء. قاله المحشى الفاسى.

الإشارة : كل من تعلق فى نوائبه بغير اللّه ، أو ركن فى حوائجه إلى غير مولاه ، فهو كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وليس بواصل إليه ، ولا ببالغ قصده ومناه ، بل دعاؤه فى تلف وخسران ، وجزاؤه الخيبة والحرمان.

فالواجب على العبد أن يقصر حوائجه على مولاه ، وينقاد إليه بكليته فى حال الطوع والإكراه. إما أن

ينقاد إليه بالإحسان ، أو بسلاسل الامتحان. «عجب ربّك من قوم يساقون إلى الجنّة بالسّلاسل» «١».

ثم ذكر الحقيق بالدعوة ، والعبادة ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : آية ١٦]

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد للمشركين : مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : خالقهما ، ومدبر أمرهما ، قُلْ لهم : هو اللَّهُ لا خالق سواه ، ولا مدبر غيره ، أجاب عنهم بذلك ، إذ لا جواب لهم سواه لأنهم يقرون به ، ولكنهم يشركون به. فأبطل ذلك بقوله : قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ أصناما جامدة تتولونها بالمحبة والنصرة والدفع ، وهم جوامد لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا أي : لا يقدرون أن يجلبوا لأنفسهم نفعا ، ولا يدفعون عنهم ضرا ، فكيف يقدرون أن ينفعوا غيرهم ممن عبدهم ، أو يدفعون عنه ضرا؟!. وهو دليل على ضلالهم وفساد رأيهم ، فى اتخاذهم الأصنام أولياء ، رجاء أن يشفعوا لهم.

---

(١) هذا لفظ حديث صحيح أخرجه البخاري فى (كتاب الجهاب ، باب الأسارى فى السلاسل) عن أبى هريرة رضى اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٧

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أي : الكافر الجاهل ، الذي عميت بصيرته بالجهل والشرك ، والمؤمن الموحد الذي انفتحت بصيرته بالإيمان والعلم. أو المعبود الغافل عن عبادة من عبده ، والعالم بأسرار عباده. أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ الكفر والإيمان ، أو الجهل والعلم. أَمْ : بل جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ من صفتهم ، خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ، فَتَشابَهَ التبس الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ فلم يدروا ما خلق اللّه مما خلق أصنامهم ، وهذا كله داخل فى الإنكار. والمعنى : هل خلق شركاؤهم خلقا كخلق اللّه ، فالتبس الخلق عليهم ، فلم يميزوا خلق اللّه من خلق أصنامهم ، حتى ظنوا أنها تستحق أن تعبد مع اللّه ، أو يطلب منها حوائج دون اللّه؟!.

ثم أبطل ذلك بقوله : قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، قال البيضاوي : والمعنى أنهم ما اتخذوا له شركاء

خالقين مثله حتى يتشابه الخلق عليهم ، فيقولوا : هؤلاء خلقوا كما خلق اللّه ، واستحقوا العبادة كما استحقها ، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق ، فضلا عما يقدر عليه الخالق. هـ. قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا خالق غيره فيشاركه فى العبادة. جعل الخلق موجب العبادة ، ولازم استحقاقها ، ثم نفاه عما سواه ليتحقق انفراده بالربوبية والقهرية كما أفاده قوله : وَهُوَ الْواحِدُ فى الألوهية ، الْقَهَّارُ بتصريف أحكام الربوبية. هـ.

الإشارة : إذا علم العبد أن ربه قائم بأمر خلقه ، مدبر لشأن ملكه ، من عرشه إلى فرشه ، جعل حوائجه كلها وقفا عليه ، وانحاش بكليته إليه ، ورفع همته عن خلقه ، إذ ليس بيدهم ضر ولا نفع ، ولا جلب ولا دفع ، بل هم عاجزون عن إصلاح أنفسهم ، فكيف يقدرون أن ينفعوا غيرهم؟! وفى الحكم العطائية : «لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك ، فكيف يرفع إلى غيره ما كان هو له واضعا ، من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه : فكيف يستطيع أن يكون لها من غيره رافعا». وقال بعض العارفين من المكاشفين – رضى اللّه عنهم – : قيل لى فى نوم كاليقظة ، أو يقظة كالنوم : لا تبدينّ فاقة فأضاعفها عليك مكافأة لسوء أدبك ، وخروجك عن حد عبوديتك.

إنما ابتليتك بالفاقة لتفزع بها إلىّ ، وتتضرع بها لدىّ ، وتتوكل فيها علىّ. سبكتك بالفاقة لتصير ذهبا خالصا ، فلا تزيفن بعد السبك ، وسمتك بالفاقة وحكمت لنفسى بالغنى ، فإن وصلتها بي وصلتك بالغنى ، وإن وصلتها بغيري قطعت عنك مواد معونتى ، وحسمت أسبابك من أسبابى ، طردا لك عن بابى. فمن وكلته إلىّ ملك ، ومن وكلته إليه هلك. هـ.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى اللّه عنه : آيست من نفع نفسى لنفسى ، فكيف لا آيس من نفع غيرى لها ، ورجوت اللّه لغيرى فكيف لا أرجوه لنفسى؟. هـ. فالبصير من اعتمد فى أموره على مولاه ، والأعمى من ركن فى حوائجه إلى سواه. فأنوار التفويض والتسليم لا تستوى مع ظلمات الشرك والتدبير قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ. وباللّه التوفيق.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٨

ثم ضرب مثلا لنور العلم مع ظلمات الجهل ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ١٧ الى ١٨]

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى وَالَّذِينَ لَمْ

يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ (١٨)

قلت : جُفاءً : حال. والْحُسْنى : مبتدأ ، ولِلَّذِينَ : خبر مقدم. والَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا : مبتدأ ، ولَوْ أَنَّ : خبر ، أو (لِلَّذِينَ) : متعلق بيضرب ، والْحُسْنى : نعت لمصدر محذوف ، والَّذِينَ : معطوف على الَّذِينَ الأولى ، أي : يضرب الأمثال للذين استجابوا الاستجابة الحسنى وللذين لم يستجيبوا ، ثم استأنف قوله : لو أن ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ أي : السحاب ، أو ناحية السماء ، ماءً مطرا ، فَسالَتْ به أَوْدِيَةٌ : أنهار ، جمع واد ، وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة ، فاتسع واستعمل للماء الجاري فيه. بِقَدَرِها أي : بقدر صغرها وكبرها ، كل يسيل على قدره ، أو بقدر ما قسم فى قسمة اللّه تعالى ، وعلم أنه نافع غير ضار ، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً أي : رفعه على وجه الماء ، وهو ما يحمله السيل من غذاء ونحوه ، أو ما يطفوا على الماء من غليانه ، رابِياً : عاليا على وجه الماء ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ «١» من ذهب وفضة ، وحديد ورصاص ونحاس ، وغيره ، ابْتِغاءَ أي : لطلب حِلْيَةٍ كالذهب والفضة ، أَوْ مَتاعٍ كالحديد والنحاس يصنع منه ما يتمتع به من الأوانى وآلات الحرب والحرث.

والمقصود بذلك : بيان منافعها ، فكل واحد منهما له زَبَدٌ مِثْلُهُ أي : مثل زبد الماء ، وهو خبثه الذي تخرجه النار عند سبكه.

كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فمثل الحق – وهو العلم باللّه وبأحكامه – كمثل الأمطار الغزيرة ، ومثل القلوب التي سكن فيها ، وجرت حكمه على ألسنة أهلها كالأودية والأنهار والخلجان ، كلّ يحمل منه على قدره ، وسعة صدره. ومثل الباطل الذي دمغه وذهب به كالزبد وخبث الحديد والنحاس ، أو الذهب والفضة. وسيأتى فى الإشارة تكميله إن شاء اللّه. وروى مثل هذا عن ابن عباس. وإنكار ابن عطية له جمود ، وتذكّر حديث البخاري :

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وحفص (يوقدون) بالياء. على أن الضمير للناس. وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب .. انظر الإتحاف (٢/ ١٦٢).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٩

«مثل ما بعثني اللّه به من الهدى ...» الحديث «١» ، فإنه يشهد لذلك التأويل. وتقدم له بنفسه فى قوله : أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ «٢» ما يشير إلى تفسير أهل الإشارة والرموز. وراجع ما تقدم لنا فى خطبة

الكتاب يظهر لك الحق والصواب.

قال البيضاوي : مثّل الحقّ فى إفادته وثباته ، بالماء الذي ينزل من السماء ، فتسيل به الأودية على قدر الحاجة والمصلحة ، فتنفع به أنواع المنافع ، ويمكث فى الأرض ، فيثبت بعضه فى منابعه ، ويسلك بعضه فى عروق الأرض إلى العيون والآبار ، وبالفلزّ الذي ينتفع به فى صوغ الحلي ، واتخاذ الأمتعة المختلفة ، ويدوم ذلك مدة متطاولة.

والباطل ، فى قلة نفعه وسرعة ذهابه ، بزبدهما ، وبيّن ذلك بقوله : فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً ، أي : مرميا به ، من جفاه : رمى به وأبعده ، أي : يرمى به السيل والفلز المذاب. هـ. وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ كالماء ، وخالص الذهب أو الحديد ، فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ لينتفع به أهلها. كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لإيضاح المشكلات المعنوية ، بالمحسوسات المرئية.

لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ بالإيمان والطاعة ، الْحُسْنى أي : المثوبة الحسنى ، أو الجنة. وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ من الكفرة لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ من هول ذلك المطلع. أو :

يضرب الأمثال للذين استجابوا الاستجابة الحسنى ، وللذين لم يستجيبوا له. ثم بيّن مثال غير المستجيبين بقوله :

لَوْ أَنَّ لَهُمْ ... إلخ : أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ أقبحه وأشده ، وهو أن يناقش فيه ، بأن يحاسب العبد على كل ذنب ، ولا يغفر منه شيء ، وَمَأْواهُمْ : مرجعهم جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ الفراش والمستقر ، والمخصوص محذوف ، أي : هذا.

الإشارة : قد اشتملت الآية على ثلاثة أمثلة : مثال للعلم النافع ، ومثال للعمل الخالص ، وللحال الصافي. فمثّل الحقّ تعالى العلم النافع بالمطر النازل من السماء ، فإنه تحيا به الأرض ، وتجرى به الأودية والعيون والآبار ، ويحبس فى الخلجان والقدور لنفع الناس ، وتتطهر به الأرض من الخبث لأنه ترمى به السيول فيذهب جفاء ، كذلك العلم النافع تحيا به النفوس بعد الموت بالجهل والشك ، وتحيا به الأرواح بعد موتها بالغفلة والحجاب ، وتمتلئ به القلوب على قدر وسعها وسعتها ، وعلى قدر ما قسم لهم من علم اليقين ، أو عين اليقين ، أو حق اليقين ، وتتطهر به النفوس من البدع وسائر المعاصي.

---

(١) لفظ الحديث كاملا : «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير ، أصابت أرضا ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب ، أمسكت الماء فنفع الله الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ، ونفعه الله به ، فعلم وعلّم. ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» أخرجه البخاري فى (العلم ، باب فى من علم وعلّم)

ومسلم فى (الفضائل ، باب بيان ما بعث النبي به من الهدى والعلم) من حديث أبى موسى رضى اللّه عنه.

(٢) من الآية ٤٠ من سورة يوسف.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٠

ومثّل العمل الخالص الذي تصفّى من الرياء والعجب وسائر العلل ، بالحديد المصفى من خبثه لتصنع منه السيوف والآلات ، أو النحاس المصفى لتصنع منه الأوانى ، وغيرها مما ينفع به الناس.

ومثّل الحال الصافي من العلل بالذهب المصفى ، أو الفضة ، إذا صفيت وذهب خبثها ليصنع بهما الحلي والحلل ليتزين بها أهلها ، فأشار إلى المثال الأول – وهو العلم – بقوله : أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً إلخ. وأشار الى الحال بقوله : وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ ، وأشار إلى العمل بقوله : أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ. وقدّم الحال ، لشرفه ، ومثّله بالذهب والفضة لزيادة الرغبة فيه لأنه ثمرة العمل ، ومرجعه إلى الوجدان والأذواق ، وهو عزيز لا يجده إلا المقربون.

والحاصل : أن المراتب أربعة : العلم ، والعمل ، والحال ، والمقام. وإنما لم يضرب الحق تعالى مثلا للمقام لأن النزول فيه لا يكون إلا بعد التصفية ، فليس فيه علة ، يحتاج إلى التصفية منها. فمقامات اليقين كلها يجرى فيها العلم ، والعمل ، والحال ، والمقام. فالتوبة مثلا : يتعلق العلم بمعرفة حقيقتها ، وفضليتها ، ثم يسعى فى العمل بالمجاهدة والرياضة حتى يذهب زبده وخبثه ، حتى يذوق حلاوة الاستقامة مع بقية الخوف من السقوط ، وهذا هو الحال ، ثم تطمئن النفس ، وترسخ التوبة النصوح ، وهذا هو المقام. وكذلك الصبر ، يتعلق به العلم أولا ثم يسعى فى مرارة استعماله حتى يذوق حلاوة الشدة والفاقة ثم يرسخ فيه ، وهكذا يجرى فى المقامات كلها .. وهى اثنا عشر مقاما :

التوبة ، والخوف ، والرجاء والورع ، والزهد ، والصبر ، والشكر ، والرضى ، والتسليم ، والمحبة ، والمراقبة ، والمشاهدة.

وهى : بروج شمس المعرفة ، وقمر التوحيد. وكذلك معرفة الشهود والعيان : يتعلق العلم أولا بأسرار التوحيد ، ثم يعمل فى خرق عوائد نفسه حتى تموت ، فيشرق عليها أنوار التوحيد ، غير أنها تظهر وتخفى ، ثم يصير الشهود مقاما ، رسوخا وتمكينا.

وقد أشار فى الحكم إلى بعض هذا فقال : «حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال ، وحسن الأحوال من التحقق بمقامات الإنزال». وكل واحد من الثلاثة يحتاج إلى تصفية حتى يذهب زبده وخبثه فتصفية العلم بالإخلاص والتحقيق ، فيذهب عنه قصد الرئاسة والجاه ، أو التوصل إلى الدنيا ، ويذهب به

الشكوك والأوهام فهذا زبده.

وتصفية العمل بالإخلاص فى أوله ، والإتقان والحضور فى وسطه ، والكتمان فى آخره ، فيذهب عنه الرياء والعجب به ، والتوصل به إلى حظ نفسانى. وتصفية الحال بصحة القصد وإفراد الوجهة ، وإذا هاج عليه الوارد ملك نفسه وأمسكها ، فيذهب به قصد الظهور ، وطلب المراتب الدنيوية والكرامات الحسية ، التي هى من حظ النفس وتشتيت القلب ، إن لم يفرد وجهته للّه ، وانحلال عزمه وخمود نوره ، إن لم يمسك نفسه عند هواجم الحال. فهذا زبد الحال الذي يذهب عنه بمجاهدة النفس ، ويمكث فى أرض القلوب صفاء اليقين والمعرفة وخالص العمل فى مقام العبودية. وباللّه التوفيق.

(٣/٢٠)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢١

ثم ذكر حال من عرف هذا العلم النازل ، وحال من أنكره ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ١٩ الى ٢٤]

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ (٢٣)

سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)

قلت : أُولئِكَ .. إلخ : جملة خبر الموصولات ، إن رفعت بالابتداء ، وإن جعلت صفات لأولى الألباب : فاستئناف بذكر ما استوجبوا بتلك الصفات. وجَنَّاتُ : بدل من عُقْبَى الدَّارِ. ومَنْ صَلَحَ : عطف على الواو بفصل المفعول ، وسَلامٌ عَلَيْكُمْ : محكى بحال محذوفة ، أي : قائلين سلام عليكم ، وحذف الحال – إذا كان قولا – كثير مطرد.

يقول الحق جل جلاله : أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هو الْحَقُّ فيستجيب له ، وينقاد له كَمَنْ هُوَ أَعْمى عمى القلب ، لا يستجيب ولا يستبصر؟ أنكر الحق – جل جلاله – على من اشتبه عليه الحق من الباطل ، بعد ما ضرب المثل ، فإن الأمور المعنوية ، إذا ضرب لها الأمثال المحسوسة ، صارت فى غاية الوضوح لا تخفى إلّا على الخفافشة ، الذين انطمس نور قلوبهم بالكفر أو المعاصي. ولذلك قال : إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ ذوو العقول الصافية والقلوب المنورة ، التي تطهرت من كدر العوائد والشهوات ، ولم تركن إلى المألوفات والمحسوسات.

ثم وصفهم بقوله : الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ما عقدوه على نفوسهم من معرفة عظمة الربوبية والقيام بوظائف العبودية ، حين قالوا : بَلى «١». وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ ما أوثقوه على نفوسهم ، وتحملوه من المواثيق التي بينهم وبين اللّه ، وبينهم وبين عباد اللّه. وهو تعميم بعد تخصيص تأكيدا على الوفاء بالعهود.

وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ من الرحم ، وموالاة المؤمنين ، وحضور مجالس الصالحين ، والعلماء العاملين ، والاقتداء بقولهم والاهتداء بهديهم. وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ : غضبه وعذابه ، أو إبعاده وطرده ، وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ : مناقشته ، فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

---

(١) فى قوله تعالى : (وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ..) الآية ١٧٢ من سورة الأعراف.

وَالَّذِينَ صَبَرُوا على مشاق الطاعة وترك المخالفة ، أو على ما تكرهه النفوس ، ويخالفه الهوى. فعلوا ذلك ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ طلبا لرضاه ، أو لرؤية وجهه وشهود ذاته ، لا فخرا ورياء ، وطلبا لحظ نفسانى. وَأَقامُوا الصَّلاةَ المفروضة ، بحيث حافظوا على شروطها وأركانها ، وحضور السر فيها ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ من الأموال فرضا ونفلا ، سِرًّا وَعَلانِيَةً إن تحقق الإخلاص ، وإلا تعيّن الإسرار. أو سرا لمن لا يعرف بالمال ، وجهرا لمن يعرف به لئلا يتهم ، أو ليقتدى به. وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أي : يدفعون الخصلة السيئة بالخصلة الحسنة ، فيجازون الإساءة بالإحسان امتثالا لقوله تعالى : ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ «١» ، أو :

يدفعون الشرك بقول : «لا إله إلا اللّه» ، أو يفعلون الحسنات فيدرءون بها السيئات ، كقوله : إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ «٢». قيل : نزلت فى الأنصار. وهى عامة.

ثم ذكر جزاءهم ، فقال : أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ أي : عاقبة دار الدنيا وما يؤول إليه أهلها. وهى : الجنة التي فسّرها بقوله : جَنَّاتُ عَدْنٍ أي : إقامة ، يَدْخُلُونَها مخلدين فيها. والعدن : الإقامة ، وقيل : هى بطنان الجنة ، أي : مداخلها لا ربضها ، فيدخلونها وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ أي : يلحق بهم من صلح من أهلهم ، وإن لم يبلغ فى العمل مبلغهم ، تبعا لهم وتعظيما لشأنهم ، أو بشفاعتهم لهم. وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة ، وأن الموصوفين بتلك الصفات يقرب بعضهم من بعض – لما بينهم من القرابة والوصلة – فى دخول الجنة زيادة فى أنسهم ، لكن يقع التفاوت فى الدرجات والنعيم والقرب ، على قدر اجتهادهم فى التحقق بتلك الصفات ، والدءوب

عليها. والتقييد بالصلاح يدل على أن مجرد الانتساب لا ينفع من غير عمل.

وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ من أبواب المنازل ، أو من أبواب الفتوح والتحف ، قائلين : سَلامٌ عَلَيْكُمْ بشارة بدوام السلامة ، هذا بِما صَبَرْتُمْ ، أو سلامة لكم بسبب صبركم. فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ التي سكنوها ورحلوا عنها دارهم هذه.

الإشارة : أفمن تصفّت مرآة قلبه من الأكدار والأغيار ، حتى أبصرت أمطار العلوم والأسرار النازلة من سماء الملكوت على النبي المختار ، فتضلع منها حتى امتلأ منها قلبه وسره ، ونبع بأنهار العلوم لسانه وفكره ، كمن هو أعمى القلب والبصيرة ، فلم يرفع بذلك رأسا؟ إنما ينتفع بتلك العلوم أولوا القلوب الصافية التي ذهب خبثها ، فصفت علومها وأعمالها وأحوالها من زبد المساوئ والعيوب ، الذين دخلوا تحت تربية المشايخ ، فأوفوا بعهودهم ، وواصلوهم ،

---

(١) من الآية ٩٦ من سورة المؤمنون.

(٢) من الآية ١١٤ من سورة هود.

وخافوا ربهم أن يبعدهم من حضرته ، أو يناقشهم الحساب فحاسبوا أنفسهم على الأنفاس والأوقات ، وصبروا على دوام المجاهدات ، حتى أفضوا إلى فضاء المشاهدات ، وأقاموا صلاة القلوب – وهى العكوف فى حضرة الغيوب – وأنفقوا مما رزقهم من سعة العلوم ومخازن الفهوم ، ويقابلون الإساءة بالإحسان لأنهم أهل مقام الإحسان. أولئك لهم عقبى الدار وهى العكوف فى حضرة الكريم الغفار ، تدخل على أبواب قلوبهم المواهب والأسرار ، تقول بلسان الحال : سلام عليكم بما صبرتم فى مجاهدتكم ، فنعم عقبى الدار.

ثم شفع بضدهم ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٢٥ الى ٢٦]

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ مَتاعٌ (٢٦)

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ... الذي أخذه عليهم فى عالم الذر ، حيث قال : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى «١» ، ثم كفروا به بعد بعث الرسل المنبهين عليه. أو ينقضون العهود فيما بينهم

وبين عباد اللّه ، إن أعطوا ذلك من أنفسهم ، وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ من الأرحام ، أو ممن يدل على اللّه من الأنبياء ، والعلماء الأتقياء فإنّ اللّه أمر بوصلهم ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بالظلم والمعاصي ، وتهييج الفتن ، أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ : البعد والطرد من رحمة اللّه ، وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ : سوء عاقبة الدار ، وهو العذاب والهوان ، حيث اغتروا فى الدنيا بسعة الأرزاق ، وظنوا أن ذلك من علامة إقبال الحق.

ولم يدروا أن اللّه يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ ، ولو كان من أهل الشقاء ، وَيَقْدِرُ يضيقه على من يشاء ، ولو كان من أهل السعادة والعناية ، وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا واطمأنوا بها ، وقنعوا بنعيمها الفاني ، وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فى جنب الآخرة إِلَّا مَتاعٌ إلا متعة لا تدوم ، كعجالة الراكب وزاد الراعي. وفى الحديث عنه صلى اللّه عليه وسلم :

«ما لى وللدّنيا ، إنّما مثلى ومثل الدّنيا كراكب سافر فى يوم صائف ، فاستظلّ تحت شجرة ، ثم راح عنها وتركها» «٢». والمعنى : أنهم أشروا بما نالوا من الدنيا ، ولم يصرفوها فيما يستوجبون به نعيم الآخرة ، واغتروا بما هو فى جنبه نزر قليل النفع ، سريع الزوال. قاله البيضاوي.

---

(١) من الآية ١٧٢ من سورة الأعراف.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (١/ ٣٠١) والحاكم (٤/ ٣٠٩) وصححه ووافقه الذهبي من حديث ابن عباس رضى اللّه عنه ، قال : دخل عمر على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو على حصير ، قد أثر فى جنبه ، فقال : يا نبى الله لو اتخذت فراشا أوثر من هذا؟ فقال : مالى وللدنيا ..» الحديث.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٤

الإشارة : لا شيء أفسد على المريد من نقض عهود المشايخ ، والرجوع عن صحبتهم فإنه لمّا دخل فى حماهم انقبض عنه الشيطانو الدنيا والهوى ، وأسفوا عليه ، فإذا رجع إليهم ، واتصلوا به ، فعلوا به مالم يفعلوا بغيره كمن هرب من عدوه ثم اتصل به. وتنسحب عليه الآية من قوله : وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ إلى قوله : أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ أي : البعد عن الحضرة ، (و لهم سوء الدار) وهو : غم الحجاب والبقاء من وراء الباب. فإذا رجعت إليه الدنيا يقال له : (اللّه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) فلا تغتر ولا تفرح بالعرض الفاني ، فما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع قليل ، ثم التحسر الوبيل.

ثم أجاب عمن طلب المعجزة ليؤمن ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : آية ٢٧]

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ (٢٧)

يقول الحق جل جلاله : وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا من أهل مكة : لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ ظاهرة مِنْ رَبِّهِ كما أنزلت على من قبله فنؤمن حينئذ؟ قُلْ لهم : إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ بعد ظهور الآيات والمعجزات. وليس الإيمان والهداية بيد العبد فى الحقيقة. وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ أي : من أقبل ورجع عن عناده من غير احتياج إلى معجزة. قال البيضاوي : وهو جواب ، يجرى مجرى التعجب من قولهم ، كأنه قال : قل لهم ما أعظم عنادكم! إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ممن كان على صفتكم ، فلا سبيل إلى اهتدائه ، وإن نزلت كل آية ، ويهدى إليه من أناب لما جئت به ، بل بأدنى منه من الآيات. هـ.

الإشارة : تقدم مرارا أن من سبقت له من اللّه عناية الخصوصية ، لم يتوقف على ظهور آية. ومن لم يسبق له شىء فى الخصوصية لا ينفع فيه ألف آية. فاللّه تعالى يضل من يشاء عن دخول حضرته ، ولو رأى من أولياء زمانه ما رأى ، ويهدى إلى حضرته من أناب ، ورجع بلا سبب. وباللّه التوفيق.

ثم وصف أهل الإنابة ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٢٨ الى ٢٩]

الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩)

قلت : الموصول : بدل ممن أناب ، أو خبر عن مضمر ، أي : هم. والموصول الثاني بدل ثان ، أو مبتدأ ، وجملة طُوبى : خبر ، وهى فعلى ، من الطيب ، كبشرى من البشارة ، قلبت ياؤها واوا لضم ما قبلها ، ومعناها : أصبت خيرا وطيبا. وقيل : شجرة فى الجنة. وسوغ الابتداء بها : ما فيها من معنى الدعاء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٥

يقول الحق جل جلاله ، فى وصف من سبقت له الهداية واتصف بالإنابة : هم الَّذِينَ آمَنُوا باللّه وبرسوله إيمانا تمكّن من قلوبهم ، واطمأنت إليه نفوسهم فإذا حركتهم الخواطر والهواجم ، أو فتن الزمان وأهواله تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، وترتاح بذكر اللّه أنسا به ، واعتمادا عليه ورجاء منه ، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته ، أو بذكر آلائه ودلائله الدالة على وجوده ووحدانيته ، أو بكلامه القرآن ، الذي هو أقوى المعجزات. قاله البيضاوي. وقال فى القوت : معنى تطمئن بذكر اللّه : تهش وتستأنس به. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى بعد كلام : والحاصل أن المراد من الطمأنينة : السكون إلى

المذكور ، والأنس به ، ووجود الرّوح والفرح والانشراح ، والغنى به. هـ.
قال تعالى : أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ لا بغيره ، فلا تسكن إلا إليه ، ولا تعتمد إلا عليه فإن سكنت إلى غيره ذهب نورها ، وعظم قلقها. الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ أي : لهم عيش طيب وحياة طيبة. أو الجنة ، أو شجرة فيها ، وَحُسْنُ مَآبٍ أي : مرجع يرجعون إليه بعد الموت.
الإشارة : الطمأنينة على قسمين : طمأنينة إيمان ، وطمأنينة شهود وعيان. قوم اطمأنوا إلى غائب موجود ، وقوم إلى آخر مشهود. قوم اطمأنوا بوجود اللّه من طريق الإيمان على نعت الدليل والبرهان ، وقوم اطمأنوا بشهود اللّه من طريق العيان على نعت الذوق والوجدان. وهذه ثمرة الإكثار من ذكر اللّه.
قال الشيخ الشاذلى رضي اللّه عنه : حقيقة الذكر : ما اطمأن بمعناه القلب ، وتجلى فى حقائق سحاب أنوار سمائه الرب. هـ. وقال الورتجبي : إن كان الإيمان من حيث الاعتقاد ، فطمأنينة القلب بالذكر ، وإن كان من حيث المشاهدة فطمأنينة القلوب باللّه وكشف وجوده. هـ. فطمأنينة الإيمان لأهل التفكر والاعتبار من عامة أهل اليمين.
وطمأنينة العيان لأهل الشهود والاستبصار من خاصة المقربين. أهل الأولى يستدلون بالأشياء على اللّه ، وأهل الثانية يستدلون باللّه على الأشياء فلا يرون إلا مظهر الأشياء. وشتان بين من يستدل به أو يستدل عليه المستدل به عرف الحق لأهله ، وأثبت الأمر من وجود أصله ، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه. وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه! ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التي توصل إليه؟!. كما فى الحكم.
وقال فى المناجاة : «إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك؟!. أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، حتى يكون هو المظهر لك؟! متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التي توصل إليك؟!».

(٢٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٦
وقال الشيخ أبو الحسن رضي اللّه عنه : «كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف؟! أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده كلّ شى ء؟ أي : وظهر بكل شى ء». وفى ذلك يقول الشاعر :
عجبت لمن يبغى عليك شهادة وأنت الّذى أشهدته كلّ شاهد
وقال آخر :
لقد ظهرت فما تخفى على أحد إلّا على أكمه لا يبصر القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجبا وكيف يبصر من بالعزّة استترا

وأهل طمأنينة الإيمان على قسمين باعتبار القرب والبعد : فمنهم من يطمئن بوجود الحق على نعت القرب والأنس ، وهم أهل المراقبة من الزهاد والصالحين ، والعلماء العابدين المجتهدين ، وهم متفاوتون فى القرب على قدر تفرغهم من الشواغل والعلائق ، وعلى قدر التخلية والتحلية. ومنهم من يطمئن إليه على نعت البعد من قلبه ، وهم أهل الشواغل والشواغب ، والعلائق والعوائق. وعلامة القرب : وجود حلاوة المعاملة ، كلذيذ المناجاة ، والأنس به فى الخلوات ، ووجود حلاوة القرآن والتدبر فى معانيه ، حتى لا يشبع منه فى كل أوان. وعلامة البعد : فقد الحلاوة المذكورة ، وعدم الأنس به فى الخلوة ، وفقد حلاوة القرآن ، ولو كان من أعظم علماء اللسان.

وأهل طمأنينة الشهود على قسمين أيضا : فمنهم من تشرق عليه الأنوار ، وتحيط به الأسرار ، فيغرق فى الأنوار وتطمس عنه الآثار ، فيسكر ويغيب عن الأثر فى شهود المؤثر ، ويسمى عندهم هذا المقام : مقام الفناء. ومنهم من يصحو من سكرته ، ويفيق من صعقته ، فيشهد المؤثر ، لا يحجبه جمعه عن فرقه ، ولا فرقه عن جمعه ، ولا يضره فناؤه عن بقائه ، ولا بقاؤه عن فنائه ، يعطى كل ذى حق حقه ، ويوفى كل ذى قسط قسطه ، وهو مقام البقاء ، ولا يصح وجوده إلّا بعد وجود ما قبله ، فلا بقاء إلا بعد الفناء ، ولا صحو إلا بعد السكر. ومن ترامى على هذا المقام – أعنى مقام البقاء – من غير تحقيق مقام السكر والفناء فهو لم يبرح عن مقام أهل الحجاب.

واعلم أن طمأنينة الإيمان تزيد وتنقص ، وطمأنينة العيان ، إن حصلت ، تزيد ولا تنقص. فمواد أسباب زيادة طمأنينة الإيمان أشياء متعددة ، فمنهم من تزيد طمأنينته بالتفكر والاعتبار ، إمّا فى عجائب المصنوعات وضروب المخلوقات ، فيطمئن إلى صانع عظيم القدرة باهر الحكمة. وإما بالنظر فى معجزات الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، وباهر علمه ، وعجائب حكمه وأسراره ، وإخباره بالأمور الغيبية السابقة والآتية ، مع كونه نبيا أميا. فإذا تحقق بمعرفة الرسول فقد

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٧

تحقق بمعرفة اللّه ، واطمأن به لأنه الواسطة العظمى ، بين اللّه وبين عباده. ومنهم من تزيد طمأنينته بموالاة الطاعات وتكثير القربات ، كالذكر وغيره. ومنهم من تزيد طمأنينته بزيارة الأولياء أحياء أو ميتين. ومادة الأحياء أكثر ، ونور طمأنينتهم أبهر ، لا سيما العارفين ، وفى الأثر : تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين.

وأما طمأنينة أهل الشهود : فزيادتها باعتبار زيادة الكشف وحلاوة الشهود ، والترقي فى العلوم والأسرار ، والاتساع فى المقامات إلى ما لا نهاية له ، فى هذه الدار الفانية وفى الدار الباقية ، ففى كل نفس

يجدد لهم كشوفات وترقيات ومواهب وتحف ، على قدر توجههم وتحققهم. حققنا اللّه بمقامهم ، وأتحفنا بما أتحفهم. آمين.

ولا بد فى تحصيل طمأنينة الشهود من صحبة شيخ عارف طبيب ماهر ، يقدح عين البصيرة حتى تنفتح فما حجب الناس عن شهود الحق إلا طمس البصيرة ، فإذا اتصل بشيخ عارف كحل عين بصيرته أولا بإثمد علم اليقين ، فيدرك شعاع نور الحق قريبا منه ، ثم يكحل عينه ثانيا بإثمد عين اليقين ، فيدرك عدمه لوجود الحق ، أي :

يغيب عن حسه بشهود معناه القائم به. ثم يكحل عينه بإثمد حق اليقين فيدرك وجود الحق – بلا واسطة قدرة وحكمة ، معنى وحسا ، لا يتحجب بأحدهما عن الآخر. وإلى هذا أشار فى الحكم بقوله : «شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق ، لا عدمك ولا وجودك. كان اللّه ولا شيء معه ، وهو الآن على ما كان عليه».

وأهل طمأنينة الشهود هم خاصة ورثة الرسول – عليه الصلاة والسلام – الذي أشار إليه بقوله :

[سورة الرعد (١٣) : آية ٣٠]

كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتابِ (٣٠)

قلت : كَذلِكَ : مفعول مطلق بأرسلناك ، أي : مثل ذلك الإرسال المتقدم أرسلناك. وقال ابن جزى : الكاف تتعلق بالمعنى الذي فى قوله : يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ. هـ. أي : كما أن الإضلال والهداية بيده كذلك اختصاصك بالرسالة إلى أمة ... إلخ ، وجملة : وَهُمْ يَكْفُرُونَ : حال من ضمير عَلَيْهِمُ أي : لتتلو عليهم فى حال كفرهم لعلهم يؤمنون. ومَتابِ : مفعل ، من التوبة.

يقول الحق جل جلاله : قد أرسلنا قبلك رسلا فأنذروا وبشروا قومهم ، كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ أي : مثل ذلك الإرسال أرسلناك فى أمة ، أو كما هدينا من أناب إلينا اختصصناك برسالتنا ، فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مضت مِنْ قَبْلِها أي : تقدمها أُمَمٌ أرسل إليهم رسلهم فليس ببدع إرسالك إلى هذه الأمة الأمية ، لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ : لتقرأ عليهم الكتاب ، الذي أوحينا إليك ، والحالة أنهم يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ أي : بالبليغ

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٨

الرحمة الذي أحاطت بهم نعمته ، ووسعت كل شيء رحمته ، فلم يشكروا ما أنعم به عليهم ، وخصوصا إرسالك إليهم ، وإنزال القرآن عليهم ، الذي هو مناط المنافع الدينية والدنيوية. قيل : نزلت فى أبى

جهل ، وقيل : فى قريش حين قالوا : لا نعرف الرحمن ، والمعنى : أرسلناك إليهم رحمة لتتلو عليهم ما هو مناط الرحمة ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ – ، والحال : أنهم يكفرون ببليغ الرحمة. قُلْ هُوَ رَبِّي أي : الرحمن خالقى ومتولى أمرى ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لا مستحق للعبادة غيره ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ فى أمورى ، ومن جملتها نصرى عليكم. وَإِلَيْهِ مَتابِ مرجعى فى أمورى كلها ، لا أرجع إلى أحد غيره ، ولا أتعلق بشىء سواه.

الإشارة : قد بعث اللّه فى كل عصر عارفا باللّه يحيى به الدين ، ويعرف الطريق إلى رب العالمين فالأرض لا تخلو ممن يقوم بالحجة ، غير أنهم تارة يخفون لفساد الزمان ، وتارة يظهرون رحمة للأنام. فإذا وقع الإنكار عليهم ، أو استغرب وجودهم ، يقال لهم : كذلك أرسلنا فى كل أمة نذيرا ، وداعيا ، فإرسالكم أنتم وإظهاركم ليس ببدع ، لتعلموا الناس ما أوحى إليكم من طريق الإلهام فإظهاركم رحمة ، وهم يكفرون هذه النعمة. فاعتمدوا على الرحمن ، وثقوا بالواحد المنان ، وارجعوا إليه فى كل حال وشأن. فمن توكل عليه كفاه ، ومن التجأ إليه حماه.

ثم رجع إلى تتميم الجواب عن قول الكفار : (لو لا أنزل عليه آية من ربه) ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : آية ٣١]

وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (٣١)

قلت : جواب لَوْ : محذوف ، أي : لم يؤمنوا لسابق الشقاء ، أو : لكان هذا القرآن ، وسيأتى بيانه.

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً أنزل عليك ، من صفته : سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أي : زعزعت عن مقارها ، أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ : تصدعت وتشققت من خشية اللّه عند قراءته ، أو : تشققت فجعلت أنهارا وعيونا ، أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى فتجيب من قبورها جهرا ، لما آمنوا لعنادهم وغلبة الحسد عليهم. فهذا كقوله تعالى : وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا «١» ،

---

(١) من الآية ١١١ من سورة الأنعام.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٩

أو : ولو أن قرآنا بهذه الصفة : من تسيير الجبال ، وتقطيع الأرض ، وتكليم الموتى ، لكان هذا القرآن

لأنه الغاية فى الإعجاز ، والنهاية فى التذكير والإنذار ، والأول أرجح لمناسبة ما قبله وما بعده.

روى أن قريشا قالوا : يا محمد ، إن سرّك أن نتبعك فسيّر بقرآنك الجبال عن مكة ، حتى تتسع لنا فنتخذها بساتين وقطائع. أو سخر لنا به الريح لنركبها ، فنتّجر بها إلى الشام. أو ابعث لنا قصىّ بن كلاب فإنه كان شيخ صدق ، أو غيره من آبائنا ، فيكلمونا فيك ، ويشهدوا لك بما تقول. فنزلت الآية.

بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً ليس لى منه شىء ، فهو القادر على الإتيان بما اقترحتموه من الآيات ، إلا أن الإرادة لم تتعلق بذلك لأنه علم أنه لا ينجع فيكم شىء من ذلك لفرط عنادكم ، فإذا رأيتموها قلتم : إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ «١». وبيّن ذلك قوله : أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا من إيمانهم مع ما رأوا من أحوالهم ، وفرط عنادهم ، علما منهم أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ، أو : أَفَلَمْ يَيْأَسِ أي :

يعلم الَّذِينَ آمَنُوا أن الهداية بيد اللّه ، ومشيئته ، فلو شاء لهدى الناس جميعا. وكون «يَيْأَسِ» بمعنى «علم» : لغة هوازن فقد علموا بما أعلمهم أن اللّه لا يهدى من يضل. وقد قرأ على وابن عباس وجماعة : «أفلم يتبين الذين آمنوا» وهو يقوى تفسير ييأس بيعلم.

قال البيضاوي : وإنما استعمل اليأس بمعنى العلم ، لأنه مسبّب عن العلم ، فإن الميئوس منه لا يكون إلا معلوما.

ولذلك علّقه بقوله : أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً فإن معناه نفى هدى بعض الناس لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم ، وهو – على الأول – يتعلق بمحذوف تقديره : أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمانهم علما منهم أن لو يشاء اللّه لهدى الناس جميعا. أو : بآمنوا ، على حذف الجار ، أي : بأن اللّه ... إلخ. هـ.

وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا من قريش والعرب ، تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا من الكفر والمعاصي ، قارِعَةٌ : داهية تقرعهم تقلقهم ، وتصيبهم فى أنفسهم وأولادهم وأموالهم. أو غزوات المسلمين إليهم ، إمّا أن تنزل بهم أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ فيفزعون منها وتتطاير إليهم شررها. وقيل : نزلت فى كفار مكة ، فإنهم لا يزالون مصابين بما صنعوا برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، كان لا يزال يبعث السرايا ، فتغير حواليهم وتختطف أموالهم. وعلى هذا يجوز أن يكون ضمير تَحُلُّ خطابا للرسول صلى اللّه عليه وسلم أي : تحل بجيشك قريبا من دارهم ، حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ بالموت أو بالبعث أو فتح مكة. إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ لا متناع الخلف فى وعده تعالى.

---

(١) كما جاء فى الآية ١٥ من سورة الحجر.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٠

الإشارة : لو أن عارفا باللّه سيّر الجبال عن أماكنها ، وفجر الأرض عيونا ، وكلمه الموتى لما آمن بخصوصيته إلا من سبقت له عناية الخصوصية. فلو شاء اللّه لهدى الناس إلى معرفته جميعا. لكن الحكمة اقتضت وجود الخلاف ، قال تعالى : وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ «١» ، فمن لم يهتد إلى معرفتهم لا يزال تطرقه قوارع الشكوك والأوهام ، وخواطر السوء ، أو تحل قريبا من قلبه ، إن لم تتمكن فيه ، حتى يأتى وعد اللّه بحضور موته ، فقد يتداركه اللطف والرعاية ، وقد يتسع الخرق عليه فيموت على الشك ، والعياذ باللّه. بخلاف من صحب أهل الطمأنينة واليقين ، لا يموت إلا على اليقين لأن همة الشيوخ قد حلّقت عليه ، والعناية قد حفت به. واللّه ولى المتقين.

قال الشيخ أبو الحسن رضي اللّه عنه : (و اللّه لا يكون الشيخ شيخا حتى تكون يده مع الفقير أينما ذهب) ، والمراد باليد :

الهمة والحفظ. ووقت الموت أولى بالحضور ، وقد شاهدنا ذلك من إخواننا ممن حضره الموت منهم ، أخبر أنه يرى شيخه حاضرا معه. فلله الحمة والمنة.

ثم سلّى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من إذاية قومه ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : آية ٣٢]

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (٣٢)

يقول الحق جل جلاله ، فى تسلية رسوله صلى اللّه عليه وسلم : وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فأوذوا وأهينوا ، فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : أمهلتهم فى دعة ورغد عيش ، مدة من الزمان ، ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ بالهلاك والاستئصال ، فَكَيْفَ كانَ عِقابِ؟ أي : عقابى إياهم ، وهو تهويل لما نزل بهم ، وتخويف لغيرهم من المستهزئين بالرسول صلى اللّه عليه وسلم والمقترحين عليه الآيات.

الإشارة : الاستهزاء بأهل الخصوصية فى بدايتهم سنة ماضية ، ويتسلون بمن سلف من خصوص الأنبياء والأولياء. وما هدد به الكفار يهدد به أهل الإنكار. وباللّه التوفيق.

ثم وبخهم على الشرك وأوعدهم عليه ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٣٣ الى ٣٤]

أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (٣٤)

---

(١) من الآية ١١٨ من سورة هود.

قلت : أَفَمَنْ مع صلته : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : أفمن هو رقيب على كل شيء أحق أن يعبد أم غيره.

أو كمن ليس كذلك؟!.

يقول الحق جل جلاله : أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ أي : حفيظ رقيب على عمل كل نفس بِما كَسَبَتْ من خير أو شر ، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ، ولا يفوت عنده شيء من جزائهم ، أحق أن يعبد أم غيره؟. أو كمن ليس كذلك ممن هو جماد لا يسمع ، ولا يعقل!!. وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ بعد هذا البيان التام ، قُلْ لهم : سَمُّوهُمْ أي : اذكروا أسماءهم ، فلا تجدون إلا أسماء إناث كاللات والعزى ومناة ، أو أسماء أحجار وخشب فبأى وجه تستحق أن تعبد ، وتشرك مع اللّه فى ألوهيته؟.

أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ بل أتخبرونه بما لا يعلم وجوده فى الأرض ، وهذا تهكم بهم ، كأنهم علموا استحقاق الأصنام العبادة ، ولم يعلمها الحق تعالى ، وهو محال. والمعنى : أن اللّه لا يعلم لنفسه شركاء وإذا لم يعلمهم فليسوا بشيء ، فكيف تفترون الكذب فى عبادتهم؟ أَمْ تسمونهم شركاء ، بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ، من غير حقيقة واعتبار معنى ، كتسمية الخبث مسكا ، والبول عطرا.

بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ أي : انخداعهم وغرورهم حتى توهموا الباطل حقا ، أو مكرهم بالإسلام وكيدهم لأهله ، وَصُدُّوا «١» عَنِ السَّبِيلِ أي : وصدوا الناس عن طريق الحق ، حيث منعوهم من الإسلام.

ومن قرأ بضم الصاد مبنيا للمفعول فمعناه : صدّهم الشيطان عن طريق الحق وضلوا عنه. وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ أي : من يخذله اللّه فليس له من يوفقه غيره. لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا بالقتل والأسر ، وسائر ما يصيبهم من المصائب ، وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُ

لشدته ودوامه ، وَما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ

أي : من عذابه مِنْ واقٍ

يقيهم ويعصمهم منه.

الإشارة : كل من تحقق أن اللّه قائم عليه استحيا منه أن يسيء الأدب بين يديه ، يقول اللّه تعالى فى بعض الأخبار : «إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم ، فالخلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم؟». وكل من وقف مع الأسباب واعتمد عليها ، أو طمع فى الخلق وركن إليهم ، فقد جعل للّه شركاء ، فيقال له : سمّ هؤلاء تجدهم خلقا عاجزين ، لا قدرة لهم على شيء ، ولا ينفعوك بشيء إلا ما قسم اللّه لك فى الأزل.

بل زين لضعفاء اليقين مكرهم ، حتى انخدعوا وافتتنوا برؤية الأسباب ، أي : كفروا كفرا دون كفر بأن شكّوا فى

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ، بضم الصاد ، على البناء للمفعول ، وقرأ الباقون بالفتح على البناء للفاعل .. انظر الإتحاف (٢/ ١٦٢).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٢

الرزق ، والشكّ فى الرزق شكّ فى الرزّاق ، وصدوا عن طريق اليقين ، والغنى برب العالمين ، لهم عذاب فى الحياة الدنيا بالذل والحرص والحرمان.

قال بعض العارفين : لو قيل للطمع : من أبوك؟ لقال : الشك فى المقدور ، ولو قيل له : ما حرفتك؟ لقال : الذل والهوان ، ولو قيل له : ما غايتك؟ لقال : الحرمان. وفى الحكم : «ما بسقت أغصان ذلّ إلّا على بذر طمع». وقال

الشاعر : العبد حرّ ما قنع والحرّ عبد ما طمع

ولعذاب الآخرة أشق حيث يسقط بضعف يقينه عن درجة المقربين على سبيل الدوام ، وما لهم من اللّه من واق يقيهم من غم الحجاب ، وعدم اللحوق بالأحباب الذين ترقوا إلى القرب من الحبيب. واللّه تعالى أعلم.

ثم وصف الجنة تشويقا وترغيبا فى سلوك طريقها وهو الإيمان ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : آية ٣٥]

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ (٣٥)

قلت : مَثَلُ الْجَنَّةِ : مبتدأ. قال سيبويه : الخبر محذوف ، أي : فيما يتلى عليكم صفة الجنة. وقال الفراء : الخبر هو : تَجْرِي ... إلخ ، وعلى قول سيبويه يكون تَجْرِي : حالا من العائد المحذوف ، أي : التي وعدها المتقون حال كونها تجرى ... إلخ. والمراد بالمثل هنا : الصفة ، لا ضرب المثل. وظِلُّها : مبتدأ حذف خبره ، وظلها كذلك.

والأكل بضم الهمزة : المأكول ، ويجوز فيه ضم الكاف وإسكانها ، وأما الأكل بالفتح فمصدر.

يقول الحق جل جلاله : صفة الجنة التي وعدها المتقون هى غرف وقصور تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ من ماء وخمر وعسل ولبن ، أُكُلُها دائِمٌ ما يؤكل من ثمارها وأنواع أطعمتها لا ينقطع ، وَظِلُّها دائم ، لا ينسخ بالشمس كظلال الدنيا ، تِلْكَ الجنة الموصوفة بهذه الأوصاف هى عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا الشرك والمعاصي ، هى مآلهم وعاقبة استقرارهم ، وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ لا محيد عنها ، هى مآلهم وإليها

رجوعهم.

وفى ترتيب العقبيين إطماع للمتقين ، وإقناط للكافرين.

الإشارة : مثل جنة المعارف التي وعدها المتقون لكل ما يشغل عن اللّه هى حضرة مقدسة ، يتنعم فيها أسرار العارفين ، تجرى من تحت قلوبهم أنهار العلوم والحكم ، لذتها وقوت الأرواح فيها دائم ، وهى الفكرة فى ميادين أنوار

التوحيد ، وجولان الروح فى فضاء أسرار التفريد. وظل روحها وريحانها دائم ، وهو : سكون القلب إلى اللّه ، وفرح الروح بشهود اللّه. وإليه أشار ابن الفارض بقوله ، رحمه اللّه ، فى وصف خمرتها :

وإن خطرت يوما على خاطر امرئ أقامت به الأفراح وارتحل الهمّ

تلك عقبى الذين اتقوا السّوى ، وعقبى المنكرين لوجود أهل هذه الجنة نار القطيعة والبعد. أعاذنا اللّه من ذلك.

ثم ذكر حال الفريقين : أهل الفرح باللّه ، وأهل الإنكار على أحباء اللّه ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٣٦ الى ٣٧]

وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا واقٍ (٣٧)

قلت : حُكْماً : حال من ضمير أَنْزَلْناهُ.

يقول الحق جل جلاله ، فى حق من سبقت له السعادة : وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ كعبد اللّه بن سلام ومخيريق وأصحابهما ، ومن أسلم من النصارى ، وهم : ثمانون رجلا : أربعون بنجران ، وثمانية باليمن ، واثنان وثلاثون من الحبشة. أو : كل من آمن من أهل الكتاب ، فإنهم كانوا يَفْرَحُونَ بما يوافق كتبهم.

ثم ذكر ضدهم فقال : وَمِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ أي : ومن كفرتهم الذين تحزبوا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالعداوة والشحناء ككعب بن الأشرف وأصحابه من اليهود ، والعاقب والسيد وأشياعهما من النصارى ، مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ، وهو ما يخالف شرائعهم التي نسخت به ، أو ما يوافق ما حرّفوا منها.

قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ ، وهو جواب للمنكرين ، أي : قل لهم : إنما أمرت فيما أنزل إلىّ أن أعبد اللّه وأوحده ، وهو العمدة فى الأديان كلها ، فلا سبيل لكم إلى إنكاره. وأما إنكاركم ما

يخالف شرائعكم فليس ببدع مخالفة الشرائع والكتب الإلهية فى جزئيات الأحكام لأنها تابعة للمصالح والعوائد ، وتتجدد بتجددها. إِلَيْهِ أَدْعُوا لا إلى غيره ، وَإِلَيْهِ مَآبِ أي : وإليه مرجعى بالبعث لا إلى غيره. وهذا هو القدر المتفق عليه من الشرائع ، وهو الأمر بعبادة اللّه وحده ، والدعاء إليه ، واعتقاد المآب إليه ، وهو الرجوع بالبعث يوم القيامة فلا يخالف ما قبله من الشرائع ، فلا معنى للإنكار حينئذ.

(٣٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٤

وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ أي : ومثل هذا الإنزال المشتمل على أصول الدين المجمع عليها ، أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا أي : يحكم فى القضايا والوقائع ، بما تقتضيه الحكمة ، مترجما بلسان العرب ليسهل عليهم فهمه وحفظه.

وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ التي يدعونك إليها كتقرير دينهم ، والصلاة إلى قبلتهم بعد ما حوّلت عنها ، بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ بنسخ ذلك ، ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ ينصرك ، وَلا واقٍ يقيك عتابه. وهو حسم لأطماعهم ، وتهييج للمؤمنين على الثبات فى دينهم. وباللّه التوفيق.

الإشارة : الفرح بما أنزل من عند اللّه هو مقدمات الفرح باللّه ، فإذا رفعت أكنة الغفلة عن القلب تلذذ بسماع الخطاب من وراء الباب ، وذلك أمارة القرب. وهذا مقام أهل المراقبة من المحبين. فإذا جدّ فى السير رفعت عنه الحجب والأستار ، وواجهته الأنوار والأسرار ، فيكاشف بأسرار الذات وأنوار الصفات ، فيتلذذ بشهود المتكلم ، فيسمع حينئذ الكلام من المتكلم به بلا واسطة. وهذا مقام أهل الشهود من المحبين المقربين. (و من الأحزاب) ، وهم أهل الرئاسة والجاه ، من ينكر وجود بعض هذه المقامات تعصبا وحمية. أو ينسبها لنفسه غلطا وجهلا ، فيقول له من تحقق بهذا المقام : إنما أمرت أن أعبد اللّه ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب. ويغيب عنه بالاشتغال باللّه ، وبالدعاء إليه. فإن غفل واشتغل به ، أو ركن إلى قوله ، قيل له : ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من اللّه من وليّ ولا واق.

ولما قالت اليهود – لعنهم اللّه – لو كان محمد رسولا لما أولع بالنساء ، ردّ اللّه عليهم بقوله :

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٣٨ الى ٣٩]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ (٣٨) يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ (٣٩)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ يا محمد ، وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً كثيرة :

كداود عليه السّلام كان له مائة امرأة ، وابنه كان له ألف ، على ما قيل ، وغيرهما من الأنبياء والرسل.

وَجعلنا لهم منهن ذُرِّيَّةً ، وأنت يا محمد منهم فليس ببدع أن يكون الرسول بشرا ، يتزوج النساء ، ويحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر ، إلا أنه لا يشغله ذلك عن أداء الرسالة ، ونصيحة الأمة ، وإظهار شريعة الدين ، والقيام بحقوق رب العالمين. ولما أجابهم بشبهتهم قالوا : أظهر لنا معجزة كما كانت لهم ، كالعصا وفلق البحر ، وإحياء الموتى؟ فأنزل اللّه وَما كانَ لِرَسُولٍ ما صح له ولم يكن فى وسعه أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ تقترح عليه ، ويظهرها إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وإرادته فإنه القادر على ذلك. لِكُلِّ أَجَلٍ من آجال بنى آدم وغيرهم ، كِتابٌ يكتب فيه وقت موته ، وانتقاله من الدنيا.

(٣٤/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٥

يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ من ديوان الأحياء ، فيكتب فى الأموات ، وَيُثْبِتُ من لا يموت. قيل : إن هذا الكتاب يكتب ليلة القدر ، أو ليلة النصف من شعبان ، ويجمع بينهما بأن الكتابة تقع ليلة النصف ، وإبرازه للملائكة ليلة القدر ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ أي : الأصل المنسوخ منه كتب الآجال ، وهو اللوح المحفوظ ، أو العلم القديم. وهذا التفسير يناسب اقتراح الآيات لأنهم إذا أجيبوا بظهور الآية ولم يؤمنوا ، عوجلوا بالهلاك ، وذلك له كتاب محدود. قال الورتجبي : بيّن الحق – سبحانه – أن أوان إتيان الآية بأجل معلوم فى وقت معروف ، بقوله : لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ أي :

لكل مقدور فى الأزل فى قضية مرادة وقت معلوم فى علم اللّه ، لا يأتى إلا فى وقته هـ.

أو : لِكُلِّ أَجَلٍ أي : عصر وزمان ، كِتابٌ فيه شريعة مخصوصة على ما يقتضيه استصلاحهم.

يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ : ينسخ ما يستصوب نسخه من الشرائع ، وَيُثْبِتُ ما تقتضى الحكمة عدم نسخه.

وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ وهو : اللوح المحفوظ فإنه جامع للكائنات. وهذا يترتب على قوله : وَمِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ، وهو ما لا يوافق شريعتهم. قال سيدى عبد الرحمن الفاسى : يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ ما يستصوب نسخه ، وَيُثْبِتُ ما تقتضيه حكمته ، فلا ينكر مخالفته للشرائع فى بعض الأحكام مع موافقته للحكم ، وهو الأصول الثابتة فى أصول الشرائع ، ولذا قال : وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ أي : لا يبدل. هـ. وقريب منه للبيضاوى.

وقيل : إن المحو والإثبات عام فى جميع الأشياء. قال ابن جزى : وهذا ترده القاعدة المتقررة بأن القضاء والقدر لا يتبدل ، وعلم اللّه لا يتغير. هـ. قلت : أما القضاء المبرم وهو : علم اللّه القديم الذي استأثر اللّه به ، فلا شك أنه لا يتبدل ولا يتغير ، وأما القضاء الذي يبرز إلى علم الخلائق من الملائكة وغيرهم ، فيقع فيه المحو والإثبات ، وذلك أن الحق تعالى قد يطلعهم على بعض الأقضية ، وهى عنده متوقفة على أسباب وشروط ، يخفيها عنهم بقهريته ، ليظهر اختصاصه بالعلم الحقيقي ، فإذا أراد

الملائكة أن ينفذوا ذلك الأمر محاه اللّه تعالى ، وأثبت ما عنده فى علم غيبه ، وهو أمّ الكتاب ، حتى قال بعضهم : إن اللوح الحفوظ له جهتان : جهة تلى عالم الغيب ، وفيه القضاء المبرم ، وجهة تلى عالم الشهادة ، وفيه القضاء الذي يرد ويمحى لأنه قد تكتب فيه أمور ، وهى متوقفة على شروط وأسباب فى علم الغيب ، لم تظهر فى هذه الجهة التي تلى عالم الشهادة ، فيقع فيها المحو والإثبات ، وبهذا يندفع إشكالات كقوله فى الحديث : «لا يردّ القضاء إلا الدّعاء ، وصلة الرحم تزيد فى العمر» «١».

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي ، فى (كتاب القدر ، باب : ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء) ، من حيث سلمان. وأخرج البخاري فى (الأدب باب ، من بسط له فى الرزق) من حديث أبى هريرة قال صلى اللّه عليه وسلم : «من سره أن يبسط له فى رزقه وأن ينسأ له فى أثره ، فليصل رحمه». [.....]

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٦

وقول ابن مسعود ، وعمر – رضى اللّه عنهما – : اللهم إن كنت كتبتنا فى ديوان الشقاء فامحنا ، واكتبنا فى ديوان السعادة ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت. هـ. أي : إن كنت أظهرت شقاوتنا فامحها ، وأظهر سعادتنا فإنك تمحو ما تشاء ... إلخ. وفى ابن عطية ما يشير إلى هذا ، قال : وأصوب ما يفسر به أم الكتاب ، أنه كتاب الأمور المجزومة التي سبق القضاء فيها بما هو كائن ، وسبق ألا تبدل ، ويبقى المحو والتثبيت فى الأمور التي سبق فى القضاء أن تبدل وتمحى وتثبت. قال نحوه قتادة. هـ.

الإشارة : قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ ... الآية ، قد أثبت تعالى لأهل خصوصية النبوة والرسالة الأزواج والذرية ، وكان ذلك كمالا فى حقهم. وكذلك أهل خصوصية الولاية ، تكون لهم أزواج وذرية ، ولا يقدح فى مرتبتهم ، بل يزيد فيها ، وذلك بشرط أن يقع ذلك بعد التمكين ، أو يكون فى صحبة شيخ عارف كامل عند أمره ونهيه ، يكون فعل ذلك بإذنه ، فإذا كان هذا الشرط فإن التزوج يزيد صاحبه تمكينا من اليقين.

قال الورتجبي فى هذه الآية : أعلم تعالى ، بهذه الآية ، الجهّال أنه إذا شرّف وليا أو صدّيقا بولايته ومعرفته لم يضرّ به مباشرة أحكام البشرية من الأهل والولد ، ولم يكن بسط الدنيا له قدحا فى ولايته. هـ.

وقال الغزالي فى الإحياء ، فى الترغيب فى النكاح : قال تعالى فى وصف الرسل ومدحهم : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً ، فذكر ذلك فى معرض الامتنان وإظهار الفضل ، ومدح

أولياءه بسؤال ذلك فى الدعاء ، فقال تعالى : وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ «١» الآية ، ويقال : إن اللّه تعالى لم يذكر فى كتابه من الأنبياء إلا المتأهلين. وقالوا : إن يحيى عليه السّلام قد تزوج فلم يجامع.

قيل : إنما فعل ذلك لنيل الفضل وإقامة السّنة ، وقيل : لغض البصر. وأما عيسى عليه السّلام فإنه سينكح إذا نزل الأرض ، ويولد له.

وأما الأخبار فقوله صلى اللّه عليه وسلم : «النّكاح سنّتى ، فمن أحبّ فطرتى فليستنّ بسنّتى». وقال أيضا صلى اللّه عليه وسلم : «تناكحوا تكاثروا فإنّى أباهى بكم الأمم يوم القيامة ، حتّى السّقط». وقال أيضا : «من رغب عن سنّتى فليس منّى ، وإنّ من سنّتى النّكاح ، فمن أحبّنى فليستنّ بسنّتى». وقال صلى اللّه عليه وسلم : «من ترك التّزوّج مخافة العيلة فليس منّا». وقال صلى اللّه عليه وسلم : «من نكح للّه وأنكح للّه استحقّ ولاية اللّه».

---

(١) من الآية ٧٤ من سورة الفرقان.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٧

ثم قال «١» : وقال ابن عباس لابنه : لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج. وكان ابن مسعود يقول : لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج ، لا ألقى اللّه عزبا. وكان معاذ رضي اللّه عنه مطعونا وهو يقول : زوجونى ، لا ألقى اللّه عزبا. وكان ماتت له زوجتان بالطاعون. وكان عمر يكثر النكاح ، ويقول : لا أتزوج إلا للولد. وكان لعلىّ رضي اللّه عنه أربع نسوة ، وسبع عشرة سرية ، وهو أزهد الصحابة. فدل أن تزوج النساء لا يدل على الرغبة فى الدنيا.

قال سفيان : كثرة النساء ليس من الدنيا. واستدل بقضية علىّ رضي اللّه عنه قال : وكان أزهد الصحابة. وروى أن بشر الحافى رئى فى المنام ، فقيل له : ما فعل اللّه بك؟ فقال : رفعت إلى منازلى فى الجنة فأشرفت على مقامات الأنبياء ، ولم أبلغ منازل المتأهلين. وفى رواية : قال لى : ما كنت أحب أن تلقانى عزبا ، قال الرائي : فقلت له : ما فعل أبو نصير التمار؟ قال : رفع فوقى بسبعين درجة بصبره على بنياته وعياله. وقد قيل : فضل المتأهل على العزب كفضل المجاهد على القاعد ، وركعة من متأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب. هـ. كلام الغزالي باختصار.

وقوله تعالى : يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ ، من جملة ما يقع فيه المحو والإثبات الواردات الإلهية التي ترد على القلوب من تجليات الغيوب فإن القلب إذا تطهر من الأكدار ، وصفا من الأغيار ، كان كل ما

يتجلى فيه من الغيوب فهو حق ، إلا أنه ينسخ بعضها بعضا فقد يخبر الولي بأمر ، يكون ، أو لا يكون على حسب ما تجلى فى قلبه ، ثم يمحو اللّه ذلك ، ويثبت فى قلبه خلافه. أو يظهر فى الوجود خلاف ما أخبر ، وليس بكذب فى حقه ، ولكن الحق تعالى يظهر لخلقه أمورا من مقدوراته ، متوقفا وجودها على أسباب وشروط أخفاها الحق تعالى عن خلقه ، ليظهر عجزهم عن إحاطة علمه. فالنسخ إنما يقع فى فعله لا فى أصل علمه.

قال الأستاذ القشيري : المشيئة لا تتعلق إلا بالحدوث ، والمحو والإثبات لا يكون إلا من أوصاف الحدوث ، فصفات ذات الحق – سبحانه – من كلامه وعلمه ، لا يدخل تحت المحو والإثبات ، إنما يكون المحو والإثبات من صفات فعله. هـ. وقال سهل رضي اللّه عنه : يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ الأسباب ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ القضاء المبرم. هـ.

وقال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرحمن الفاسى : وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ : العلم الأول الثابت الذي لا يطرأ عليه تغيير ولا تبديل ، ولا يقبل النسخ والتحريف. ومطالعته : بالفناء عن الحقيقة الخلقية ، والبقاء بالأنوار الصمدانية ، والأنفاس الرحمانية. قال فى القوت : والمحبة من أشرف المقامات ، ليس فوقها إلا مقام الخلة ، وهو مقام فى المعرفة الخاصة ، وهى : تخلل أسرار الغيب ، فيطلع على مشاهدة المحبوب ، بأن يعطى إحاطة بشىء من علمه بمشيئته ، على مشيئته

---

(١) أي : الإمام الغزالي ، رحمه الله تعالى.

التي لا تتقلب ، وعلمه القديم الذي لا يتغير. وفى هذا المقام : الإشراف على بحار الغيوب ، وسرائر ما كان فى القديم ، وعواقب ما يدب. ومنه : مكاشفة العبد بحاله ، وإشهاده من المحبة مقامه ، والإشراف على مقامات العباد فى المآل ، والاطلاع عليهم فى تقلبهم فى الأبد حالا ومآلا. هـ.

قلت : هذا الاطلاع إنما هو إجمالي لا تفصيلي ، وقد يقع فيه المحو والإثبات لأنه من جملة المعلومات التي دخلت عالم التكوين ، التي يقع فيها التبديل والتغيير.

ثم قال صاحب القوت : وقد قال أحسن القائلين : وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاءَ «١» ، والاستثناء واقع على إعطاء الإحاطة بشىء من شهادة علمه ، بنور ثاقب من وصفه ، وشعاع لائح من سبحاته ، إذا شاء ، وذلك إذا أخرجت النفس من الروح ، فكان روحانيا ، خروج الليل من النهار. هـ.

ثم تمّم الجواب عن اقتراحهم الآيات ، فقال :

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٤٠ الى ٤٣]

وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ (٤٣)

قلت : وَإِنْ ما : شرطية ، اتصلت ما الزائدة بأن الشرطية للتأكيد ، والجواب : فَإِنَّما ... إلخ ، أو : فلا تحتفل فإنما ... إلخ ، ولا مُعَقِّبَ : فى موضع الحال ، أي : يحكم نافذا حكمه ، كقوله : جاء زيد لا سلاح معه ، أي : حاسرا.

ومَنْ عِنْدَهُ : عطف على بِاللَّهِ.

يقول الحق جل جلاله لنبيه صلى اللّه عليه وسلم تسكينا له : وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ من العذاب الذي استعجلوه ، أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ قبل أن ترى ذلك ، فلا تحتفل بشأنهم ، فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ للرسالة لا غير ، وَعَلَيْنَا الْحِسابُ : المجازاة. والمعنى : كيفما دار الحال در معه ، أريناك بعض ما أوعدناهم فى حياتك ، أو توفيناك قبله ، فلا تهتم بإعراضهم ، ولا تستعجل بعذابهم فإنا فاعلون ذلك لا محالة ، وهذا طلائعه ، فقد فتحنا عليك كثيرا من بلادهم ونقصناها عليهم.

---

(١) من الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٩

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ أي : أرض الكفرة ، نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها بما نفتحه على المسلمين منها ، فيخافوا أن نمكّنك من أرضهم ، وتنزل بساحتهم ، منصورا عليهم ، فإذا نزلت بساحتهم ، ولم يخضعوا لك ، فساء صباح المنذرين. وقيل : الأرض جنس ، ونقصها بموت الناس ، وهلاك الثمرات ، وخراب البلاد ، وشبه ذلك. وذلك مقدمات العذاب الذي حكم به عليهم ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ : لا راد له. والمعقب : الذي يعقب الشيء بالإبطال ، ومنه قيل لصاحب الدين : معقب لأنه يعقب غريمه للاقتضاء ، والمعنى : أنه حكم للإسلام بالإقبال ، وعلى الكفرة بالإدبار ، وذلك كائن لا يمكن تغييره.

وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ فيحاسبهم عما قليل فى الآخرة ، بعد ما عذّبهم بالقتل والإجلاء فى الدنيا.

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ بأنبيائهم ، وبمن تبعهم ، فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً ، إذ لا يؤبه بمكر دون مكره ، فإنه القادر على ما هو المقصود منه دون غيره. سمّى العقوبة باسم الذنب للمشاكلة ، يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ

كُلُّ نَفْسٍ فينفذ جزاءها. وَسَيَعْلَمُ الكافر «١» أي : جنس الكافر ، بدليل قراءة : «الْكُفَّارُ» ، لِمَنْ هى عُقْبَى الدَّارِ أي : لمن تكون العاقبة فى الدارين ، دار الفناء ودار البقاء ، هل لأهل الإسلام المعد لهم دار السلام؟

أو للكفار المعد لهم دار البوار؟. قال البيضاوي : وهذا كالتفسير لمكر اللّه بهم ، واللام تدل على أن المراد بالعقبى العاقبة المحمودة ، مع ما فى الإضافة إلى الدار كما عرفت. هـ.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا من رؤساء اليهود : لَسْتَ مُرْسَلًا ، ولم نجد لك ذكرا فى كتابنا ، ولا ما يشهد لك عندنا. قال تعالى : قُلْ لهم : كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فإنه أظهر من الأدلة على رسالتى ما يغنى عن شاهد يشهد عليها منكم ، ولا من غيركم. وَيشهد لى أيضا : مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ الأول العلم الحقيقي ، كعبد اللّه بن سلام ، ومن أسلم من اليهود والنصارى الذين علموا صفته صلى اللّه عليه وسلم من التوراة والإنجيل ، وعلماء المؤمنين الذين عندهم علم القرآن ، وما احتوى عليه من النظم المعجز ، والعلوم الغيبية الدالة على نبوته صلى اللّه عليه وسلم.

أو علم اللوح المحفوظ ، وهو اللّه ، أي : كفى باللّه الذي لا يستحق العبادة غيره ، وبمن لا يعلم ما فى اللوح المحفوظ إلا هو ، شهيدا بيننا. ويؤيده قراءة من قرأ : «وَمَنْ عِنْدَهُ» بكسر الميم. وعلم الكتاب ، على الأول : مرفوع بالظرف فإنه معتمد على الموصول. ويجوز أن يكون مبتدأ ، والظرف خبره. وهو متعين على الثاني. قاله البيضاوي.

الإشارة : قد قال تعالى فى الحديث القدسي : «من آذى لى وليّا فقد آذن بالحرب». وجرت عادة اللّه تعالى أن ينتقم لأوليائه ، ويغار عليهم ، ولو بعد حين ، فإذا أوذى أحدهم ، واستعجل ذلك يقول له الحق تعالى ما قال لنبيه صلى اللّه عليه وسلم : فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ قبل ذلك ، فليس الأمر بيدك ، فإنما عليك بلاغ ما جاء به

---

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي «الكفار» جمع تكسير. وقرأ الباقون. (الكافر) على الإفراد ... انظر الإتحاف (٢/ ١٦٣).

نبيك من نصح العباد ، وإرشادهم إلى معالم دينهم ، وتصفية بواطنهم ، وعلينا الحساب فنجازى من أقبل ومن أدبر. ومن جملة الانتقام : حبس الأمطار ، ونقص الثمار ، وتخريب البلاد ، وكثرة موت العباد ، فتنقص الأرض من أطرافها. أفلم يعتبروا بذلك ، ويقصروا عن مكرهم بأولياء اللّه؟.

وقد مكر الذين من قبلهم بأولياء زمانهم ، فلم يغنوا شيئا ، فمكر اللّه بهم ، وخذلهم عن طاعته ، وسيعلم أهل الإنكار لمن تكون عاقبة الدار. ويقول الذين كفروا بخصوصية وليّ من أولياء اللّه : لست وليّا. فيقول لهم : كفى باللّه شهيدا بينى وبينكم ، ومن عنده علم الخصوصية ، وهم : السادات الصوفية ، فلا يعرف الوليّ إلا وليّ مثله ، ولا يعرف أهل الخصوصية إلا من له الخصوصية. وباللّه التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

(٣/٤٠)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤١

سورة إبراهيم

مكية. وهى إحدى وخمسون آية. ومناسبتها لما قبلها : قوله : قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً «١» ، مع قوله : كِتابٌ أَنْزَلْناهُ فإنه تصريح بالشهادة له. أو : وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ ، على تفسيره بالقرآن ، مع قوله : كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ الر ...

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٣)

الألف : آلاؤه ، واللام : لطفه ، والراء : رحمته. فكأنه يقول : بآلائنا ولطفنا ورحمتنا أنزلنا إليك كتابنا ، ولذلك رتّب عليه قوله :

كِتابٌ أَنْزَلْناهُ ...

قلت : (كتاب) : خبر ، أي : هذا كتاب ، و(بإذن) : متعلق بتخرج ، أو حال من فاعله ، أو مفعوله. و(إلى صراط) : بدل من (النور). (اللّه الذي) من رفعه فعلى الابتداء ، والموصول خبره ، أو خبر عن محذوف ، ومن خفضه فبدل من (العزيز) ، و(الذين يستحبون) : صفة للكافرين أو نصب ، أو رفع على الذم.

يقول الحق جل جلاله : أيها الرسول المحبوب ، هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ بدعائك إياهم إلى العمل به ، مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ من ظلمات الضلال والجهل إلى نور الهداية والعلم ، بِإِذْنِ رَبِّهِمْ بتوفيقه وهدايته وتسهيله ، إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ أي : لتخرجهم إلى نور العلم الذي هو سلوك طريق

العزيز الحميد ، التي توصل إلى رضوانه ومعرفته. وفى ذكر الوصفين إشارة إلى أنه لا يذل سالكه ، ولا يخيب سائله ، بل تحمد عاقبته.

ثم ذكر الموصوف بهما بقوله : اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أي : الموصوف بالعزة والحمد هو الله الذي استقر له ما فى السموات وما فى الأرض ملكا وعبيدا. ثم ذكر وعيد من كفر بكتابه أو به ،

---

(١) من الآية ٤٣ سورة الرعد.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٢

فقال : وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ بكتابه ، ولم يخرجوا به من ظلمات كفرهم ، مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ ، والويل : كلمة عذاب تقال لمن استحق الهلاك ، أي : هلاك لهم من أجل عذاب شديد يلحقهم. وقيل : واد فى جهنم.

ثم ذكر وجه استحقاقهم العذاب بقوله : الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يختارونها عَلَى الْآخِرَةِ ، فإنّ من أحب شيئا اختاره وطلبه ، وَيَصُدُّونَ الناس عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بتعويقهم عن الإيمان ، وَيَبْغُونَها عِوَجاً أي : ويبغون لها زيغا ، ونكوبا عن الحق ، ليتوصلوا للقدح فيها ، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير ، أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ أي : فى تلف بعيد عن الحق ، بحيث ضلوا عن الحق ، وبعدوا عنه بمراحل. والبعد فى الحقيقة : للضال ، ووصف به فعله للمبالغة.

الإشارة : قد أخرج صلى اللّه عليه وسلم أمته من ظلمات عديدة إلى أنوار متعددة ، أولها : ظلمة الكفر والشرك إلى نور الإيمان والإسلام ، ثم من ظلمة الجهل والتقليد إلى نور العلم والتحقيق ، ثم من ظلمة الذنوب والمعاصي إلى نور التوبة والاستقامة ، ثم من ظلمة الغفلة والبطالة إلى نور اليقظة والمجاهدة ، ثم من ظلمة الحظوظ والشهوات إلى نور الزهد والعفة ، ثم من ظلمة رؤية الأسباب ، والوقوف مع العوائد ، إلى نور شهود المسبب ، وخرق العوائد ، ثم من ظلمة الوقوف مع الكرامات وحلاوة الطاعات إلى نور شهود المعبود ، ثم من ظلمة الوقوف مع حس الأكوان الظاهرة إلى شهود أسرار المعاني الباطنة ، فيغيب عن الأكوان بشهود المكون. وهذا آخر ظلمة تبقى فى النفس ، فتصير حينئذ روحا ، وسرا من أسرار اللّه ، ويصير صاحبها روحانيا ربانيا عارفا باللّه ، ولا يبقى حينئذ إلا الترقي فى شهود الأسرار أبدا سرمدا. وهذا محل القطبانية والتهيؤ للتربية النبوية ، ويصير وليا محمديا ، يخرج الناس من هذه الظلمات إلى هذه الأنوار.

وأما من لم يبلغ هذا المقام ، فإنما له الإخراج من أحد هذه الأشياء فالغزاة والمجاهدون يخرجون من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، والعلماء يخرجون من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، والعباد والزهاد يخرجون من صحبهم من الذنوب إلى التوبة والاستقامة. وأما ما بقي من الظلمات فلا يخرج منها إلا الربانيون الروحانيون ، أهل التربية النبوية ، بإذن ربهم ، يدلهم على صراط العزيز الحميد ، الموصل إلى العز المديد. وويل لمن أنكر هؤلاء ، واشتغل بمتابعة حظوظه وهواه ، واستحبّ حياة دنياه على أخراه ، أولئك فى ضلال عن حضرة الحق بعيد. وباللّه التوفيق.

ولمّا كان الإخراج من هذه الظلمات لا يكون إلا بالمقال والحال ، بعث اللّه الرسل ، وورثتهم من الأولياء الداعين إلى اللّه بلسان قومهم ، كما قال تعالى :

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٣

[سورة إبراهيم (١٤) : آية ٤]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)

يقول الحق جل جلاله : وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ قبلك إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ ، وأنت بعثناك بلسان قومك. وإنما قال : بلسان قومه ، ولم يقل بلسان أمته لأن الأمة قد تكون أوسع من قومه ، كما فى حق نبينا – عليه الصلاة والسلام – فقد بعث إلى العرب والعجم ، والجن والإنس ، فقومه الذين يفهمون عنه : يترجمون إلى من لا يفهم ، فتقوم الحجة عليهم. وكذلك إعجاز القرآن يدركه أهل الفصاحة والبلاغة ، فإذا وقع العجز عن معارضته منهم قامت الحجة على غيرهم ، كما قامت الحجة فى معجزة موسى عليه السّلام بعجز السحرة ، وفى معجزة عيسى بعجز الأطباء.

ثم بيّن الحكمة ، فى كون الداعي لا يكون إلا بلسان قومه ، بقوله : لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ما أمروا به فيفهمونه عنه بسرعة ، ثم ينقلونه ويترجمونه لغيرهم ، فتقوم الحجة عليهم ولذلك أمر النبي صلى اللّه عليه وسلم بإنذار عشيرته أولا ، فإذا فهموا عنه بلّغوا إلى غيرهم. قال البيضاوي : ولو نزل على من بعث إلى أمم مختلفة كتب على ألسنتهم استقل ذلك بنوع من الإعجاز ، لكن أدى إلى اختلاف الكلمة وإضاعة فضل الاجتهاد فى تعلم الألفاظ ومعانيها ، والعلوم المتشعبة منها ، وما فى إتعاب القرائح وكد النفس من القرب المقتضية لجزيل الثواب. هـ.

فالرسل – عليهم الصلاة والسلام – إنما عليهم البيان بلسانهم ، والهداية بيد ربهم ، ولذلك قال تعالى : فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ إضلاله ، فيخذله عن الإيمان ، وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ بالتوفيق له ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الغالب

على أمره ، فلا يغلب على مشيئته ، الْحَكِيمُ فى صنعه ، فلا يضل ولا يهدى إلا لحكمة أرادها. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما بعث اللّه وليا داعيا إلا بلسان قومه ، وقد يخرق له العادة ، فيطلعه على جميع اللغات ، كما قال المرسى رضي اللّه عنه : من بلغ هذا المقام لا يخفى عليه شيء. وذلك من باب الكرامة كما كان صلى اللّه عليه وسلم يخاطب كل قوم بلغتهم معجزة له صلى اللّه عليه وسلم فقد اتسع علمه – عليه الصلاة والسلام – فأحاط بحقائق الأشياء وأسمائها ومفهوماتها ، وأصول اللغة وفروعها ، فعلم ما علمه سيدنا آدم عليه السّلام ، أو أكثر ، وإلى ذلك أشار القطب ابن مشيش فى تصليته المشهورة بقوله : «وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق». وقال البوصيرى فى همزيته :

لك ذات العلوم من عالم الغي ب ومنها لآدم الأسماء

ولمّا كان علاج موسى عليه السّلام فى إخراج أمته من الظلمات إلى النور ، قريبا من علاج نبينا – عليه الصلاة والسلام – ذكره بإثره ، كما فعل فى سورة طه ، فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ٥ الى ٨]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقالَ مُوسى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)

قلت : (أَنْ أَخْرِجْ) : إما تفسيرية لا محل لها ، أي : وقلنا : أن أخرج لأن فى الإرسال معنى القول ، أو على إسقاط الخافض ، أي : بأن أخرج فإنّ صيغ الأفعال سواء فى الدلالة على المصدر ، فيصح أن توصل بها «أَنْ» الناصبة.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا كاليد والعصا ، وسائر معجزاته التسع ، وقلنا له : أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ بنى إسرائيل ، وفرعون وملأه مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، أما فرعون وملؤه فظاهر ، وأما بنو إسرائيل فقد كان فرعون فتن جلّهم ، وأضلهم مع القبط ، فكانوا أشياعا متفرقين ، لم يبق لهم دين. فإن قلت : إذا كان موسى عليه السّلام مبعوثا إلى القبط ، فلم لم يرجع إليهم بعد خروجه عنهم إلى الشام؟ فالجواب : أنه لما بلّغهم الرسالة قامت الحجة عليهم ،

فيجب عليهم أن يهاجروا إليه للدين.
ثم أمره بالتذكير فقال : وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ : بوقائعه التي وقعت على الأمم الدراجة قبلهم ، وأيام العرب :
حروبها. أو ذكّرهم بنعم اللّه وآلائه ، وبنقمه وبلائه فالأيام تطلق على المعنيين. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ فى بلائه ، شَكُورٍ لنعمائه. وإنما خصه لأنه إذا سمع ما نزل على من قبله من البلاء ، وأفيض عليهم من النعماء ، اعتبر وتنبه لما يجب عليه من الصبر والشكر. وقيل : المراد لكل مؤمن ، وإنما عبّر عنهم بذلك تنبيها على أن الصبر والشكر عنوان الإيمان. قاله البيضاوي.
وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ : حين أنجاكم مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ : رهطه ، يَسُومُونَكُمْ : يولونكم سُوءَ الْعَذابِ : أقبحه ، يستعبدونكم ويكلفونكم مشاق الأعمال ، وَيُذَبِّحُونَ

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٥
أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ ، قال البيضاوي : المراد بالعذاب هنا غير المراد به فى سورتى البقرة والأعراف لأنه هناك مفسر بالتذبيح والقتل ، ومعطوف عليه هنا ، فهو هنا إما جنس العذاب ، أو استعبادهم واستعمالهم بالأعمال الشاقة. هـ. وَفِي ذلِكُمْ الامتحان بَلاءٌ أي : ابتلاء مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ اختبركم به حتى أنقذكم منه ، ليعظم شكركم ، أو : فى ذلك الإنجاء بلاء ، أي : نعمة واختبار عظيم ، لينظر كيف تعملون فى شكر هذه النعمة.
ولذلك قال لهم موسى عليه السّلام : وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ أي : آذن ، بمعنى أعلم ، كتوعّد وأوعد ، غير أنّ تأذن أبلغ من آذن لما فى تفعّل من التكلف والمبالغة ، أي : أعلمكم ، وقال : واللّه لَئِنْ شَكَرْتُمْ يا بنى إسرائيل ما أنعمت به عليكم من الإنجاء وغيره ، بالإيمان والعمل الصالح ، وبالإقرار باللسان ، وإفراد النعمة للمنعم بالجنان ، لَأَزِيدَنَّكُمْ نعمة على نعمة. وهذا الخطاب ، وإن كان لبنى إسرائيل ، يعم جميع الخلق ، والزيادة إما من خير الدنيا ، أو ثواب الآخرة. وشكر الخواص يكون على السراء والضراء فتكون الزيادة فى الضراء ، إما فى الثواب أو فى التقريب. ثم ذكر ضده فقال : وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ ما أنعمت به عليكم ، وقابلتموه بالكفر والعصيان ، إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ فأعذبكم به على كفركم. قال البيضاوي : ومن عادة أكرم الأكرمين أن يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد. هـ. فصرح بوصول الزيادة إليهم ، ولم يقل : أعذبكم عذابا شديدا ، بل عظم عذابه فى الجملة.
وَقالَ مُوسى ، فى شأن من لم يشكر : إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً من الثقلين ، فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عن شكركم ، حَمِيدٌ : محمود على ألسنة خلقه ، من الملائكة وغيرهم. فكل ذرة من المخلوقات

ناطقة بحمده حالا أو مقالا ، فهو غنى أيضا عن حمدكم ، فما ضررتم بالكفر إلا أنفسكم حيث حرمتموها مزيد الإنعام ، وعرضتموها لشديد الانتقام. وباللّه التوفيق.

الإشارة : ذكر الحق تعالى فى هذه الآية مقامين من مقامات اليقين : الصبر والشكر ، ومدح من تخلق بهما واستعملهما فى محلهما ، فيركب أيهما توجه إليه منهما ، ويسير بهما إلى ربه. فالصبر عنوان الظفر ، وأجره لا ينحصر ، والشكر ضامن للزيادة ، قال بعض العارفين : (لم يضمن الحق تعالى الزيادة فى مقام من المقامات إلا الشكر) ، فدل أنه أفضل المقامات وأحسن الطاعات ، من حيث إنه متضمن للفرح باللّه ، وموجب لمحبة اللّه. ولا شك أن مقام الشكر أعلى من مقام الصبر لأن الشاكر يرى المنن فى طى المحن ، فيتلقى المهالك بوجه ضاحك لأنه لا يكون شاكرا حقيقة حتى يشكر فى السراء والضراء ، ولا يشكر فى الضراء حتى يراها سراء ، باعتبار ما يواجه به فى حال الضراء من الفتوحات القلبية ، والمواهب اللدنية ، فتنقلب النقمة نعمة. بخلاف مقام الصبر ، صاحبه يتجرع مرارة الصبر لأنه لم يترق إلى شهود المبلى فى حال بلائه ، ولو ترقى إلى شهوده للذّت لديه البلايا ، كما قال صاحب العينية :

تلذّ لى الآلام إذ كنت مسقمى وإن تختبرني فهى عندى صنائع

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٦

لكن هذه الأحوال تختلف على العبد باعتبار القوة والضعف فتارة تجده قويا يتلقى المهالك بوجه ضاحك ، وتارة تصادفه الأقدار ضعيفا فلا يبقى معه إلا الصبر وتجرع مرارة البلاء ، والعياذ باللّه. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه فى كتاب القصد : «رأيت كأنى مع النبيين والصديقين ، فأردت الكون معهم ، ثم قلت : اللهم اسلك بي سبيلهم مع العافية مما ابتليتهم ، فإنهم أقوى ونحن أضعف منهم ، فقيل لى : قل : وما قدّرت من شيء فأيّدنا كما أيدتهم».

ثم ذكّرهم بمن سلف قبلهم ، فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : آية ٩]

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩)

قلت : (شك) : فاعل بالمجرور ، و(فاطر) : نعت له.

يقول الحق جل جلاله ، حاكيا عن نبيه موسى عليه السّلام فى تذكير قومه ، أو من كلامه تذكيرا لهذه

الأمة :

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ : ما جرى عليهم حين عصوا أنبياءهم قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ كقوم شعيب ، وأمم كثيرة لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ لكثرة عددهم ، واندراس آثارهم. ولذلك قال ابن مسعود : كذب النسّابون. جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ بالمعجزات الواضحات ، فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ ليعضوا عليها غيظا مما جاءت به الرسل ، كقوله : عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ «١». أو : وضعوها عليها تعجبا منهم ، أو : استهزاء بهم ، كمن غلب عليه الضحك. أو إسكاتا للأنبياء ، وأمرا لهم بإطباق الأفواه ، أو : ردوها فى أفواه الأنبياء ، يمنعونهم من التكلم ، أو : ردوا أياديهم ، أي : نعم الأنبياء عليهم ، وهى : مواعظهم والشرائع التي أتوهم بها من عند اللّه ، ردوها فى أفواه الأنبياء حيث كذبوها ، ولم يعملوا بها ، كما تقول لمن لم يمتثل أمرك : ترك كلامى فى فمى وذهب. وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ على زعمكم ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا

---

(١) من الآية ١١٩ من سورة آل عمران.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٧

تَدْعُونَنا إِلَيْهِ من التوحيد والإيمان ، مُرِيبٍ : موقع فى الريبة ، أو : ذى ريبة ، وهو : قلق النفس بحيث لا تطمئن إلى شيء.

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ١٠ الى ١٢]

قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (١٠) قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَما لَنا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)

فأجابتهم الرسل عن دعواهم الشك فى الربوبية ، قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ : أفى وجوده شك ، أو فى ألوهيته ، أو فى وحدانيته شك؟ قال البيضاوي : أدخلت همزة الإنكار على الظرف لأن الكلام فى المشكوك فيه ، لا فى الشك ، أي : إنما ندعوكم إلى اللّه ، وهو لا يحتمل الشك لكثرة الأدلة ، وظهور دلالتها عليه. هـ. وأشار إلى ذلك بقوله : فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : خالقهما ومبدعهما على هذا الشكل الغريب ، والإتقان العجيب إذ لا يصدر إلا من إله عظيم القدرة ، باهر الحكمة ، واحد فى

ملكه لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا «١» ، وهو يَدْعُوكُمْ إلى الإيمان والتوحيد ، ببعثه إيانا ، والتصديق بنا ، لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ إن آمنتم ، أي : يغفر لكم بعض ذنوبكم ، وهو ما تقدم قبل الإسلام ، ويبقى ما يذنب بعده فى المشيئة ، أو : ما بينكم وبينه دون المظالم.

والجمهور : أنه يغفر للكافر ما سلف مطلقا ، وقيل : «مِنْ» : زائدة ، على غير مذهب سيبويه. قال البيضاوي : وجيئ بمن ، فى خطاب الكفرة ، دون المؤمنين فى جميع القرآن تفرقة بين الخطابين ، ولعل المعنى فيه أن المغفرة ، حيث جاءت فى خطاب الكفار ، مرتبة على الإيمان ، وحيث جاءت فى خطاب المؤمنين مشفوعة بالطاعة ، والتجنب عن المعاصي ، ونحو ذلك فيتناول الخروج عن المظالم. هـ. وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى : إلى وقت سماه اللّه ، وجعله آخر أعماركم. وقال الزمخشري تبعا للمعتزلة : يؤخركم إن آمنتم إلى آجالكم ، وإن لم تؤمنوا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت ، وهذا على قولهم بالأجلين. وأهل السنة يأبون هذا فإن الأجل عندهم واحد محتوم ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : التفكر والاعتبار أفضل عبادة الأبرار ، وفى الحديث : «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة».

فيتفكر العبد فيما سلف قبله من القرون الماضية والأمم الخالية ، كيف رحلوا عن ديارهم المشيدة ، وفروشهم الممهدة ، واستبدلوها بضيق القبور ، وافتراش التراب تحت الجنوب ، وجاءهم الموت وهم غافلون ، وتجرعوا كأسها وهم كارهون ، فلا ما كانوا أمّلوا أدركوا ، ولا إلى مافاتهم رجعوا ، قدموا على ما قدّموا ، وندموا على ما خلفوا ، ولم ينفع الندم وقد جف القلم. فيوجب هذا التفكر الانحياش إلى اللّه ، والمسارعة إلى طاعة اللّه ، والزهد فى هده الدار الفانية ، والتأهب للسفر إلى الدار الباقية فيفوز فوزا عظيما. وفى تكذيب الصادقين تسلية للعارفين ، وللمتوجهين من المريدين ، إذا قوبلوا بالإيذاء والتكذيب ، وباللّه التوفيق.

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٨

ثم ذكر ما أجاب به الكفار رسلهم ، فقال :

قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا يقول الحق جل جلاله : وقال الذين كفروا لرسلهم : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا لا فضل لكم علينا ، فلم تختصون بالنبوة دوننا ، ولو شاء اللّه أن يبعث رسلا إلى البشر لأرسلهم من جنس أفضل ، كالملائكة ، أو : ما أنتم إلا بشر ، والبشر لا يكون رسولا. قال ابن جزى : يحتمل أن يكون

استبعادا لتفضيل بعض البشر على بعض بالنبوة ، أو يكون إحالة لنبوة البشر ، والأول أظهر لطلبهم البرهان بقولهم : فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ ، ولقول الرسل : وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ. هـ. ثم قالوا للرسل : تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا من الأصنام بهذه الدعوى ، فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ : ببرهان بيّن يدل على فضلكم ، واستحقاقكم لهذه المرتبة التي هى مرتبة النبوة. كأنهم لم يعتبروا ما جاءوا به من البينات والحجج ، فاقترحوا عليهم آية أخرى تعنتا ولجاجا.

قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ : ما نحن إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ بالنبوة والرسالة ، فمنّ علينا بذلك ، وإن كنا بشرا مثلكم ، سلّموا لهم مشاركتهم فى الجنس ، وجعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة فضل اللّه ومنّه عليهم. وفيه دليل على أن النبوة مواهب عطائية لا كسبية.

ثم أجابوهم عما اقترحوا بقولهم : وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، فليس لنا الإتيان بآيات ، ولا فى قدرتنا أن نأتيكم بما اقترحتموه ، وإنما هو أمر متعلق بمشيئة اللّه ، يخص من يشاء بها ، على ما تقتضيه حكمته وسابق إرادته.

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ، فلنتوكل نحن عليه ، فى الصبر على معاناتكم ومعاداتكم. عمموا الأمر بذكر المؤمنين للإشعار بأن الإيمان موجب للتوكل ، وقصدوا به أنفسهم قصدا أوليا ، ألا ترى قولهم : وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ أي : أىّ عذر لنا فى ترك التوكل على اللّه؟ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا أي : طرقنا التي نعرفه بها ، فنوحده ، ونعلم أن الأمور كلها بيده ، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا : على أذاكم حتى يحكم الله بيننا ، وهو جواب عن قسم محذوف ، أكدوا به توكلهم ، وعدم مبالاتهم بما يجرى من الكفار عليهم. وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ أي : فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم ، المسبب عن إيمانهم. قاله البيضاوي تبعا للزمخشرى.

(٣/٤٨)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٩

قال ابن جزى : إن قيل : لم كرر الأمر بالتوكل؟ فالجواب عندى : أن قوله : وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ راجع إلى ما تقدم من طلب الكفار : فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ أي : حجة ظاهرة ، فتوكل الرسل فى ورود ذلك إلى اللّه. وأما قوله : فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ فهو راجع إلى قولهم : (وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا) أي : نتوكل على اللّه فى دفع أذاكم. هـ. وهو حسن ، لكن التعبير بالمتوكلين يقتضى أن التوكل حاصل ، والمطلوب الدوام عليه ، وقد يقال :

إنما عبّر ثانيا بفظ المتوكلين كراهية إعادة اللفظ بعينه ، أي : من كان متوكلا على اللّه فإنه الحقيق بذلك. وقال فى القوت : أي : ليتوكل عليه فى كل شىء من توكل عليه فى شىء. وهذا أحسن وجوهه.

قال فى الحاشية : والوجه الآخر : وعليه فليتوكل ، فى توكله من توكّل عليه فى الأشياء لأن الوكيل فى كل شيء واحد ، فينبغى أن يكون التوكل فى كل شيء واحد. هـ.

الإشارة : سر الخصوصية مستور بأوصاف البشرية ، ولا فرق بين خصوصية النبوة ، والولاية. سترها الحق تعالى غيرة عليها أن يعرفها من لا يعرف قدرها فلا يطلع عليها إلا من سبقت له من اللّه العناية ، وهبت عليه ريح الهداية. وفى الحكم : «سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية ، وظهر بعظمة الربوبية فى إظهار العبودية». وقال أيضا : «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه». قال فى لطائف المنن : فأولياء اللّه أهل كهف الإيواء ، فقليل من يعرفهم ، ولقد سمعت شيخنا أبا العباس المرسى رضي اللّه عنه يقول : معرفة الولي أصعب من معرفة اللّه فإن اللّه معروف بكماله وجماله ، وحتى متى تعرف مخلوقا مثلك ، يأكل كما تأكل ، ويشرب كما تشرب؟ قال فيه : وإذا أراد اللّه أن يعرفك بولي من أوليائه طوى عنك وجود بشريته ، وأشهدك وجود خصوصيته. هـ.

قلت : ومعنى : «طوى عنك وجود بشريته» هو : عدم الوقوف مع أوصافها اللازمة للنقائص ، بل تنفذ منها إلى شهود خصوصيته ، التي هى محل الكمالات. فأوصاف البشرية الذاتية للبشر لا تزول عن الولي ، ولا عن النبي كالأكل والشرب ، والنوم والنكاح ، والضعف والفقر ، وغير ذلك من نعوت البشر لأنها فى حقهم رداء وصوان لستر خصوصيتهم صيانة لها أن تتبدل بالإظهار ، وينادى عليها بلسان الاشتهار ، ولذلك اختفوا عن كثير من الخلق.

وإلى هذا أشار فى الحكم بقوله : «لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم البشرية».

وقال صاحب كتاب (أنوار القلوب) : للّه سبحانه عباد ضنّ بهم عن العامة ، وأظهرهم للخاصة ، فلا يعرفهم إلا شكل ، أو محب لهم ، وللّه عباد ضنّ بهم عن الخاصة والعامة ، وللّه عباد يظهرهم فى البداية ويسترهم فى النهاية ، وللّه عباد يسترهم فى البداية ويظهرهم فى النهاية ، وللّه عباد لا يظهر حقيقة ما بينه وبينهم إلى الحفظة فمن سواهم ، حتى يلقوه بما أودعهم منه فى قلوبهم ، وهم شهداء الملكوت الأعلى ، والصفح «١» الأيمن من العرش الذين

---

(١) الصفح : الجنب.

يتولى اللّه قبض أرواحهم بيده ، فتطيب أجسادهم به ، فلا يعدوا عليها الثرى ، حتى يبعثوا بها مشرقة

بنور البقاء الأبد مع الباقي الأحد عز وجل. هـ.

وقال أبو يزيد رضي اللّه عنه : أولياء اللّه تعالى عرائس ، ولا يرى العرائس إلا من كان محرما لهم ، وأما غيرهم فلا. وهم مخبأون عنده فى حجاب الأنس ، لا يراهم أحد فى الدنيا ولا فى الآخرة. هـ. وجميع ما أجاب به الأنبياء قومهم يجيب به الأولياء من أنكر عليهم ، من قوله : (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا) ، من التعلق بالأسباب والانهماك فى الحظوظ ، ومتابعة الهوى ، وحب الدنيا ، ومن قولهم : (فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ) إلى تمام ما أجابوا به. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر تخويف الكفار للرسل بإخراجهم من الديار ، فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ١٣ الى ١٧]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ (١٧)

قلت : (وَ اسْتَفْتَحُوا) : معطوف على (فَأَوْحى) إن كان الضمير للرسل ، واستئناف إن كان للكفار.

و(يُسْقى) :

معطوف على محذوف ، أي : يلقى فيها ويسقى ، و(صَدِيدٍ) : عطف بيان لماء ، و(يَتَجَرَّعُهُ) : صفة لماء ، أو حال من ضمير (يُسْقى).

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ تخويفا لهم : واللّه لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا ، حلفوا ليكونن أحد الأمرين إما إخراج الرسل من ديارهم ، أو عودهم إلى ملتهم ، والعود هنا بمعنى الصيرورة لأنهم لم يكونوا على ملتهم ، كما تقدم فى قصة شعيب عليه السّلام. ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول ، ولمن آمن معه ، فغلّب الجماعة على الواحد ، وقال الذين كفروا فى كل عصر لكل رسول أتاهم : لنخرجنك ، أو لتعودن فى ملتنا. فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ أي : إلى رسلهم ، مجتمعين أو مفترقين – على القولين – وقال فى إيحائه : واللّه لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ فنخلى بلادهم ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ أي : أرضهم وديارهم ،

لقوله : وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا «١». ذلِكَ الميراث والإسكان لِمَنْ خافَ مَقامِي أي : قيامه للحساب بين يدى فى القيامة ، أو قيامى على عبادى ، وحفظى لأعمالهم

، واطلاعى على سرهم وعلانيتهم. أو خاف عظمة ذاتى وجلالى ، وَخافَ وَعِيدِ أي : وعيدي بالعذاب ، أو عذابى الموعود للكفار.

وَاسْتَفْتَحُوا أي : استفتح الرسل : طلبوا من اللّه الفتح على أعدائهم ، أو القضاء بينهم وبين أعاديهم ، كقوله :

رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ «٢» واستفتح الكفرة واستنصروا على غلبة الرسل ، على نحو قول أبى جهل فى غزوة بدر : اللهم ، أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا يعرف ، فأحنه الغداة ، أي : أهلكه. أو : استفتح الفريقان معا ، فكل واحد منهما سأل اللّه أن يهلك المبطل وينصر المحق. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن : بكسر التاء على الأمر للرسل بطلب الفتح. وَخابَ : خسر كُلُّ جَبَّارٍ : متكبر على اللّه ، عَنِيدٍ : معاند للحق ولمن جاء به. وهذا هو الفتح الذي فتح لهم ، وهو : خيبة المتكبرين وفلاح المؤمنين.

ثم ذكر مآل خيبتهم بقوله : مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ أي : أمامه وبين يديه ، فإنه مرصد بها ، واقف على شفيرها فى الدنيا ، مبعوث إليها بعد الموت فيلقى فيها ، وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ ، وهو ما يسيل من جلود الكفار من القيح والدم. يَتَجَرَّعُهُ : يتكلف جرعه ، أي : زهوقه فى حلقه. روى : «أن الكافر يؤتى بالشربة منه فيتكرهها ، فإذا أدنيت منه شوت وجهه ، وسقطت فيها فروة رأسه ، فإذا شربها قطعت أمعاءه» «٣». فيتجرعه وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ أي : لا يقارب أن يسيغه ، أي : يبتلعه بصعوبة فكيف يسيغه ، بل يكلف به ويطول عذابه ثم يبتلعه لأن نفى «كاد» يقتضى الوقوع. والسوغ : جواز الشراب على الحلق بسهولة ، وهذا بخلافه. وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ أي : أسباب الموت مِنْ كُلِّ مَكانٍ من أجل الشدائد التي تحيط به من جميع الجهات. أو : من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وإبهام رجليه. وَما هُوَ بِمَيِّتٍ فيستريح ، وَمِنْ وَرائِهِ : من بين يديه عَذابٌ غَلِيظٌ أي : يستقبل فى كل وقت عذابا أشد مما هو عليه ، وقيل : هو الخلود فى النار ، وقيل : حبس الأنفاس فى الأجساد. قاله الفضيل بن عياض. وقيل : قوله : وَاسْتَفْتَحُوا : كلام منقطع عن قصة الرسل ، بل نزل فى أهل مكة حين استفتحوا بطلب المطر فى السنة التي أخذتهم بدعوة الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، فخيب اللّه رجاءهم ولم يسقهم ، وأوعدهم أن يسقيهم – بدلا من سقياهم المطر – صديد أهل النار. قال معناه البيضاوي.

---

(١) من الآية ١٣٧ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٨٩ من سورة الأعراف.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٢٦٥) والترمذي فى (أبواب صفة جهنم ، باب ما جاء فى صفة شراب أهل النار) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٥١) وصححه ووافقه الذهبي ، عن أبى أمامة مرفوعا.

الإشارة : ما خوّفت الكفار به رسلهم خوفت به العوام فقراءهم وأولياءهم ، قال التجيبى ، فى الإنالة ، لما تكلم على خفاء الأولياء ، قال : ومعلوم أن العصمة لم تثبت إلا للنبيين والرسل – عليهم الصلاة والسلام – وأنّ غيرهم يصيب ويخطئ ، ويذنب ويتوب ، لكن لما سطرت مناقب الرجال ، وكراماتهم ، ولم تذكر سيئاتهم ، وطال العهد بهم ، ظن أكثر الخلق أن ليس لهم سيئات ، وقد كان لهم فى أزمانهم المحب والمبغض ، والمسلّم والمنتقد. ثم قال : فمن يرضى يقول أحسن ما يعلم ، ومن يسخط يقول أقبح ما يعلم ، وقد رأى أولئك فى أزمانهم من الأذى والتنقص ، وإساءة الظن بهم ما كان يقصر عنه صبر غيرهم ، وقد أخرج أبو يزيد البسطامي من بسطام مرارا ، ورفع الشبلي والخواص والنوري للسلطان ، وتستر الجنيد بالفقه حين ضيّق على الفقراء ، وقبض على الحلاج ، وضرب ، ومثّل به ، على أنه ساحر زنديق. هـ. المراد منه.

قلت : وقد وقع بنا فى مدينة تطوان أيام التجريد أمثال هذا ، فقد خوفنا بالضرب مرارا ، وسجنا وأخرجنا من زاويتنا ، وقال لنا محتسبهم : واللّه لنخرجنكم من مدينتنا ، ونركبكم فى سفينة إلى بر النصارى ، فقلت له : حبا وكرامة ، ولعلنا نذكرهم اللّه حتى يسلموا ، ولما وصل الخبر بهذه المقالة إلى شيخنا ، كتب لنا بهذه الآية : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ .... إلخ. وكل آية فى الكفار تجر ذيلها على من تشبه بهم ، وإن كان مسلما. وباللّه التوفيق.

ثم ضرب مثلا لعمل الكفار ، فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : آية ١٨]

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٨)

قلت : (مَثَلُ) : مبتدأ ، والخبر محذوف عند سيبويه ، أي : فيما يتلى عليكم مثلهم. وقال الفراء : الخبر ما بعده ، وهو جملة : (أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ) ، أو (أَعْمالُهُمْ) : بدل ، والخبر : (كَرَمادٍ) ، وعلى قول سيبويه تكون جملة : (أَعْمالُهُمْ) :

مستأنفة لبيان مثلهم.

يقول الحق جل جلاله : مَثَلُ أعمال الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ فى عدم الانتفاع بها وذهابها :

كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فى الهوى بسرعة فِي يَوْمٍ عاصِفٍ : شديد ريحه. والعصف : اشتداد الريح. وصف به زمانه للمبالغة ، كقولهم : نهاره صائم ، وليله قائم. شبه صنائعهم من الصدقة ، وصلة الرحم ، وإغاثة الملهوف ، وعتق الرقاب ، ونحو ذلك من مكارمهم فى حبوطها – لبنائها على غير أساس من الإيمان باللّه ، والتوجه بها إليه – بغبار طارت به الريح العاصفة فِي يَوْمٍ عاصِفٍ ، لا يَقْدِرُونَ يوم القيامة

مِمَّا كَسَبُوا من أعمالهم عَلى شَيْءٍ من الانتفاع بها لحبوطها ، وتلاشيها ، فلا يقدرون منها على شيء ، ولا يجدون ثوابها ،

(٥٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٣

وحيل بينهم وبين النفع ، كما حالت الرياح بينك وبين ما تنسفه ، فهو كما قيل : فذلكة التمثيل. ذلِكَ إشارة إلى ضلالهم مع حسبانهم أنهم محسنون ، هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ أي : هو الغاية فى البعد عن طريق الحق.

الإشارة : العمل الذي يثبت لصاحبه هو الذي يصحبه الإخلاص فى أوله ، والإسرار فى آخره ، والتبري فيه من الحول والقوة ، وفى الحديث عنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «إنّ الإبقاء على العمل أشدّ من العمل ، وإنّ الرجل ليعمل العمل فيكتب له عمل صالح ، معمول به فى السر ، يضعّف أجره بسبعين ضعفا ، فلا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس ويعلنه ، فيكتب علانيته ، ويمحى تضعيف أجره كله ، ثم لا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس ويحب أن يحمد عليه ، فيمحى من العلانية ويكتب رياء ، فاتقى اللّه امرؤ صان دينه ، وإن الرياء شرك». رواه البيهقي «١».

وبهذا تظهر فضيلة عمل القلوب ، كعبادة التفكر والاعتبار ، أو الشهود والاستبصار ، أو نية صالحة وهدى صالح ، أو زهد فى القلب ، وورع وصبر ، وشكر وحلم ، وغير ذلك من أعمال القلوب ، التي لا يطلع عليها ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، بل يتولى جزاءه أكرم الأكرمين. ولذلك قيل : ذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح. وقال عليه الصلاة والسلام : «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة» ولهذا أمر به – أي :

بالتفكر – بعد ضرب المثل للعمل الظاهر ، فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ١٩ الى ٢٠]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد ، أو أيها السامع ، أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ لتدل على الحق ، أو بالوجه الذي يحقّ أن تخلق لأجله ، وهو التعريف بخالقها ، وبقدرته الباهرة التي تقدر على الإيجاد والإعدام ، ولذلك قال : إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، أي : إن يشأ يعدمكم ويستبدل مكانكم خلقا آخر. فإنّ من قدر على إيجاد صورهم ، وما تتوقف عليه مادتهم ، قادر على أن يبدلهم بخلق آخر وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ أي : بمتعذر ، أو ممتنع لأن قدرته عامة التعلق ، لا تختص

بمقدور دون آخر ، ومن كان هذا شأنه كان حقيقا بأن يفرد بالعبادة والقصد رجاء لثوابه ، وخوفا من عقابه يوم الجزاء ، الذي أشار إليه بقوله : وَبَرَزُوا لِلَّهِ ... إلخ.

---

(١) فى شعب الإيمان (باب فى إخلاص العمل لله وترك الرياء ح ٦٨١٣ ، ح ٦٨٦٤) من حديث أبى الدرداء ، مرة بلفظ (إن الإبقاء) ومرة بلفظ «إن الاتقاء».

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٤

الإشارة : ألم تر أن اللّه خلق سماوات الأرواح ، لشهود الحق فى مقام التعريف ، وأرض النفوس لعبادة الحق فى مقام التكليف. الأرواح مستقرها سماء الحقائق ، والأشباح مقرها أرض الشرائع. عالم الأرواح محل التعريف ، وعالم الأشباح محله التكليف. والأرواح لا تنفك عن الأشباح فى الصورة الخلقية ، غير أنها تعرج عنها بالتصفية والذكر ، حتى تترقى إلى عالم الأرواح ، فلا تشهد إلا الأرواح فى محل الأشباح وهذا من أعظم أسرار الربوبية ، التي يطلع عليها العارفون باللّه ، فإذا أطلعهم اللّه على هذا المقام كوشفوا بأسرار الذات العلية ، وبعالم الأرواح الذي هو مظهر أرواح الأنبياء والرسل ، فلا يغيبون عن اللّه ساعة ، ولا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ولا عن مقام أرواح الأنبياء والأولياء.

وفى هذا المقام قال الشيخ أبو العباس المرسى رضي اللّه عنه : لى ثلاثون سنة ، ما غاب عنى الحق طرفة عين. وقال أيضا :

لو غاب عنى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ساعة ما عددت نفسى من المسلمين. وقال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل العمراني رضي اللّه عنه : مما منّ اللّه به علىّ أنى ما ذكرت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولا خطر على قلبى إلا وجدتني بين يديه ... إلخ كلامه.

نفعنا اللّه بهم.

وأهل هذا المقام موجودون فى كل زمان ، فإن القادر فى زمانهم هو القادر فى زماننا ، وفى قوله تعالى : إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ .. الآية ، إشارة إلى هذا ، أي : إن يشأ يذهبكم عن شهود أنفسكم ، ويأت بخلق جديد ، تشاهدون به أسرار ربكم ، وما ذلك على اللّه بعزيز. قال أبو المواهب التونسى رضي اللّه عنه : حقيقة الفناء محو واضمحلال ، وذهاب عنك وزوال. هـ. فيبرزون من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح ، كما قال تعالى :

[سورة إبراهيم (١٤) : آية ٢١]

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ

شَيْءٍ قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ (٢١)

قلت : (تَبَعاً) : جمع تابع ، أو مصدر نعت به للمبالغة على حذف مضاف ، أي : كنا لكم ذا تبع ، و(مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْ ءٍ) : من ، الأولى للبيان ، والثانية زائدة ، هذا المختار. و(مَحِيصٍ) : إما مصدر ، أو اسم مكان.

يقول الحق جل جلاله : وَبَرَزُوا لِلَّهِ أي : لأمر اللّه جَمِيعاً ، فيبرزون من قبورهم يوم القيامة حفاة عراة ، لفصل القضاء ، أو : برزوا للّه على ظنهم فإنهم كانوا يرتكبون الفواحش خفية ، ويظنون أنها تخفى على اللّه ، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا للّه عند أنفسهم. وإنما عبّر بالماضي لتحقق وقوعه. فيقول حينئذ الضُّعَفاءُ وهم :

الأتباع ، لضعف رأيهم عندهم ، لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا وهم الرؤساء الذين استتبعوهم وغووهم : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ

تَبَعاً فى الكفر ، وتكذيب الرسل ، والإعراض عن نصحهم ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ أي : فهل أنتم دافعون عنا شيئا من عذاب اللّه؟.

قالُوا ، أي : رؤساؤهم ، فى جوابهم واعتذارهم : لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ أي : لو هدانا اللّه للإيمان ، ووفقنا إليه لهديناكم ، ولكن ضللنا فأضللناكم ، أي : اخترنا لكم ما اخترنا لأنفسنا ، ولو هدانا اللّه لطريق النجاة من العذاب لهديناكم وأغنيناه عنكم ، لكن سدّ دوننا طريق الخلاص ، سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ، أي : مستو علينا الجزع والصبر ، ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ : من مهرب ومنجى ، ويحتمل أن يكون قوله : سَواءٌ عَلَيْنا .. إلخ ، من كلام الفريقين معا ، ويؤيده ما روى أنهم يقولون : تعالوا نجزع ، فيجزعون خمسمائة عام ، فلا ينفعهم ، فيقولون : تعالوا نصبر ، فيصبرون كذلك ، ثم يقولون : سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ. نسأل اللّه العصمة بمنّه وكرمه.

الإشارة : إذا ترقى العارفون ، ومن تعلق بهم ، عن عالم الأشباح إلى عالم الأرواح ، وبرزوا لشهود اللّه فى كل شىء ، وقبل كل شىء ، وبعد كل شىء ، وعند كل شىء ، وتنزهوا فى حضرة الأسرار ، ورفعوا يوم القيامة مع المقربين الأبرار ، بقي ضعفاء اليقين الذين تعوقوا عن صحبتهم ، فى غم الحجاب ، وتعب الحس والخواطر ، مسجونين فى سجن الأكوان ، فيقولون لمن عوّقهم عن صحبة العارفين من أهل الرئاسة والجاه : إنا كنا لكم تبعا ، فهل تمنعون شيئا مما نحن فيه من غم الحجاب ، وسقوط الدرجة؟ فيقولون : لو هدانا اللّه لصحبتهم لهديناكم. فإذا نظروا يوم القيامة إلى ارتفاع درجاتهم ضجوا ، وفزعوا على ما فاتهم ، فلا ينفعهم ذلك فما لهم من محيص عن تخلفهم عن مقام المقربين. روى أن

أهل عليين إذا أشرفوا على الأسفلين تشرق منازلهم من أنوار وجوههم.
وسيأتى – إن شاء اللّه – الحديث عند قوله : فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ «١».
ثم ذكر خطبة الشيطان على أهل النار ، فقال :
[سورة إبراهيم (١٤) : آية ٢٢]
وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٢)
قلت : (إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ) : الاستثناء منقطع ، ويجوز الاتصال ، و(بِما أَشْرَكْتُمُونِ) : مصدرية ، أو موصولة اسمية ، و(مِنْ قَبْلُ) : يتعلق بأشركتمون ، وعلى الثاني : بكفرت.

---

(١) الآية ١٧ من سورة السجدة.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٦
يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الشَّيْطانُ ، أي : إبليس الأقدم لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ أي : أمر الحساب ، وفرغ منه ، ودخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار. روى أنه ينصب له منبر من نار ، فيقوم خطيبا فى النار على أهل النار ، يعنى على الأشقياء من الثقلين ، فيقول فى خطبته : إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ، أي : وعدا حقا أنجزه لكم ، وهو وعد البعث والجزاء ، وَوَعَدْتُكُمْ وعد الباطل ، وهو : ألّا بعث ولا حساب ، وإن كان واقعا شيء من ذلك فالأصنام تشفع لكم ، فَأَخْلَفْتُكُمْ ، أي : فظهر خلاف ما وعدتكم ، جعل تبين خلف وعده كالإخلاف منه مجازا. وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ من تسلط ، فألجئكم إلى الكفر والمعاصي ، إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ إلا دعائى إياكم إليها بتسويل وتزيين ، فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، وهو ليس من جنس التسلط ، لكنه تهكم بهم ، على طريقة قوله :
تحيّة بينهم ضرب وجيع «١».
ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا ، أي : ما تسلطت عليكم بالقهر ، لكن دعوتكم فأسرعتم إجابتى ، فَلا تَلُومُونِي فإنّ من اشتهر بالعداوة لا يلام على أمثال ذلك ، وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ حيث أطعتمونى حين دعوتكم ، ولم تطيعوا ربكم لما دعاكم. ولا حجة للمعتزلة فى الآية على أن العبد يخلق أفعاله لأن كسب العبد مقدر فى ظاهر الأمر ، لقيام عالم الحكمة ، وهو رداء لعالم القدرة ، فالقدرة تبرز ، والحكمة تستر ، وهو ما يظهر من اختيار العبد ، ولا اختيار له فى الحقيقة قال تعالى : وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما

فَعَلُوهُ «٢» ، وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ «٣».

ثم قال لهم : ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ : بمغيثكم من العذاب ، وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ : بمغيثي ، إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ، أي : إنى كفرت اليوم بإشراككم إياى من قبل هذا اليوم فى دار الدنيا ، بمعنى : تبرأت منه واستنكرته ، كقوله تعالى : وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ «٤». أو : إنى كفرت باللّه الذي أشركتمونى معه فى طاعته من قبل ، حين امتنعت من السجود. والأول أظهر.

قال تعالى : إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ. ويحتمل أن يكون من تتمة خطبة الشيطان ، قال البيضاوي : وفى حكاية أمثال ذلك لطف للسامعين ، وإيقاظ لهم ، حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم. هـ.

الإشارة : ينبغى لك أيها العبد الصالح الناصح لنفسه أن تصغى بسمع قلبك إلى هذه المقالة ، التي تصدر من الشيطان عند فوات الأوان ، فتبادر إلى خلاص نفسك مادمت فى قيد حياتك ، قبل حلول رمسك «٥» ، قبل أن تزل

---

(١) عجز بيت أوله : وخيل قد دلفت ، لها نجيع. [.....]

(٢) من الآية ١١٢ من سورة الأنعام.

(٣) من الآية ٣٠ من سورة الإنسان ، ومن الآية ٢٩ من سورة التكوير.

(٤) من الآية ١٤ من سورة فاطر.

(٥) أي : دخول القبر.

بك القدم ، حيث لا ينفعك الندم ، فتحاسب نفسك ، وتتدبر فى عواقب أمرك ، وتصحح عقائد توحيدك ، وتعمل جهدك فى طاعة ربك ، وتجتنب مواقع غرور الشيطان ، وتعتمد على فضل الكريم المنان ، وتجعل الموت نصب عينيك ، وما هو مستقبل تجعله حاصلا ، وما هو متوقع تجعله واقعا فكل ما هو آت قريب ، و(إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) «١». وفى الحكم : «لو أشرق نور اليقين فى قلبك لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها ، ولرأيت محاسن الدنيا وكسفة الفناء ظاهرة عليها». وباللّه التوفيق.

ثم شفع بأضداد من غرّهم الشيطان ، فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : آية ٢٣]

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ

فِيها سَلامٌ (٢٣)

يقول الحق جل جلاله : وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا ، أي : أدخلهم اللّه على أيدى الملائكة جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ، فيدخلونها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ بأمره ، فيأذن للملائكة أن تدخلهم حين يقضى بينهم.

تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ أي : تحييهم الملائكة ، أو الخدام ، حين يتلقونهم يسلمون عليهم ، ويهنؤنهم ، على ما فى الحديث.

الإشارة : فى ذكر هذه الآية بعد خطبة الشيطان تنبيه على وجه الخلاص منه ، حتى لا يكون من أهل خطبته ، وهو تصحيح الإيمان وتقوية مواده ، وهو ما ذكرنا قبل فى مواد طمأنينة أهل الإيمان. وإن أسعده اللّه بصحبة عارف رقّاه إلى شهود العيان ، فلا يكون للشيطان ولا لغيره عليه سلطان ، لتحقيق عبوديته ، وارتقائه إلى شهود عظمة ربوبيته قال تعالى : إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ «٢» ، وهم الذين رسخت فى قلوبهم شجرة الإيمان ، وارتفعت أغصانها إلى الرحمن ، الذي أشار إليها بقوله :

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ٢٤ الى ٢٧]

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ (٢٧)

---

(١) من الآية ١٣٤ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية ٤٢ من سورة الحجر.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٨

قلت : (كَلِمَةً طَيِّبَةً) : يجوز أن يكون مفعولا بمحذوف ، أي : جعل كلمة ، وتكون الجملة تفسيرية لضرب المثل ، وأن تكون (كَلِمَةً) : بدلا من (مَثَلًا) ، و(شجرة) : صفة لها ، أو خبرا عن مضمر ، أي : هى شجرة.

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد ، أو أيها السامع ، كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لأهل «لا إله إلا اللّه» ، وهم : أهل التوحيد ، الذين رسخ التوحيد فى قلوبهم ، وعبّروا عنه بألسنتهم. فمثال الكلمة الطيبة التي نطقوا بها ، ورسخ معناها فى قلوبهم كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ : كالنخلة مثلا ، أَصْلُها ثابِتٌ فى الأرض ،

غائص بعروقه فيها ، وَفَرْعُها فِي السَّماءِ أي : أعلاها. أو يريد الجنس ، أي : فروعها وأفنانها فى السماء ، تُؤْتِي أُكُلَها :

تعطى ما يؤكل من ثمرها كُلَّ حِينٍ وقّته اللّه لإثمارها ، فقيل : سنة ، وبه قال ابن عباس وجماعة من المفسرين والفقهاء ، واستدلوا بها على من حلف لا يكلم أخاه حينا لزمه سنة ، وعن ابن عباس أيضا والضحاك وغيرهما :

كُلَّ حِينٍ أي : غدوة وعشية ، ومتى أريد جناها. قلت : وهذا هو الظاهر.

واختلف فى هذه الشجرة الطيبة ، التي ضرب اللّه بها المثل لكلمة الإخلاص ، فقيل : غير معينة ، وقيل : النخلة ، وبه قال الجمهور. قال الشطيبى : وقيل : جوزة الهند ، فإنها ثابتة الأصل ، متصلة النفع ، يكون طعمها أولا لبنا ، ثم عسلا ، ثم تنعقد طعاما ، ويصنع بلبنها ما يصنع بلبن المواشي ، ثم يكون كالخل ، ثم كالخمر ، ثم كالزيت ، كل هذا قبل عقد الطعم ، وأما النخلة فهى : ستة أشهر طلع رخص ، وستة أشهر رطب طيب ، فنفعه متصل. وقال أبو حنيفة :

إنه ببلاد اليمن نوع من التمر ، يقال له : الباهين ، يطعم السنة كلها. هـ. قلت : وقد ذكر ابن مقشب جوزة الهند ، ووصفها كما قال الشطيبى ، وقوله : «فى النخلة ستة أشهر ..» إلخ ، فيه نظر ، وصوابه : ثلاثة ، فإن المعاينة ترده.

والمشبه بهذه الشجرة : المؤمن الكامل الدائم نفعه ، المتصل علمه ، أوقاته معمورة بذكر اللّه ، أو تذكير عباد اللّه ، وحركاته وسكناته فى طاعة اللّه ، حيث أراد بها وجه اللّه ، فكل حين وساعة يصعد منه عمل إلى اللّه.

ثم قال تعالى : وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ لأن فى ضربها زيادة إيضاح وإفهام وتذكير فإنه تصوير للمعانى وتقريبها من الحس ، لتفهم سريعا.

ثم ذكر ضدها فقال : وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كلمة الكفر (كَشَجَرَةٍ) كمثل شجرة خَبِيثَةٍ ، كالحنظلة مثلا ، اجْتُثَّتْ : استؤصلت ، وأخذت جثتها ، وقلعت بالكلية (مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ) ، أي : قطعت من فوق الأرض لأن عروقها قريبة منه ، ما لَها مِنْ قَرارٍ : استقرار. وهذا فى مقابلة قوله : أَصْلُها ثابِتٌ. قال البيضاوي :

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٩

واختلف فى الكلمة والشجرة ففسرت الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد – أي : (لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ) ، ودعوة الإسلام والقرآن ، والكلمة الخبيثة بالإشراك باللّه تعالى ، والدعاء إلى الكفر ، وتكذيب الحق. ولعل

المراد بهما ما يعم ذلك ، فالكلمة الطيبة : ما أعرب عن حق ، أو دعا إلى صلاح ، والكلمة الخبيثة : ما كان على خلاف ذلك. وفسرت الشجرة الطيبة بالنخلة ، وروى ذلك مرفوعا ، وبشجرة فى الجنة ، والخبيثة بالحنظلة ، ولعل المراد بهما أيضا ما يعم ذلك. هـ.

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ وهو : لا إله إلا اللّه ، أو كل ما يثبت فى القلب ، ويتمكن فيه من الحق ، بالحجة الواضحة فِي الْحَياةِ الدُّنْيا مدة حياتهم ، فلا يزلون إذا افتتنوا فى حياتهم ، أو عند موتهم ، وهى حسن الخاتمة ، وَفِي الْآخِرَةِ عند السؤال ، فلا يتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم فى القبر ، وعند الموقف ، فلا تدهشهم أهوال القيامة. روى أنه صلى اللّه عليه وسلم ذكر قبض روح المؤمن فقال : «ثمّ تعاد روحه فى جسده ، فيأتيه ملكان ، فيجلسانه فى قبره ، ويقولان له : من ربّك ، وما دينك ، ومن نبيّك؟ فيقول : ربى اللّه ، ودينى الإسلام ، ونبيى محمد صلى اللّه عليه وسلم. فينادى مناد من السّماء : أن صدق عبدى. فذلك قوله تعالى : يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ» «١».

قلت : والقدرة صالحة لهذا كله. قال الغزالي : هو أشبه شيء بحال النائم.

وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والتقليد ، فلا يهتدون إلى الحق ، ولا يثبتون فى مواقف الفتن. وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ من تثبيت بعض ، وإضلال آخرين ، من غير اعتراض عليه ولا تعقيب لحكمه.

الإشارة : الكلمة الطيبة ، هى كلمة التوحيد ، والشجرة الطيبة هى شجرة الإيمان ، وأصلها هو : التوحيد الثابت فى القلب ، وفروعها : الفرائض والواجبات ، وأغصانها : السنن المؤكدات ، وأوراقها : المندوبات والمستحبات ، وأزهارها :

الأحوال والمقامات ، وأذواقها : الوجدان وحلاوة المعاملات ، وانتهاء طيب أثمارها : العلوم وكشف أسرار الذات ، الذي هو مقام الإحسان ، وهى معرفة الشهود والعيان. فمن لم يبلغ هذا المقام لم يجن ثمرة شجرة إيمانه. ومن نقص شيئا من هذه الفروع نقص بقدرها من شجرة إيمانه ، إمّا من فروعها ، أو من أغصانها ، أو من ورقها ، أو من حلاوة أذواقها ، أو من عرف أزهارها ، أو من طيب ثمرتها. ومعلوم أن الشجرة إذا نبتت بنفسها فى الخلاء ، ولم تلقّح كانت ذكّارة ، تورق ولا تثمر ، فهى شجرة إيمان من لا شيخ له يصلح للتربية ، فإن الفروع والأوراق كثيرة ، والثمار ضعيفة ، أىّ ريح هاج عليها أسقطها. وراجع ما تقدم فى إشارة قوله تعالى : وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ «٢». وباللّه التوفيق.

---

(١) أخرجه بنحوه مطولا أبو داود فى (السّنة ، باب المسألة فى القبر) والحاكم فى المستدرك (١/ ٣٧) وصححه من حديث البراء بن عازب. وأصل الحديث فى الصحيحين.

(٢) من الآية ٣٥ من سورة المائدة.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٦٠

ثم ذكر وبال من أنكر هذه النعمة – أعنى نعمة الإيمان – فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ٢٨ الى ٣٠]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا شكر نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً بأن وضعوا الكفر مكان الشكر ، أو : بدلوا نفس النعمة كفرا فإنهم لما كفروها سلبت منهم ، فصاروا تاركين لها محصلين للكفر مكانها كأهل مكة ، خلقهم اللّه من نسل إسماعيل عليه السّلام ، وأسكنهم حرمه ، وجعلهم خدّام بيته ، ووسّع عليهم أبواب رزقه ، وعطف عليهم قلوب خلقه ، وتمم شرفهم ببعثة نبيه محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فكفروا ذلك ، فقحطوا ، وجاعوا حتى أكلوا الميتة ، وأسروا وقتلوا يوم بدر ، وصاروا كذلك مسلوبى النعمة ، موصوفين بالكفر ، وعن عمر بن الخطاب وعلىّ بن أبى طالب – رضى اللّه عنهما – : أنها نزلت فى الأفجرين من قريش : بنى المغيرة ، وبنى أمية فأمّا بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فمتّعوا إلى حين. وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ : من أطاعهم فى الكفر والتبديل ، أي : أنزلوهم دارَ الْبَوارِ : دار الهلاك ، بحملهم على الكفر معهم. ثم فسرها بقوله : جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها :

يحترقون فيها ، وَبِئْسَ الْقَرارُ وبئس المستقر جهنم.

ثم بيّن كفرهم ، فقال : وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً : أشباها وأمثالا ، يعبدونها معه ، لِيُضِلُّوا «١» عَنْ سَبِيلِهِ عن طريق التوحيد ، أي : ليكون عاقبتهم الضلال أو الإضلال ، على القراءتين ، أي : ليضلوا فى أنفسهم ، أو ليضلوا غيرهم. وليس الضلال أو الإضلال كان غرضهم فى اتخاذ الأنداد ، ولكن لمّا كان نتيجته وعاقبته جعل كالغرض.

قُلْ تَمَتَّعُوا بشهواتكم الدنيوية ، فإنها فانية ، أو بعبادتكم الأوثان ، فإنها من قبيل الهوى ، والأمر للتهديد.

وفى التهديد بصيغة الأمر إيذان بأن المهدد عليه كالمطلوب لإفضائه إلى المهدد به ، وأن الأمرين كائنان لا محالة ، فلا بد من وقوع تمتعهم ، ولا بد من إفضائهم إلى النار. ولذلك علقه بقوله : فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ، وأن المخاطب ، لانهماكه فيه ، كالمأمور به من آمر مطاع. قاله البيضاوي.

الإشارة : ظهور أهل التربية فى زمان الغفلة والجهل نعمة عظيمة ، لكن لا يعرفها إلا من سقط عليها ، ومن أنكرها ، وسدّ بابها ، وعوّق الناس عن الدخول فى طريقها ، فقد بدل نعمة اللّه كفرا ، وأحلّ الناس – من تبعه – دار

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو : بفتح الياء ، وقرأ الباقون بضمها ، من أضل. انظر : الإتحاف (٢/ ١٦٩).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٦١

البوار ، وهى : الإقبال على الدنيا ، والانهماك فى الغفلة ، وخراب الباطن من نور اليقين ، وكثرة الخواطر والوساوس ، والحرص والجزع والهلع ، وغير ذلك من أمراض القلوب. وأىّ عذاب للمؤمن أشد من هذا فى الدنيا؟ ويسقط فى الآخرة عن درجة المقربين ، ومن لم يصحب أهل التوحيد الخالص لا يخلو من عبادة أنداد وأشباه بمحبته لهم والركون إليهم. ومن أحب شيئا فهو عبد له. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه ذات يوم : إنا لا نحب إلا اللّه ، ولا نحب معه شيئا سواه. فقال له بعض الحاضرين : قال جدك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «النفس مجبولة على حب من أحسن إليها». فقال له الشيخ : إنا لا نرى الإحسان إلا من اللّه ، ولا نرى معه غيره. هـ. بالمعنى.

ثم ذكر ضد أهل الشرك ، فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : آية ٣١]

قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (٣١)

قلت : (يُقِيمُوا) : جواب شرط مقدر ، يتضمنه قوله : (قُلْ) ، تقديره : إن تقل لهم أقيموا يقيموا ، ومعمول القول ، على هذا ، محذوف. وفيه تنبيه على أنهم لفرط مطاوعتهم للرسول – عليه الصلاة والسلام – ، بحيث لا ينفك فعلهم عن أمره ، وأنه كالسبب الموجب له ، أي : مهما قلت أقاموا وأنفقوا. وقيل : جزم بإضمار لام الأمر. ولا يصح أن يكون جواب الأمر من غير حذف لأن أمر المواجهة لا يجاب بلفظ الغيبة. انظر البيضاوي. وقال ابن عطية : إلّا إن ضمّن (قُلْ) معنى : بلّغ أو أدّ ، فيصح أن يكون (يُقِيمُوا) : جواب أمره. و(سِرًّا وَعَلانِيَةً) : حالان ، أو ظرفان ، ومن قرأ : «لا بيع» بالبناء «١» فقد بنى «لا» مع اسمها بناء التركيب ، ومن قرأ بالرفع فقد أهملها.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ، خصهم بالإضافة إليه تشريفا لهم ، وتنويها بقدرهم ، وتنبيها على أنهم الذين قاموا بحقوق العبودية. قل لهم يا محمد : يُقِيمُوا الصَّلاةَ التي هى عنوان الإيمان ، بإتقان شروطها وأركانها وآدابها ، وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ من الأموال ، فرضا ونفلا ، سِرًّا وَعَلانِيَةً أي : مسرين ومعلنين ، أو فى سر وعلانية ، والأحب : إعلان الواجب ، وإخفاء المتطوع به ، إلا فى محل الاقتداء لأهل الإخلاص. مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ فيبتاع المقصر ما يتدارك به تقصيره ، أو ما

يفدى به نفسه ، وَلا خِلالٌ : ولا مخالة ومودة تنفع فى ذلك اليوم ، حتى ينفع الخليل خليله ، وإنما ينفع العمل الصالح ، كالإنفاق لوجه اللّه ، وإقام الصلاة ، وغير ذلك.

الإشارة : قد مدح اللّه هاتين الخصلتين : الصلاة والإنفاق ، وأمر بهما فى مواضع من القرآن لأنهما عنوان الصدق ، أحدهما : عمل بدني ، والآخر : عمل مالى. أما الصلاة فإنها طهارة للقلوب ، واستفتاح لباب الغيوب ، وهى

---

(١) قرأ ابن كثير وابن عمرو ويعقوب «لا بيع فيه ولا خلال» وقرأ الباقون «لا بيع فيه ولا خلال» راجع الإتحاف (٢/ ١٦٩).

محل المناجاة ، ومعدن المصافاة ، تتسع فيها ميادين الأسرار ، وتشرق فيها شوارق الأنوار ، كما فى الحكم. وفى بعض الأخبار : (إن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع اللّه الحجب بينه وبينه ، وواجهه بوجهه ، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء ، يصلون بصلاته ، ويؤمّنون على دعائه ، وإن المصلى لينثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه ، وينادي مناد : لو يعلم المناجى من يناجى ما انفتل «١». وإن أبواب السماء لتفتح للمصلى. وإن اللّه تعالى يباهى ملائكته بصفوف المصلين). وفى التوراة : يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدىّ مصليا باكيا ، فأنا الذي اقتربت من قلبك ، وبالغيب رأيت نورى. هـ. فكانوا يرون أن تلك المراقبة والبكاء ، وتلك الفتوح التي يجدها المصلى فى قلبه من دنو الرب من القلب.

وأما الصدقة فإنها برهان على إيمان صاحبها ، وفى الحديث : «الصّدقة برهان» ، فهى تدل على خروج حب الدنيا من القلب ، وعلى اتصاف صاحبها بمنقبة السخاء ، التي هى أفضل الخصال ، وفى الحديث : «السّخىّ قريب من اللّه ، قريب من النّاس ، قريب من الجنّة ، بعيد من النّار ، والبخيل بعيد من اللّه ، بعيد من النّاس ، بعيد من الجنّة ، قريب من النّار ، ولجاهل سخى أحبّ إلى اللّه من عالم بخيل».

ثم ذكّرهم بالنعم ، ليقيدوها بالشكر قبل أن تسلب منهم ، كما سلبت ممن ذكر قبل ، فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ٣٢ الى ٣٤]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ

اللَّيْلَ وَالنَّهارَ (٣٣) وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)

قلت : (اللَّهُ) : مبتدأ ، و(الَّذِي) ، وما بعده : خبر ، و(رِزْقاً لَكُمْ) : مفعول أخرج ، و(مِنَ الثَّمَراتِ) : بيان له ، حال ، ويجوز العكس ، ويجوز أن يراد بالرزق : المصدر ، فينصب على العلة أو المصدر لأن (أخرج) فيها معنى «رزق» ، و(دائِبَيْنِ) : حال ، والدءوب : الدوام على عمل واحد ، و(مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ) : يحتمل أن تكون «ما» مصدرية ، أو موصولة ، أو موصوفة.

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ من أجلكم ، السماء تظلكم ، والأرض تقلكم ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ ، تعيشون به وتتفكهون منه. ويشمل الملبوس ،

---

(١) أي : ما انصرف.

كالقطن ، والكتان ، وشبه ذلك وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ : بمشيئته وقدرته ، إلى حيث توجههم مع أسباب حكمته ، تغطية لقدرته ، وهو ما يتوقف عليه جريها وإرساؤها ، من الجبال والقلاع ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ مطردة لانتفاعكم بالسفن والشرب ، وسائر منافعها ، فجعلها معدّة لانتفاعكم وتصرفكم. وقيل :

تسخير هذه الأشياء : تعليم كيفية اتخاذها والانتفاع بها.

وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ متماديين فى الطلوع والغروب ، يدأبان فى سيرهما وإنارتهما ، وإصلاح ما يصلحانه من المكونات ، بقدرة خالقهما ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ يتعاقبان لسكناتكم ومعايشكم. وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ أي : وآتاكم بعض جميع ما سألتموه ، وهو ما يليق بكم ، وما سبق لكم فى مشيئته وعلمه. قال البيضاوي : ولعل المراد بما سألتموه : ما كان حقيقا بأن يسأل لاحتياج الناس إليه ، سئل أو لم يسأل. هـ. وقرأ الضحاك وابن عباس : «مِنْ كُلٍّ» بالتنوين ، أي : وآتاكم من كل شيء احتجتم إليه ، وسألتموه بلسان الحال. ويجوز على هذا أن تكون «ما» نافية ، فى موضع الحال ، أي : وآتاكم من كل شيء غير سائليه.

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها : لا تحصروها ، ولا تطيقوا عدّ أنواعها ، فضلا عن أفرادها ، فإنها غير متناهية فمنها ظاهرة ، ومنها باطنة ، كالهداية والمعرفة. قال طلق بن حبيب : إن حق اللّه أثقل من

أن يقوم به العباد ، ونعمه أكثر من أن يحصيها العباد ، ولكن أصبحوا توابين ، وأمسوا توابين. هـ. وقال أبو الدرداء : من لم ير نعمة اللّه إلا فى مطعمه ومشربه ، فقد قلّ علمه ، وحضر عذابه. هـ. إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ بظلم النعمة لمّا غفل عن شكرها ، أو بظلم نفسه لمّا عرضها للحرمان ، بارتكاب المعاصي ، كَفَّارٌ : شديد الكفران ، وقيل : ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع ، كفّار فى النعمة يجمع ويمنع. قاله البيضاوي.

الإشارة : اللّه الذي أنزل من سماء الملكوت علوما وأسرارا ، تحيا به القلوب والأرواح ، فأخرج به من أرض النفوس ثمرة اليقين والطمأنينة ، رزقا لأرواحكم. وسخر لكم فلك الفكرة تجرى فى بحر التوحيد ، وفضاء التفريد بأمره. وسخر لكم أنهار العلوم ، منها ما هو علم الرسوم لإصلاح الظواهر ، ومنها ما هو علم الحقائق لإصلاح الضمائر. وسخر لكم شمس العرفان وقمر الإيمان ، دائبين ، يستضيىء بقمر التوحيد فى السير إلى معرفة أنوار الصفات ، وبشمس العرفان إلى أسرار الذات. وسخّر لكم ليل القبض لتسكنوا فيه ، ونهار البسط لتنشروا فى اقتباس العلوم ، وربما أفادك فى ليل القبض ما لم تستفده فى نهار البسط (لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً). وآتاكم من كل ما سألتموه حين كمل تهذيبكم ، وصح وصلكم ، فيكون أمركم بأمر اللّه. وإن تعدوا نعمة اللّه لا تحصوها إذ نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد لا حدّ لهما فى هذه الدار وفى تلك الدار ، ففى كل نفس يمدهم بمدد جديد ، ومع هذا كله يغفل العبد عن هذه النعم!! إن الإنسان لظلوم كفار. وشكرها : نسبتها لمعطيها ، وحمد اللّه عليها. وفى الحكم : «لا تدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك فإنّ ذلك مما يحط من وجود قدرك».

(٦٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٦٤

قال سهل بن عبد اللّه رضي اللّه عنه : ما من نعمة إلا والحمد أفضل منها ، والنعمة التي ألهم بها الحمد أفضل من الأولى لأن الشكر يستوجب المزيد. وفى أخبار داود عليه السّلام أنه قال : إلهى ، ابن آدم ليس فيه شعرة إلا وتحتها نعمة ، وفوقها نعمة ، فمن أين يكافئها؟ فأوحى اللّه تعالى إليه : يا داود ، إنى أعطى الكثير وأرضى باليسير ، وإنّ شكر ذلك أن تعلم أن ما بك من نعمة فمنى. هـ.

ومن جملة النعم التي يجب الشكر عليها – وهى التي بدّلها الكفار كفرا – عمارة بيت اللّه الحرام ، ودعاء إبراهيم عليه السّلام ، الذي أشار إليه الحق تعالى بقوله :

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ٣٥ الى ٣٨]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ

ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ وَما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ (٣٨)

قلت : قال هنا : اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ بالتعريف ، وقال فى سورة البقرة : بَلَداً» بالتنكير ، قال البيضاوي :

الفرق بينهما أن المسئول فى الأول – أي : فى التعريف – إزالة الخوف وتصييره أمنا ، وفى الثاني جعله من البلاد الآمنة. هـ. وفرّق السهيلي : بأن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان بمكة حين نزول آية إبراهيم لأنها مكية فلذلك قال فيه : «الْبَلَدَ» بلام التعريف التي للحضور ، بخلاف آية البقرة ، فإنما هى مدنية ، ولم تكن مكة حاضرة حين نزولها ، فلم يعرفها بلام تعريف الحضور. هـ. قال ابن جزى : وفيه نظر لأن ذلك كان حكاية عن إبراهيم عليه السّلام ، ولا فرق بين كونه بالمدينة أو بمكة. هـ.

قلت : لا نظر فيه لأن الحق تعالى لم يحك لنا قصص الأنبياء بألفاظهم ، وإنما ترجم عنها بلسان عربى ، فينزل على رعاية مقتضى الحال. ولذلك اختلفت الألفاظ فى قصص الأنبياء لأن كل قصة تنزل على ما يقتضيه المقام والحال ، من تعريف وتنكير ، واختصار وإطناب. وقد ذكر أبو السعود فى سورة الأعراف ما يؤيد هذا ، فانظره. واللّه تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ يعنى : مكة ، آمِناً لمن فيها من أغدرة الناس عليها ، أو من الخسف والعذاب ، أو من الطاعون والوباء ، وَاجْنُبْنِي أي : امنعني

---

(١) فى الآية ١١٦.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٦٥

واعصمني ، وَبَنِيَّ من بعدي ، من أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ أي : اجعلنا منهم فى جانب بعيد. قال البيضاوي : وفيه دليل على أن العصمة للأنبياء بتوفيق اللّه وحفظه إياهم ، وهو بظاهره لا يتناول أحفاده وجميع ذريته ، وزعم ابن عيينة أن أولاد إسماعيل لم يعبدوا الصنم ، محتجا به ، وإنما كانت لهم حجارة يدورون بها ، ويسمونها الدوار ، ويقولون : البيت حجر ، وحيثما نصبت حجرا فهو بمنزلته. هـ. قال ابن جزى : وبَنِيَّ يعنى : من صلبه ، وفيهم أجيبت دعوته ، وأما أعقاب بنيه فعبدوا الأصنام. هـ. وقد قال فى الإحياء : عنى إبراهيم عليه السّلام بالأصنام ، الذهب والفضة ، بمعنى : حبهما والاغترار بهما ، والركون إليهما. قال عليه الصلاة والسلام : «تعس عبد الدّينار والدّرهم ...» الحديث لأن رتبة النبوة

أجلّ من أن يخشى عليها أن تعتقد الألوهية فى شىء من الحجارة. هـ.

قلت : الظاهر أن يبقى اللفظ على ظاهره ، فى حقه وفى حق بنيه. أما فى حقه فلسعة علمه وعدم وقوفه مع ظاهر الوعد ، كما هو شأن الأكابر ، لا يزول اضطرارهم ، ولا يكون مع غير اللّه قرارهم ، وهذا كقوله : وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً «١». وتقدم هذا المعنى مرارا. وأما فى حق بنيه فإنما قصد العموم فى نسله ، لكن لم يجب إلا فيما كان من صلبه فإن دعاء الأنبياء – عليهم السّلام – لا يجب أن يكون كله مجابا ، فقد يجابون فى أشياء ، ويمنعون من أشياء. وقد سأل نبينا صلى اللّه عليه وسلم لأمته أشياء ، فأجيب فى البعض ، ومنع البعض. كما فى الحديث «٢».

ثم قال إبراهيم عليه السّلام : رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ أي : إن الأصنام أتلفت كثيرا من الخلق عن طريق الحق ، فلذلك سألت منك العصمة ، واستعذت بك من إضلالهن ، وإسناد الإضلال إليهن باعتبار السببية ، كقوله : وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا «٣». فَمَنْ تَبِعَنِي على دينى فَإِنَّهُ مِنِّي لا ينفك عنى فى أمر الدين ، وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، تقدر أن تغفر له ابتداء ، أو بعد التوفيق للتوبة. وفيه دليل على أن كل ذنب فلله أن يغفره ، حتى الشرك ، إلا أن الوعيد فرّق بينه وبين غيره. قاله البيضاوي. قال ابن جزى : وَمَنْ عَصانِي يريد : بغير الكفر ، أو عصاه بالكفر ثم تاب منه ، فهو الذي يصح أن يدعى له بالمغفرة ، ولكنه ذكر اللفظ بالعموم لما كان فيه – عليه السّلام – من التخلق بالرحمة للخلق ، وحسن الخلق. هـ.

رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي أي : بعض ذريتى ، وهو : إسماعيل عليه السّلام ، أو : أسكنت ذرية من ذريتى ، وهو إسماعيل ومن ولد منه فإن إسكانه متضمن لإسكانهم ، بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ يعنى : وادي مكة ، لأنها حجرية

---

(١) من الآية ٨٠ من سورة الأنعام.

(٢) قال صلى اللّه عليه وسلم : «سألت ربى ثلاثا ، فأعطانى ثنتين ، ومنعنى واحدة. سألت ربى أن لا يهلك أمتى بالسّنة فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» أخرجه مسلم فى (كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض) من حديث عامر بن سعد عن أبيه. [.....]

(٣) من الآية ٧٠ من سورة الأنعام.

لا تنبت ، والوادي : ما بين الجبلين ، وإن لم يكن فيه ماء. ولم يقل : ولا ماء ، ولعله علم بوحي أنه سيكون فيه الماء ، عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ الذي حرّمه على الجبابرة من التعرض له والتهاون به ، أو : لم يزل محترما تهابه الجبابرة ، أو منع منه الطوفان ، فلم يستأصله ويمح أثره. وهذا الدعاء وقع منه أول ما قدم ، ولم يكن موجودا ، فلعله قال ذلك باعتبار ما كان ، أي : عند أثر بيتك المحرم ، أو باعتبار ما يؤول إليه من بنائه وعمارته واحترامه.

وقصة إنزاله ولده بمكة : أن هاجر كانت مملوكة لسارة ، وهبها لها جبار من الجبابرة وذلك أن إبراهيم عليه السّلام دخل مدينة ، وكان فيها جبار يغصب النساء الجميلات ، فأخذها ، وأدخلها بيتا ، فلما دخل عليها دعت عليه ، فسقط ، ثم قالت : يا رب إن مات قتلونى فيه ، فقام. فلما دنا منها ، دعت عليه ، فسقط ، فقال فى الثالثة : ما هذه إلا شيطانة ، أخرجوها عنى ، وأعطوها هاجر ، فعصمها اللّه منه ، وأخدمها هاجر ، ثم وهبتها لإبراهيم ، فوطئها فحملت بإسماعيل ، فلما ولدته غارت منها ، فتعب إبراهيم معها ، ثم ناشدته سارة أن يخرجها من عندها ، فركب البراق ، وخرج بها تحمل ولدها حتى أنزلها مكة ، تحت دوحة ، قريبا من موضع زمزم. فلما ولى تبعته ، وهى تقول : لمن تتركنا فى هذه البلاد ، وليس بها أنيس؟ ثم قالت : أاللّه أمرك بهذا؟ قال : نعم ، قالت : إذا لا يضيعنا. فرجعت تأكل من مزود ، تم تركها لها ، وتشرب من قربة ماء ، فلما فرغ الماء نشف اللبن ، وجعل الولد يتخبط من العطش ، فجعلت تطوف من الصفا ، وكان جبلا صغيرا قريبا منها ، وتذهب إلى المروة ، وتسعى بينهما ، لعلها ترى أحدا ، فلما بلغت سبعة أطواف وسمعت صوتا فى الهواء ، فقالت : أغث إن كان معك غياث ، فتبدّى جبريل بين يديها حتى وصل إلى موضع زمزم ، فهمز بعقبه ففار الماء ، فلما رأته دهشت ، وخافت عليه يذهب فجعلت تحوطه ، وتقول : زم زم ، فانحصر الماء. قال صلى اللّه عليه وسلم : «يرحم اللّه أمّ إسماعيل ، لو تركته ، كان عينا معينا» «١». فشربت ، ودرّ لبنها.

ثم إن جرهم رأوا طيورا تحوم ، فقالوا : لا طيور إلا على الماء. فقصدوا الموضع ، فوجدوها مع ابنها ، وعندها عين ، فقالوا لها : أتشركيننا فى مائك ، ونشركك فى ألباننا؟ ففعلت. وفى حديث البخاري : «قالوا لها : أتحبين أن نسكن معك؟ قالت : نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء». فرحلوا إليها ، وسكنوا معها ، ثم زوجوا ولدها منهم. وحديث إتيان إبراهيم يتعاهد ابنه ، وبنائهما الكعبة ، مذكور فى البخاري «٢» والسّير.

ثم قال : رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ أي : ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع «٣» من كل مرتفق ومرتزق ، إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرم. وتكرير النداء وتوسيطه ، للإشعار بأنها المقصودة بالذات من إسكانهم ثمّة. والمقصود من الدعاء : توفيقهم لها ، وقيل : اللام للأمر ، وكأنه طلب منهم الإقامة ، وسأل من اللّه أن يوفقهم لها. فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً

---

(١) أخرجه البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب : تزفّون : النّسلان فى المشي) من حديث ابن عباس – رضي اللّه عنه.

(٢) فى الموضع السابق ذكره.

(٣) البلقع : هى الأرض القفر التي لا شيء بها : انظر : اللسان (بلقع ١/ ٣٤٨).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٦٧

مِنَ النَّاسِ أي : اجعل أفئدة من بعض الناس ، تَهْوِي إِلَيْهِمْ أي : تسرع إليهم شوقا ومحبة ، و«من» : للتبعيض ، ولذلك قيل : لو قال : أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم ، ولحجت اليهود والنصارى. وقيل : للبيان أي : أفئدة ناس. وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ مع كونهم بواد لا نبات فيه ، لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ تلك النعمة ، فأجاب دعوته ، فجعله حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شيء ، حتى إنه يوجد فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية ، فى يوم واحد.

رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ أي : تعلم سرنا ، كما تعلم علانيتنا ، والمعنى : إنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا ، وأرحم منا بأنفسنا ، فلا حاجة لنا إلى الطلب ، لكننا ندعوك إظهارا لعبوديتك ، وافتقارا إلى رحمتك ، واستجلابا لنيل ما عندك. قاله البيضاوي. أي : فيكون مناسبا لحاله فى قوله : «علمه بحالي يغنى عن سؤالى».

وقيل : ما نخفى من وجد الفرقة ، وما نعلن من التضرع إليك والتوكل عليك. وتكرير النداء للمبالغة فى التضرع واللجوء إلى اللّه تعالى. وَما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ لأن علمه أحاط بكل معلوم. و«من» : للاستغراق.

الإشارة : ينبغى للعبد أن يكون إبراهيميا ، فيدعو بهذا الدعاء على طريق الإشارة ، فيقول : رب اجعل هذا القلب آمنا من الخواطر والوساوس ، واجنبنى وبنىّ ، أي : بعّدنى ومن تعلق بي ، أن نعبد الأصنام ، التي هى الدنانير والدراهم ، وكل ما يعشق من دون اللّه ، (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس) فتلفوا فى حبها والحرص عليها ، فلا فكرة لهم إلا فيهما ، ولا شغل لهم إلا جمعهما ، فمن تبعني فى الزهد فيهما ، والغنى بك عنهما ، فإنه منى ، ومن عصانى ، واشتغل بمحبتهما وجمعهما ، (فإنك غفور رحيم).

وقوله : رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ فيه : تعليم اليقين لمن طلب تربية اليقين. قال الورتجبي : فيه إشارة إلى تربية أهله بحقائق التوكل والرضا والتسليم ، ونعم التربية ذلك ، فأعلمنا بسنته القائمة الحنيفية السمحة السهلة ، الخليلية الحبيبية ، الأحمدية المصطفوية – صلوات اللّه عليهما –

أن العارف الصادق ينبغى له ألا يكون معوله على الأملاك والأسباب – فى حياته وبعد وفاته – لتربية عياله ، فإنه تعالى حسبه ، وزاد فى تربيتهم بأن يؤدّبهم بإقامة الصلاة ، إظهارا للعبودية ، وإخلاصا فى المعرفة ، وطلبا للمشاهدة ، ومناجاة فى القربة بقوله :

«ربنا ليقيموا الصلاة». إلخ.

وقال القشيري : أخبر عن صدق توكله وتفويضه ، أي : أسكنت قوما من ذريتى بواد غير ذى زرع ، عند بيتك المحرّم. وإنما رد الرّفق لهم فى الجوار فقال : عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، ثم قال : لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ. أي : أسكنتهم لإقامة

(٦٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٦٨

حقّك ، لا لطلب حظوظهم. ويقال : اكتفى بأن يكونوا فى ظلال عنايته عن أن يكونوا فى ظلال نعيمهم. ثم قال :

قوله : بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ أي : أسكنتهم هذا الوادي ، ولا متعلق من الأغيار لقلوبهم ، ولا متناول لأفكارهم وأسرارهم ، فهم مطروحون ببابك ، مقيمون بحضرتك ، جار فيهم حكمك ، إن راعيتهم كفيتهم ، وكانوا أعزّ خلق اللّه ، وإن أقصيتهم وأوبقتهم كانوا أضعف وأذلّ خلقك. هـ.

وقوله تعالى : فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ : قال القشيري : ليشتغلوا بعبادتك ، فأفرّد قوما يقومون لهم بكفايتهم ، وارزقهم من الثمرات ، فإنّ من قام بحقّ اللّه قام اللّه بحقّه. فاستجاب اللّه دعاءه فيهم ، فصارت القلوب من أهل كل بر وبحر كالمجبولة على محبة ذلك البيت ، ومحبة أولئك المصلين من سكانه. وقال الورتجبي : سأل أن يجعلهم مرادى جلاله وجماله ، ويجعلهم آية الصادقين والعاشقين ، بقوله : (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) ، تميل بوصف الإرادة والمحبة لك ، والاقتداء بهم فى إقامة سنتك ، وألبسهم لباس أنوارك ، وألق فى قلوب خلقك محبتهم بمحبتك. هـ.

ومعنى قوله : مرادى جلاله وجماله : أي : مظهرا لجلاله وجماله ، يعشقهم البرّ والفاجر ، والكامل والناقص ، فقد ظهر فيهم الجلال والجمال. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر بقية كلام إبراهيم عليه السّلام فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ٣٩ الى ٤١]

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ (٤١)

قلت : (لسميع الدعاء) : من إضافة أمثلة المبالغة إلى مفعوله ، أي : لسميع دعاء من دعاه. و(من

ذريتى) :

عطف على مفعول «اجعل» ، أي : اجعلنى وبعض ذريتى مقيمين للصلاة.

يقول الحق جل جلاله ، حاكيا عن خليله عليه السّلام : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ أي : مع كبر سنى عن الولد ، إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ ، روى أنه ولد له إسماعيل لتسع وتسعين سنة ، وإسحاق لمائة وثنتى عشرة سنة ، وقيل : غير ذلك. وإنما ذكر كبر سنه ليكون أعظم فى إظهار النعمة ، وإظهارا لما فيه من الآية ، ولذلك قال : إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ أي : يجيب من دعاه ، من قولك : سمع الملك كلامى ، إذا اعتنى به. وفيه إشعار بأنه تقدم منه سؤال الولد ، فسمع منه ، وأجابه حين وقع اليأس منه ، ليكون من أجلّ النعم وأجلاها.

(٦٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٦٩

ثم طلب الاستقامة له ولولده بقوله : رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ أي : متقنا لها ، مواظبا عليها ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِي فاجعل من يقيمها. والتبعيض لعلمه بالوحى أنّ من ولده من لا يقيمها ، أو باستقرار عادته فى الأمم الماضية أن منهم من يكون كفارا. رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ أي : استجب ، أو تقبل عبادتى. رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ ، وكان هذا الدعاء قبل النهى ، أو قبل تحقق موتهما على الكفر ، أو يريد آدم وحواء.

وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ أي : يثبت ويتحقق وجوده ، مستعار من القيام على الرّجل ، كقولهم : قامت الحرب على ساق.

أو يقوم إليه أهله ، فحذف المضاف ، أي : يقوم أهل الحساب إليه ، وأسند إليه قيامهم مجازا.

الإشارة : إتيان النسل البشرى ، أو الروحاني ، من أجلّ النعم وأكملها على العبد. وفى الحديث : «إذا مات العبد انقطع عمله إلّا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم بثّه فى صدور الرّجال ، أو ولد صالح يدعو له بعد موته». والولد الروحاني أتم لتحقق استقامته فى الغالب. وطلب ذلك محمود كما فعل الخليل وزكريا ، وغيرهما ، وقد مدح اللّه من فعل ذلك بقوله : وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ «١». وقرة عين فى الذرية : أن يكونوا على الاستقامة فى الدين ، وسلوك منهاج الصالحين. وكل ما أتوا به من الطاعة والإحسان فللوالدين حظ ونصيب من ذلك ، ولا فرق بين الولد الروحاني والبشرى ، وفى ذلك يقول الشاعر «٢» :

والمرء فى ميزانه أتباعه فاقدر إذن قدر النبىّ محمّد

واللّه تعالى أعلم.

ثم تمم قوله : (يوم يقوم الحساب) بذكر أهواله ، فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ٤٢ الى ٤٥]

وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ (٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ (٤٥)

---

(١) من آية ٧٤ من سورة الفرقان.

(٢) وهو الإمام البوصيرى. انظر ديوانه/ ١٢٢. وفيه : فاقدر إذن فضل النبي محمد صلّى اللّه عليه وسلم.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٧٠

قلت : (يوم يأتيهم) : مفعول ثان لأنذر ، ولا يصح أن يكون ظرفا. و(نجب دعوتك) جواب الأمر.

يقول الحق جل جلاله : وَلا تَحْسَبَنَّ أيها السامع ، أن اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، أو أيها الرسول ، بمعنى : دم على ما أنت عليه من أن اللّه مطلع على أفعالهم ، لا تخفى عليه خافية ، غير غافل عنهم. وهو وعيد بأنه معاقبهم على قليله وكثيره لا محالة. وقيل : إنه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم فالحق تعالى يمهل ولا يهمل. إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ ، أي : يؤخر عذابهم لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ ، أي : تحد فيه النظر ، من غير أن تطرف من هول ما ترى.

مُهْطِعِينَ : مسرعين إلى الداعي مذلة واستكانة ، كإسراع الأسير والخائف ونحوه. أو مقبلين بأبصارهم ، لا يطرفون هيبة وخوفا ، مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ : رافعيها إلى السماء كرفع الإبل رأسها عند رعيها أعالى الشجر. وذلك من شدة الهول ، أو من أجل الغل الذي فى عنقه ، كقوله : إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ «١». وقال الحسن فى هذه الآية : وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد. هـ.

لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ، بل تقف أعينهم شاخصة لا تطرف ، أو : لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم ، وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ : خلاء ، محترقة ، فارغة من الفهم ، لا تعى شيئا لفرط الحيرة والدهشة. ومنه يقال للأحمق وللجبان : قلبه هواء ، أي : لا رأى فيه ولا قوة. وقيل : خالية من الخير ، خاوية من الحق.

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يا محمد ، أي : خوفهم هذا اليوم ، وهو : يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ ، يعنى يوم القيامة ، أو يوم

الموت فإنه أول مطلع عذابهم ، فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا بالشرك والتكذيب : رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ أي : أخّر العذاب عنا ، وردنا إلى الدنيا ، وأمهلنا إلى أجل قريب ، نُجِبْ دَعْوَتَكَ حينئذ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ، ونظيره : لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ «٢». قال تعالى لهم : أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ أنكم باقون فى الدنيا ، ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ عنها بالموت ولا بغيره ، ولعلهم أقسموا بطرا وغرورا. أو دل عليه حالهم حيث بنوا مشيدا ، وأمّلوا بعيدا. أو أقسموا أنهم لا ينقلون إلى دار أخرى ، وأنهم إذا ماتوا لا يزالون عن تلك الحالة ، ولا ينقلون إلى دار الجزاء ، كقوله : وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ «٣».

وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بالكفر والمعاصي ، من الأمم السالفة كعاد وثمود ، وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ بما تشاهدون من آثارهم الدارسة ، وديارهم الخربة ، وما تواتر عندكم من أخبارهم ،

---

(١) الآية ٨ من سورة يس.

(٢) الآية ١٠ من سورة المنافقون.

(٣) الآية ٣٨ من سورة النحل.

وَقد ضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ من أحوالهم ، أي : بيّنا لكم أنكم مثلهم فى الكفر واستحقاق العذاب ، أو بيّنا لكم صفات ما فعلوا ، وما فعل بهم ، التي هى فى الغرابة كالأمثال المضروبة.

الإشارة : كما أمهل سبحانه الظالمين إلى دار الشدائد والأهوال ، أمهل عباده الصالحين إلى دار الكرامة والنوال لأن هذه الدار لاتسع ما أراد أن يعطيهم من الخيرات لأنها ضيقة الزمان والمكان ، فقد أجلّ مقدارهم أن يجازيهم فى دار لا بقاء لها ، وتلك الدار باقية لا نفاد لها ، ففيها يتمحض الجمال والجلال. فبقدر ما ينزل على أهل الجلال من الأهوال ينزل على أهل الجمال من الكرامة والنوال.

وتأمل ما تمناه أهل الجلال حين نزلت بهم الأهوال من قولهم : (ربنا أخّرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) ، ثم بادر إلى إجابة الداعي ، واتباع الرسول الهادي ، فى كل ما جاء به من الأوامر والنواهي ، واعتبر بمساكن الذين ظلموا أنفسهم ، كيف فعل بهم الزمان؟

وكيف غرتهم الأمانى وخدعهم الشيطان ، حتى أسكنهم دار الذل والهوان؟ فشد يدك على الطاعة والإحسان ، والشكر للّه على الهداية لنعمة الإسلام والإيمان ، وعلق قلبك بمقام الإحسان فإن اللّه

يرزق العبد على قدر نيته.

وباللّه التوفيق.

ثم ذكر ما فعل بأهل المكر والخذلان ، فقال :

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ٤٦ الى ٥٢]

وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ (٤٦) فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (٤٩) سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠)

لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (٥١) هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (٥٢)

قلت : (و إن كان مكرهم) «إن» نافية ، واللام للجحود ، ومن قرأ «لّتزول» بفتح اللام ، فإن مخففة ، واللام فارقة و(يوم تبدل) : بدل من (يوم يأتيهم) ، أو ظرف للانتقام ، أو مقدر باذكر ، أو (بمخلف وعده). ولا يجوز أن ينتصب بمخلف لأن ما قبل «إن» لا يعمل فيما بعدها. و(السماوات) : عطف على (الأرض) ، أي : وتبدل السماوات.

يقول الحق جل جلاله : وَقَدْ مَكَرُوا بك يا محمد مَكْرَهُمْ الكلى ، واستفرغوا جهدهم فى إبطال الحق وتقرير الباطل ، وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ أي : مكتوب عنده فعلهم ، فيجازيهم عليه. أو عند اللّه ما يمكرهم به

جزاء لمكرهم ، وإبطالا له ، وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ فى العظم والشدة لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ الثوابت لو زالت تقديرا ، أو ما كان مكرهم لتزول منه الجبال ، أي : الشرائع والنبوات الثابتة كالجبال الرواسي. والمعنى على هذا تحقير مكرهم لأنه لا تزول منه تلك الجبال الثابتة الراسخة ، أو : وإن مكرهم لتزول منه الجبال من شدته ، ولكن اللّه عصم ووقى.

وقيل : الآية متصلة بما قبلها ، أي : وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، ومكروا مكرهم فى إبطال الحق.

فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، يعنى : وعد النصر على الأعداء. وقدّم المفعول الثاني ، والأصل :

مخلف رسله وعده ، فقدّم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا على الإطلاق ، ثم قال : رُسُلَهُ ليعلم أنه إذا لم يخلف وعد أحد من الناس ، فكيف يخلف وعد رسله وخيرة خلقه؟! فقدّم الوعد أولا بقصد الإطلاق ، ثم ذكر الرسل لقصد التخصيص. إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ : غالب لا يماكر ، قادر لا يدافع ، ذُو انتِقامٍ لأوليائه من أعدائه.

يظهر ذلك يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ، أو اذكر يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ، فتبدل أرض الدنيا يوم القيامة بأرض بيضاء عفراء «١» ، كقرصة النّقى «٢» ، كما فى الصحيح «٣». وَتبدل السَّماواتُ بأن تنشق وتطوى كطى السجل للكتب ، ويبقى العرش بارزا ، وهو سماوات الجنة.

قال البيضاوي : والتبديل يكون فى الذات ، كقوله : بدلت الدراهم بالدنانير ، وعليه قوله : بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها «٤» ، وفى الصفة ، كقولك : بدلت الحلقة خاتما ، إذا أذبتها وغيرت شكلها. وعليه قوله : يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ «٥». والآية تحتملها ، فعن على رضى اللّه عنه : تبدل أرضا من فضة وسموات من ذهب ، وعن ابن عباس – رضى اللّه تعالى عنهما – : هى تلك الأرض ، وإنما تغير صفاتها ، ويدل عليه ما روى أبو هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : «تبدّل الأرض غير الأرض فتنبسط ، وتمدّ مد الأديم العكاظىّ «لا ترى فيها عوجا ولا أمتا» «٦».

قال ابن عطية : وأكثر المفسرين على أن التبديل يكون بأرض بيضاء عفراء ، لم يعص اللّه فيها ، ولا سفك فيها دم ، وليس فيها معلم لأحد. وروى أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «المؤمن فى وقت التبديل فى ظل العرش». وروى عنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «الناس ، وقت التبديل ، على الصّراط» «٧». وروى أنه قال : «٨» «الناس حينئذ أضياف اللّه فلا يعجزهم ما

---

(١) العفرة : بياض ليس بالناصع .. انظر النهاية (عفر).

(٢) قرصة النّقىّ : الدقيق النقي من الغش والنخال انظر فتح الباري (١١/ ٣٨٣).

(٣) قال صلى اللّه عليه وسلم : (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء ، كقرصة النقي ، ليس فيها علم لأحد». أخرجه البخاري فى (الرقاق ، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة). ومسلم فى (صفات المنافقين ، باب فى البعث والنشور) من حديث سهل بن سعد الساعدي.

(٤) من الآية ٥٦ من سورة النساء.

(٥) من الآية ٧٠ من سورة الفرقان. [.....]

(٦) جزء من حديث الصور المشهور المروي عن أبى هريرة.

(٧) أخرجه مسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، باب فى البعث والنشور) من حديث السيدة عائشة – رضى اللّه عنها.

(٨) أخرجه بنحوه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٧/ ٢٢٥٣) من حديث أبى أيوب الأنصاري. وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٤٤).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٧٣

وفى سراج المريدين لابن العربي : أن اللّه خلق الأرض مختلفة محدودبة ويخلقها يوم القيامة مستوية ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، متماثلة بيضاء كخبرة النقي ، كما فى الصحيح ، وأما تبديل السموات فليس فى كيفيتها حديث ، وإنما هو مجهول. وفى حديث مسلم : «أين يكون الناس يوم تبدل الأرض؟ قال : هم على الصراط». قال : يحتمل أنه الصراط المعروف ، ويحتمل أنه اسم لموضع غيره ، تستقر الأقدام عليه ، وكأنه الأظهر للحديث الآخر. وقد سألته عائشة – رضى اللّه عنها – أين يكون الناس يوم تبدل الأرض؟ قال صلى اللّه عليه وسلم : «هم فى الظّلمة دون الجسر» «١».

والجسر : الصراط. هـ.

أما تبديل الأرض : فظاهر الآيات أنها قبل البعث والحشر ، فلا يقع البعث والحشر ، إلا على الأرض المبدلة كقوله : وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَحَشَرْناهُمْ «٢». وقوله : وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً «٣» .. ثم قال : يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ «٤». وقوله : إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ «٥» ، ثم قال : إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا «٦» ، إلى غير ذلك من الآيات. والأرواح حينئذ أضياف اللّه ، أو فى ظل العرش ، أو دون الجسر ، حيث يعلم اللّه. وأما تبديل السماوات فظاهر الأخبار أنه وقت وقوف الناس فى المحشر ، حيث تشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة تنزيلا. واللّه تعالى أعلم.

وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ ، أي : وبرزوا من أجداثهم لمحاسبة الواحد القهار ، أو لمجازاته. وتوصيفه بالوصفين للدلالة على أنه فى غاية الصعوبة ، كقوله : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ «٧» ، وأن الأمر إذا كان لواحد غلاب لا يغالب فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار ، وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ : قرن بعضهم إلى بعض فِي الْأَصْفادِ : فى القيود ، أو الأغلال ، كل واحد قرن مع صاحبه ، على حسب مشاركتهم فى العقائد والأعمال ، كقوله : وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ «٨». أو قرنوا مع الشياطين ، أو مع ما اكتسبوا من العقائد الزائفة والأهوية الفاسدة ، أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال. فقوله : فِي الْأَصْفادِ : متعلق بمقرنين ، أو حال من ضميره. والصفد : القيد أو الغل.

سَرابِيلُهُمْ : قمصانهم ، والسربال : القميص ، مِنْ قَطِرانٍ ، وهو الذي تهنأ به الإبل ، أي : تدهن به. وللنار فيه اشتعال شديد ، فلذلك جعل قميص أهل النار. قال البيضاوي : وهو أسود منتن ، تشتعل فيه النار بسرعة ،

---

(١) أخرجه مسلم مطولا فى (الحيض ، باب بيان صفة منى الرجل والمرأة) من حديث ثوبان ، مولى

رسول الله صلى اللّه عليه وسلم.

(٢) من الآية ٤٧ من سورة الكهف.

(٣) الآيتان ١٠٥ – ١٠٦ من سورة طه.

(٤) من الآية ١٠٨ من سورة طه.

(٥) الآية الأولى من سورة الواقعة.

(٦) الآيتان : ٤ – ٥ من سورة الواقعة.

(٧) الآية ١٦ من سورة غافر.

(٨) الآية ٧ من سورة التكوير.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٧٤

يطلى به جلود أهل النار ، حتى يكون طلاؤه لهم كالقميص ، ليجتمع عليهم لذغ القطران ووحشة لونه ونتن ريحه ، مع إسراع النار فى جلودهم. على أنّ التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين. هـ.

وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ، أي : تكسوها وتأكلها لأنهم لم يتوجهوا بها إلى الحق ، ولم يخضعوا بها إلى الخالق ، كما تطلع على أفئدتهم لأنها فارغة من المعرفة والنور ، مملوءة بالجهالات والظلمة. ونظيره قوله :

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ «١» ، وقوله تعالى : يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ «٢».

فعل ذلك بهم لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ من الإجرام ، أو ما كسبت مطلقا لأنه إذا بيّن أن المجرمين معاقبون لإجرامهم علم أن المطيعين يثابون لطاعتهم. ويتعين ذلك إذا علق اللام ببرزوا. إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ ، فيحاسب الناس فى ساعة واحدة لأنه لا يشغله حساب عن حساب ، فكل شخص يظهر له أنه واقف بين يديه ، يحاسب فى وقت حساب الآخر لأن ذلك وقت خرق العوائد.

هذا القرآن ، أو ما فيه من الوعظ والتذكير ، أو ما وصفه من قوله : وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا ... «٣» إلخ ، بَلاغٌ لِلنَّاسِ أي : كفاية لهم عن غيره فى الوعظ وبيان الأحكام ، يقال : أعطيته من المال ما فيه بلاغ له ، أي :

كفاية. أو بلاغ أي : تبليغ لهم ، كقوله : إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ «٤» ، وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ» ، وقوله : وَلِيُنْذَرُوا بِهِ : عطف على محذوف ، أي : لينصحوا به ، ولينذروا به ، أو متعلق بمحذوف ، أي : ولينذروا به أنزلناه ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ بالنظر والتأمل فيما فيه من الآيات الدالة على

وحدانيته تعالى ، أو المنبهة على ما يدل عليه. وَلِيَذَّكَّرَ أي : ليتعظ به أُولُوا الْأَلْبابِ أي : القلوب الصافية بالتدبر فى أسرار معانيه وعجائب علومه وحكمه ، فيرتدعوا عما يرديهم ، ويتذرعوا بما يحظيهم. واعلم أنه سبحانه ذكر لهذا البلاغ ثلاث فوائد ، هى الغاية والحكمة فى إنزال الكتاب : تكميل الرسل للناس ، واستكمالهم القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد ، وإصلاح القوة العملية التي هى التدرع بكمال التقوى. جعلنا اللّه من الفائزين بغايتها. قال معناه البيضاوي.

الإشارة : قد مكر أهل الغفلة بالأولياء ، قديما وحديثا ، واحتالوا على إطفاء نورهم ، فأبى اللّه إلا نصرهم وعزهم (إن اللّه عزيز ذو انتقام) فينتقم لهم وينصرهم. ووقت نصرهم هو حين يتحقق فناؤهم عن الرسوم والأشكال ، فتبدل الأرض عندهم غير الأرض والسماوات فتنقلب كلها نورا مجموعا ببحر الأنوار ، وبمحيطات أفلاك الأسرار ،

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة الزمر.

(٢) من الآية ٤٨ من سورة القمر.

(٣) الآية ٤٢ من سورة إبراهيم. [.....]

(٤) من الآية ٤٨ من سورة الشورى.

(٥) الآية ٥٤ من سورة النور.

فتذهب ظلمة الأكوان بتجلى نور المكون ، اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ «١». وبرزوا من سجن الأكوان لشهود الواحد القهار.

وقال الورتجبي : يريد أن أرض الظاهر وسماء الظاهر تبدل من هذه الأوصاف ، وظلمة الخليقة ، إلا أنها منورة بنور جلال الحق عليها ، وأنها صارت مشرق عيان الحق للخلق حين بدا سطوات عزته ، بوصف الجبارية والقهارية بقوله : وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها «٢» وهناك يا أخى يدخل الوجود تحت أذيال العدم من استيلاء قهر أنوار القدم ، قال : كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ «٣». قيل : فأين الأشياء إذ ذاك؟ قال : عادت إلى مصادرها. وقال : متى كانوا شيئا حتى صاروا لا شى ء؟! لأنهم أقل من الهباء فى الهواء فى جنب الحق. هـ.

وترى المجرمين ، وهم الغافلون ، مقرنين فى قيود الأوهام ، والشكوك ، مسجونين فى محيطات الأكوان ، سرابيلهم ظلمة الغفلة ، تغشى وجوههم نار القطيعة ، لا تظهر عليها بهجة المحبين ، ولا

أسرار العارفين. فعل ذلك بهم ليظهر فضيلة المجتهدين. هذا بلاغ للناس ، ولينذروا به وبال الغفلة والحجاب ، وليتحقق أولوا الألباب أن الوجود إنما هو للواحد القهار. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) من الآية ٣٥ من سورة النور.

(٢) من الآية ٦٩ من سورة الزمر.

(٣) من الآية ٨٨ من سورة القصص.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٧٦

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٧٧

سورة الحجر

مكية. وهى تسع وتسعون آية. ومناسبتها لما قبلها : قوله تعالى : هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ «١» ، مع قوله جل جلاله : تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ فهى تتميم لعنوان القرآن ، وتفسير له.

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ (٤) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ (٥)

قلت : رب : حرف جر ، تدل على التقليل غالبا. وفيها ثمانى لغات : التخفيف ، والتثقيل مع ضم الراء وفتحها بالتاء ، ودونها. وتدخل عليها (ما) فتكفها عن العمل ، ويجوز دخولها حينئذ على الفعل ، ويكون ماضيا ، أو منزلا منزلته فى تحقيق وقوعه ، وقد تدخل على الجملة الاسمية كقول الشاعر :

ربّما الجامل المؤبّل فيهم وعناجيج بينهنّ المهار

وجملة : (إلا ولها) : صفة لقرية ، والأصل ألا يدخلها الواو ، كقوله : إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ «٢» ، لكن لما شابهت صورة الحال دخلت عليها تأكيدا لوصفها بالموصوف.

يقول الحق جل جلاله : أيها الرسول المعظم ، تِلْكَ الآيات التي تتلوها هى آياتُ الْكِتابِ الذي أنزلناه إليك ، وَآيات قُرْآنٍ عربى مُبِينٍ واضح البيان ، مبينا للرشد والصواب ، فمن تمسك به وآمن بما فيه كان من المسلمين الناجين ، ومن تنكب عنه وكفر به كان من الكافرين الهالكين ، وسيندم حين لا ينفع الندم ، كما قال تعالى : رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ : متمسكين بما فيه حتى يكونوا من الناجين. وهذا التمني قيل : يكون عند الموت ، وقيل : فى القيامة ، وقيل : إذا خرج العصاة من النار ، وهذا أرجح لحديث فى ذلك «٣». ومعنى التقليل فيه : أنه تدهشهم أهوال يوم القيامة ، فإن حانت منهم إفاقة فى بعض الأوقات تمنوا أن لو كانوا مسلمين.

---

(١) من الآية ٥٢ من سورة إبراهيم.

(٢) من الآية ٢٠٨ من سورة الشعراء.

(٣) عن أبى موسى الأشعري عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «إذا اجتمع أهل النار فى النار ، ومعهم من شاء اللّه من أهل القبلة ، قال الكفار لمن فى النار من أهل القبلة : ألستم مسلمين؟ قالوا : بلى ، قالوا : فما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا فى النار؟ قالوا : كانت لنا ذنوب فأخذنا –

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٧٨

قال تعالى :

ذَرْهُمْ : دعهم اليوم يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا بدنياهم ، وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ : ويشغلهم توثقهم بطول الأعمار ، واستقامة الأحوال ، عن الاستعداد للمعاد ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءهم.

والأمر للتهديد ، والغرض : حصول الإياس من إيمانهم ، والإيذان بأنهم من أهل الخذلان ، وأنّ نصحهم بعد هذا تعب بلا فائدة. وفيه إلزام الحجة لهم. وفيه التحذير عن إيثار التنعم ، وما يؤدى إليه طول الأمل من الهلاك عاجلا وآجلا ، ولذلك قال تعالى بعد : وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ أي : أجل مقدر كتب فى اللوح المحفوظ ، ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها أي : أجل هلاكها ، وَما يَسْتَأْخِرُونَ عنه ساعة. وتذكير الضمير فى يَسْتَأْخِرُونَ للحمل على المعنى ، لأن الأمة واقعة على الناس. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : انظر هذا التهديد العظيم ، والخطر الجسيم لمن تمتع بدنياه ، وعكف على حظوظه وهواه : (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون). وللّه در القائل :

تفكّرت فى الدّنيا وفى شهواتها ولذّاتها حتّى أطلت التّفكّرا

وكيف يلذّ العيش من هو سالك سبيل المنايا رائحا أو مبكّرا
فلا خير فى الدّنيا ولا فى نعيمها لحرّ مقلّ كان أو مكثرا
ثم أجاب من اقترح الآيات ، فقال :
[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٦ الى ٩]
وَقالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (٩)
يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا أي : كفار قريش : يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ فى زعمه ، أو قالوه تهكما ، إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ أي : إنك لتقول قول المجانين ، حين تدعى أنه ينزل عليك الذكر ، أي : القرآن.
لَوْ ما : هلا تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ ليصدقوك فيما تدعى ، أو يعضدوك على الدعوى ، أو للعقاب على تكذيبنا ، إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى دعواك ، قال تعالى : ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ لعذابهم أو لغيره إِلَّا بِالْحَقِّ من الوحى ، والمصالح التي يريدها اللّه ، لا باقتراح مقترح ، أو اختيار كافر ، أو : إلا تنزيلا ملتبسا بالحق ، أي : بالوجه

– بها ، فيغضب اللّه تعالى لهم ، بفضل رحمته ، فيأمر بكل من كان من أهل القبلة فى النار فيخرجون منها ، فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين». أخرجه ابن جرير فى التفسير ، وابن أبى عاصم فى السّنة (١/ ٤٠٥) ، وابن أبى حاتم فى تفسيره (٧/ ٢٢٥٥) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٤٢) وصححه.

الذي قدره فى الأزل ، واقتضته الحكمة الإلهية ، وهو أنه لا تنزل إلا باستئصال العذاب ، وقد سبق فى العلم القديم أن من ذريتهم من سبقت كلمتنا له بالإيمان ، أو يراد بالحق : العذاب ، ويؤيده قوله : وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ أي :
ولو نزلت الملائكة لعوجلوا ، وما كانوا ، إذا نزلت ، مؤخرين عن العذاب ساعة.
ثم رد إنكارهم نزول الذكر واستهزاءهم ، فقال : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ أي : القرآن ، وأكده بأن وضمير الفصل ، وحفظه بعد نزوله ، كما قال : وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ من التحريف ، والزيادة والنقص ، بأن جعلناه معجزا ، مباينا لكلام البشر ، لا يخفى تغيير نظمه على أهل اللسان. قال القشيري : نزل التوراة ، ووكل

حفظها إلى بنى إسرائيل ، بما استحفظوا من كتاب اللّه ، فحرّفوا وبدّلوا ، وأنزل القرآن ، وأخبر أنه حافظه ، فلا جرم أنه كتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ويقال : إنه أخبر أنه حافظ القرآن ، وإنما يحفظه بقرائة ، فقلوب القرّاء هى خزائن كتابه وهو لا يضيع حفظة كتابه ، فإن فى ذلك تضييع كتابه. هـ.

وقال ابن عطية على قوله : ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ «١» : ذهبت جماعة من العلماء إلى أنهم بدلوا ألفاظا من تلقائهم ، وأن ذلك ممكن فى التوراة لأنهم استحفظوها ، وغير ممكن فى القرآن لأن اللّه تعالى ضمن حفظه. هـ.

الإشارة : كل ما جاء فى القرآن من الإنكار على الرسل على أيدى الكفرة وتنقيصهم ، والاستهزاء بهم ، ففيه تسلية لمن بعدهم من الأولياء. وكذلك ما ذكره الحق تعالى من مقالات أهل الجهل فى جانبه كقوله : لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ «٢» ، وقوله : وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ «٣» ، إلى غير ذلك من مقالات أهل الجهل ، فكأن الحق تعالى يقول : لو سلم أحد من الناس ، لسلمت أنا وأنبيائى ، الذين هم خاصة خلقى ، فليكن بي وبرسلى أسوة لمن أوذى من أوليائى. وباللّه التوفيق.

ثم تمم تلك التسلية ، فقال :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ١٠ الى ١٥]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (١١) كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤)

لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥)

---

(١) من الآية ٧٥ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ١٨١ من سورة آل عمران.

(٣) من الآية ٦٤ من سورة المائدة.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٨٠

يقول الحق جل جلاله فى تسلية رسوله – عليه الصلاة والسلام – : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رسلا فِي شِيَعِ : فرق الْأَوَّلِينَ أي : القرون الماضين ، جمع شيعة ، وهى : الفرقة المتفقة على طريق واحد ، وتتشيع لمذهب أو رجل ، من شاعه إذا تبعه ، أي : نبأنا رجالا فيهم ، وجعلناهم رسلا إليهم ،

فكذبوهم واستهزءوا بهم ، فكانوا : ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ كما يفعل بك هؤلاء المجرمون.

كَذلِكَ نَسْلُكُهُ أي : ندخل الاستهزاء فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ. والسلك : إدخال الشيء فى الشيء كالخيط فى المخيط ، وفيه دليل على أنه تعالى يخلق الباطل فى قلوبهم. وإذا سلك فى قلوبهم التكذيب لا يُؤْمِنُونَ بِهِ أبدا. أو : نسلكه ، أي : القرآن مستهزءا به ، أي : مثل ذلك السلك نسلك الذكر فى قلوب المجرمين مكذّبا غير مؤمن به ، ثم هددهم على عدم الإيمان به ، فقال : وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أي : تقدمت طريقتهم على هذه الحالة من الكفر والاستهزاء ، حتى هلكوا بسبب ذلك ، أو مضت سنته فى الأولين بإهلاك من كذب الرسل منهم ، فيكون وعيدا لأهل مكة.

وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أي : على هؤلاء المقترحين المعاندين من كفار قريش ، باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ : يصعدون إليها ، ويرون عجائبها طول نهارهم ، لكذبوا ، أو فظلت الملائكة يعرجون فيها وهم يشاهدونهم لقالوا من شدة عنادهم وتشكيكهم فى الحق : إِنَّما سُكِّرَتْ : حيرت أَبْصارُنا ، فرأينا الأمر على غير حقيقته من أجل السكر الذي أصابنا بالسحر.

ويحتمل أن يكون مشتقا من السكر بفتح السين ، وهو السد ، أي : سدّت أبصارنا ، ومنعنا من الرؤية الحقيقية.

بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ سحرنا محمد ، كما قالوا عند ظهور غيره من الآيات. قال البيضاوي : وفى كلمتى الحصر والإضراب دلالة على جزمهم بأن ما يرونه لا حقيقة له ، بل هو باطل خيّل ما خيل لهم بنوع من السحر. هـ. وذلك من فرط عنادهم ، وشقاوتهم. والعياذ باللّه.

الإشارة : هذا كله من قبيل التسلية لأهل الخصوصية ، إذا قوبلوا بالإنكار والاستهزاء ، فيرجعون إلى اللّه ، والاكتفاء بعلمه ، والاشتغال باللّه عنه. وقد قال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رضى اللّه عنه : عداوة العدو حقا هى اشتغالك بمحبة الحبيب ، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو نال مراده منك ، وفاتتك محبة الحبيب. وقال الولي الصالح سيدى أبو القاسم الخصاصى رضى اللّه عنه لبعض تلامذته : لا تشتغل قط بمن يؤذيك ، واشتغل باللّه يرده عنك ، فإنه هو الذي حركه عليك ، ليختبر دعواك فى الصدق. وقد غلط فى هذا الأمر خلق كثير اشتغلوا بإيذاء من آذاهم ، فدام الأذى مع الإثم ، ولو أنهم رجعوا إلى اللّه لردهم عنهم ، وكفاهم أمرهم. هـ.

ثم دلهم على المعجزة الحقيقية ، التي تدلهم على التوحيد الذي فيه نجاتهم ، فقال :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ١٦ الى ٢٥]

وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ (٢٠)

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً اثنى عشر برجا ، وهى : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسّنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت ، والبرج عبارة عن قطعة فى الفلك تقطعها الشمس فى شهر فتقطع البروج كلها فى سنة ، ستة يمانية ، وستة شمالية ، وهى مختلفة الهيئات والخواص ، على ما دل عليه الرصد والتجربة. وكل ذلك بقدرة المدبر الحكيم. قال تعالى : وَزَيَّنَّاها بالأشكال والهيئات البهية لِلنَّاظِرِينَ المعتبرين ليستدلوا بها على قدرة مبدعها ، وتوحيد صانعها.

وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ : مرجوم ، فلا يقدر أن يصعد إليها ليسترق السمع منها ، أو يوسوس أهلها ، أو يتصرف فى أمرها ، أو يطلع على أحوالها.

إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ أي : حفظناها من الشياطين ، إلا من استرق منها. والاسترق : الاختلاس ، روى أنهم يركبون بعضهم بعضا حتى يصلوا إلى السماء ، فيسمعون أخبار السماء من الغيب ، فيخطف الجن الكلمة قبل الرمي فيلقيها إلى الكهنة ، ويخلط معها مائة كذبة ، كما فى الصحيح. وروى عن ابن عباس : أنهم كانوا لا يحجبون عن السماوات ، فلما ولد عيسى عليه السّلام منعوا من ثلاث سماوات ، فلما ولد محمد صلى اللّه عليه وسلم منعوا من كلها بالشهب. وقيل :

الاستثناء منقطع ، أي : ولكن من استرق السمع ، فَأَتْبَعَهُ لحقه شِهابٌ مُبِينٌ ظاهر للمبصرين. والشهاب :

شعلة نار يقتبسها الملك من النجم ، ثم يضرب به المسترق ، وقيل : النجوم هى التي تضرب بنفسها ، فإذا أصابت الشيطان قتلته أو خبلته فيصير غولا.

ثم ذكر معجزة الأرض فقال : وَالْأَرْضَ مَدَدْناها : بسطناها ، وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ جبالا ثوابت ، وَأَنْبَتْنا فِيها فى الأرض ، أو فيها وفى الجبال مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ مقدر بمقدار معين تقتضيه

حكمته. فالوزن مجاز ، أو ما يوزن حقيقة كالعشب النافعة ، أو كالذهب والفضة وسائر الأطعمة. وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ تعيشون بها من المطاعم والملابس ، وَخلقنا لكم مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ من الولدان والخدمة والمماليك ، وسائر ما تظنون أنكم ترزقونهم ظنا كاذبا فإن اللّه يرزقكم وإياهم.
قال البيضاوي : وفذلكة الآية : الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار معين ، مختلفة الأجزاء فى الوضع ، محدثة فيها أنواع النباتات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة ، مع جواز ألا تكون كذلك على كمال قدرته ، وتناهى حكمته ، والتفرد فى ألوهيته ، والامتنان على العباد بما أنعم فى ذلك ليوحدوه ويعبدوه. ثم بالغ فى ذلك فقال : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ أي : وما من شىء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه ، فضرب الخزائن مثلا لاقتداره ، أو شبه مقدوراته بالأشياء المخزونة التي لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد. هـ. قال ابن جزى : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ قيل : المطر ، واللفظ أعم من ذلك ، والخزائن :
المواضع الخازنة ، وظاهر هذا أن الأشياء موجودة قد خلقت. هـ. وَما نُنَزِّلُهُ أي : نبرزه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ : بمقدار محدود فى وقت معلوم اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة ، لا يزيد ولا ينقص على ما سبق به العلم.
وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ : حوامل للماء فى أوعية السحاب ، يقال : لقحت الناقة والشجرة إذا حملت ، فهى لاقحة ، وألقحت الريح الشجر فهى ملقحة. ولواقح : جمع لاقحة ، أي : حاملة ، أو جمع ملقحة على حذف الميم الزائدة ، فهى على هذا ملقحة للسحاب أو الشجر ، ونظيره : الطوائح ، بمعنى المطيحات فى قوله :
ومختبط ممّا تطيح الطّوائح «١» والرياح أربعة : صبا ، ودبور ، وجنوب ، وشمال. والعرب تسمى الجنوب الحامل واللاقحة ، وتسمى الشمال الحائل والعقيم. وفى البخاري صلى اللّه عليه وسلم : «نصرت بالصّبا ، وأهلكت عاد بالدّبور» «٢». وروى أبو هريرة رضي اللّه عنه ، عنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «الرّيح الجنوب من الجنة ، وهى اللواقح التي ذكر اللّه ، وفيها منافع للناس» «٣». وفى حديث : «الرّيح من نفس الرحمن» «٤». والإضافة هنا إضافة خلق إلى خالق ، كما قال : مِنْ رُوحِي «٥». ومعنى نفس الرحمن ، أي :

---

(١) عجز بيت صدره : (لبيك يزيد صارع لخصومة). وينسب البيت لأكثر من واحد ، والمختبط : طالب العرف المحتاج ، تطيح :
تذهب وتهلك ، والطوائح : جمع المطيحة ، بمعنى السنين أو الجوائح. انظر حاشية الشهاب (٥/ ٢٨٩).
(٢) أخرجه البخاري (كتاب الاستسقاء ، باب إذا هبت الريح) من حديث ابن عباس – رضي اللّه عنه

- . [.....]

(٣) أخرجه ابن جرير فى تفسيره. وو زاد السيوطي ، فى الدر المنثور (٤/ ١٧٩) ، عزوه لابن أبى الدنيا فى كتاب السحاب ، وأبى الشيخ فى العظمة ، والديلمي فى المسند ، وابن مردويه ، من حديث أبى هريرة.

(٤) أخرجه أبو داود فى (الأدب ، باب : ما يقول إذا هاجت الريح) ، عن أبى هريرة ، مرفوعا ، بلفظ : (الريح من روح اللّه) مطولا.

(٥) من الآية ٢٩ من سورة الحجر.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٨٣

من تنفيسه وإزالة الكرب والشدائد ، فمن التنفيس بالريح : النصر بالصبا ، وذر الأرزاق بها ، وجلب الأمطار ، وغير ذلك مما يكثر عده. قاله ابن عطية.

والمختار فى تفسير اللواقح : أنها حاملة للماء ، بدليل قوله : فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ أي : جعلناه لكم سقيا. يقال : سقى وأسقى بمعنى واحد عند الجمهور. وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ : بممسكين له فى الجبال ، والغدران ، والعيون ، والآبار ، فتخرجونه متى شئتم ، بل ذلك من شأن المدبر الحكيم ، فإن طبيعة الماء تقتضى الغور ، فوقوفه دون حد لا بد له من مسبب مخصص ، وجريه بلا انتهاء لا يكون إلا بقدرة السميع العليم ، الذي لا تتناهى قدرته. أو : وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ بقادرين متمكنين من إخراجه وقت الاحتياج إليه. نفى عنهم ما أثبته لنفسه بقوله : عِنْدَنا خَزائِنُهُ.

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ أي : نحيى من نريد إحياءه بإيجاد الحياة فيه ، ونميت من نريد إماتته بإزالة الحياة منه. وقد أول الحياة بما يعم الحيوان والنبات. وتكرير الضمير للدلالة على الحصر. وَنَحْنُ الْوارِثُونَ :

الباقون إذا مات الخلائق كلهم.

وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ أي : علمنا من تقدم ولادة ، ومن تأخر ، أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد ، أو من تقدم إلى الإسلام والجهاد وسبق إلى الطاعة ، ومن تأخر ، لا يخفى علينا شيء من أحوالكم. وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته ، فإنّ ما يدل على كمال قدرته دليل على كمال علمه. قيل : رغّب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فى الصف الأول ، فازدحموا عليه ، فنزلت ، وقيل : إن امرأة حسناء كانت تصلى خلف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فتقدم بعض القوم لئلا ينظر إليها ، وتأخر بعض ليبصرها ، فنزلت.

قاله البيضاوي.

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ لا محالة للجزاء ، كأن هذا هو الغرض من ذكر العلم بالمتقدمين والمتأخرين لأنه إذا أحاط بهم علما لم تصعب عليه إعادتهم وحشرهم. إِنَّهُ حَكِيمٌ باهر الحكمة ، عَلِيمٌ واسع العلم والإحاطة بكل معلوم. قال البيضاوي : وفى توسيط الضمير – يعنى فى قوله : هُوَ يَحْشُرُهُمْ للدلالة على أنه القادر والمتولى لحشرهم لا غيره ، وتصدير الجملة بأن لتحقيق الوعيد والتنبيه على أن ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الأشياء يدل على صحة الحكم. هـ.

الإشارة : ولقد جعلنا فى سماء قلوب العارفين بروجا ، وهى المقامات التي ينزلون فيها بشموس عرفانهم ، وهى : التوبة ، والخوف ، والرجاء ، والورع ، والزهد ، والصبر ، والشكر ، والرضى ، والتسليم ، والمحبة ، والمراقبة ،

والمشاهدة. وزيناها للناظرين أي : السائرين حتى يقطعوها جملة محمولين بعناية الجذب ، حتى يحلو لهم ما كان مرا على غيرهم ، وحفظنا سماء قلوبهم من طوارق الشيطان ، إلا ما كان طيفا خياليا لا يثبت ، بل يتبعه شهاب الذكر فيحرقه ، وأرض النفوس مددناها لقيام رسم العبودية ، وظهور عالم الحكمة وآثار القدرة ، وألقينا فيها جبال العقول الرواسي ، لتعرف الرب من المربوب الذي اقتضته الحكمة. وأنبتنا فيها من العلوم الرسمية والعقلية ، ما قدر لها فى العلم المكنون ، وجعلنا لكم فيها من علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ما تتقوت به قلوبكم ، وتعيش به أرواحكم وأسراركم ، وتعولون به من لستم له برازقين من المريدين السائرين.

سئل سهل رضي اللّه عنه عن القوت ، فقال : هو الحي الذي لا يموت ، فقيل : إنما سألناك عن القوام. فقال : القوام هو العلم ، فقيل : سألناك عن الغذاء ، فقال : الغذاء هو الذكر ، فقيل : سألناك عن طعام الجسد ، فقال : مالك وللجسد ، دع من تولّاه أولا يتولاه آخرا ، إذا دخلت عليه علة رده إلى صانعه ، أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردوها إلى صانعها حتى يصلحها. وأنشدوا :

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته وتطلب الربح مما فيه خسران

عليك بالنفس فاستكمل فضيلتها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

واستكمال فضيلة النفس هو تزكيتها وتحليتها حتى تشرق عليها أنوار العرفان ، وتخرج من سجن الأكوان. وباللّه التوفيق. ثم قال تعالى : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ من الأرزاق المعنوية والحسية ، أو العلوم اللدنية ، والفتوحات القدسية ، إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ فمن توجه بكليته إلينا فتحنا له خزائن غيبنا ، وأطلعناه على

مكنون سرنا شيئا فشيئا ، وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ. وقال الورتجبي : علم الإشارة فى الآية : دعوة العباد إلى حقائق التوكل ، وهى : قطع الأسباب ، والإعراض عن الأغيار ، قيل : كان الجنيد رضي اللّه عنه إذا قرأ هذه الآية وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ ، قال : فأين تذهبون؟. وقال حمدون : قطع أطماع عبيده عمن سواه بقوله : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ ، فمن رفع بعد هذا حاجته إلى غيره ، فهو لجهله ولؤمه. هـ.

وأرسلنا رياح الهداية لواقح ، تلقح الطمأنينة والمعرفة فى قلوب المتوجهين ، وتلقح اليقين والتوفيق فى قلوب الصالحين ، وتلقح الإيمان والهداية فى قلوب المؤمنين ، فأنزلنا من سماء الغيب ماء العلم اللدني ، فأسقيناكموه على أيدى وسائط الشيوخ ، أو بلا واسطة ، وما أنتم له بخازنين ، بل يفيض على قلوبكم عند غلبة الحال ، أو لهداية مريد ، أو عند الاحتياج إليه عند استفتاح القلوب ، وإنا لنحن نحيى قلوبا بالمعرفة واليقين ، ونميت قلوبا بالجهل والكفر ، ونحن الوارثون لبقاء أنوارنا على الأبد.

ولقد علمنا المستقدمين منكم إلى حضرة قدسنا بالاستعداد ، وإعطاء الكلية

من نفسه ، ولقد علمنا المستأخرين عنها بسبب ضعف همته ، وإن ربك هو يحشرهم فيقرب قوما لسبقهم ، ويبعد آخرين لتأخرهم. إنه حكيم عليم.

ثم ذكر أول نشأة الثقلين ، ليدل بها على الحشر والإعادة ، فقال :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٢٦ الى ٢٧]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ (٢٧)

قلت : قال فى الصحاح : الحمأ المسنون : المنتن المتغير. وسنّة الوجه : صورته ، ثم قال : والمسنون : المصوّر ، وقد سننته أسنّه سنّا إذا صوّرته ، والمسنون : المملّس. وفى القاموس : الحمأ المسنون : المنتن ، ورجل مسنون الوجه :

مملسه ، حسنه ، سهله. أو فى وجهه وأنفه طول. وسنن الطين : عمله فخارا. هـ. وفى ابن عطية : هو من سننت السكين والحجر : إذا أحكمت تلميسه. انظر بقية كلامه. وموضع مِنْ حَمَإٍ : نعت لصلصال ، أي : كائن من حمأ. و(الجان) : منصوب بمحذوف يفسره ما بعده.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ أي : أصله ، وهو آدم ، مِنْ صَلْصالٍ أي : طين يابس يصلصل. أي : يصوت إذا نقر فيه وهو غير مطبوخ ، فإذا طبخ فهو فخار ، مِنْ حَمَإٍ : من طين أسود مَسْنُونٍ : متغير منتن ، من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به فإنّ ما يسيل بينهما يكون منتنا ،

ويسمى سنينا. أو مسنون : مصور ، أو مصبوب ليتصور ، كالجواهر المذابة تصب فى القوالب ، من السن ، وهو الصب ، كأنه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف ، فيبس حتى إذا نقر صلصل ، ثم غير ذلك طورا بعد طور حتى سواه ونفخ فيه من روحه.

وَالْجَانَّ وهو : إبليس الأول ، ومنه تناسلت الجن ، خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ أي : من قبل خلق الإنسان ، مِنْ نارِ السَّمُومِ : من نار الحر الشديد النافذ فى المسام ، ولا يمتنع خلق الحياة فى الأجرام البسيطة ، كما لم يمتنع خلقها فى الجواهر المجردة ، فضلا عن الأجساد المؤلفة ، التي الغالب فيها الجزء الناري ، فإنها أقبل منها لها من التي الغالب فيها الجزء الأرضى. وقوله : مِنْ نارٍ : لاعتبار الغالب ، كقوله : خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ «١».

ومساق الآية كما هو للدلالة على قدرة اللّه تعالى ، وبيان بدء خلق الثقلين ، فهو للتنبيه على المقدمة الثانية التي يتوقف عليها إمكان الحشر ، وهو قبول المواد للجمع والإحياء. قاله البيضاوي.

---

(١) من الآية ١١ من سورة فاطر.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٨٦

الإشارة : اعلم أن الخمرة الأزلية ، حين تجلت فى مرائى جمالها ، تلونت فى تجليها ، فتجلت نورانية ونارية ، ومائية وترابية ، وسماوية وهوائية ، إلى غير ذلك من ألوان تجلياتها ، فكانت الملائكة من النور ، والجن من النار ، والآدمي من التراب ، إلا أن الآدمي فيه روح نورانية سماوية ، فاجتمع فيه الضدان : النور والظلمة فشرف قدره فى الجملة ، فاستحق الخلافة ، فإذا غلبت روحانيته على جسمانيته فضل على جميع التجليات ، وما مثاله إلا كالمرآة التي خلفها الطلاء ، فينطبع فيه الوجود بأسره ، إذا صقلت مرآة قلبه ، فتكون معرفته بالحق أجلى وأنصع من معرفة غيره لأن المرآة التي خلفها الطلاء يتجلى فيها ما يقابلها أكثر من غيرها. وأيضا بشرية الآدمي كالياقوتة السوداء إذا صقلت كانت أعظم اليواقيت.

وسيأتى بقية الكلام عند قوله تعالى : وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ «١» إن شاء اللّه.

ثم ذكر تشريف آدم الملائكة بالسجود له ، فقال :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٢٨ الى ٤١]

وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قالَ يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢)

قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧)

إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١)

قلت : (و إذ قال) : ظرف لاذكر ، وقوله : (فقعوا) : أمر ، من وقع ، يقع ، قع ، فهو مما حذفت فاؤه. وقوله :

فَسَجَدَ معطوف على محذوف ، أي : فخلقه ، وأمر الملائكة فسجدوا.

---

(١) من الآية ٧٠ من سورة الإسراء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٨٧

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يا محمد إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ ، قبل خلق آدم : إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ، وصفه لهم بذلك ليظهر صدق من يمتثل أمره ، قال تعالى : فَإِذا سَوَّيْتُهُ : عدلت خلقته وهيأتها لنفخ الروح فيها ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي حين جرى آثاره فى تجاويف أعضائه فحيى ، وأصل النفخ : إجراء الروح فى تجويف جسد آخر. ولما كان الروح يتعلق أولا بالبخار اللطيف المنبعث من القلب ، وتفيض عليه القوة الحيوانية فيسرى فى تجاويف الشرايين إلى أعماق البدن ، جعل تعلقه بالبدن نفخا. قاله البيضاوي. وأضاف الروح إلى نفسه إضافة ملك إلى مالك ، أي : من الروح الذي هو لى ، وخلق من خلقى.

فإذا نفخت فيه فَقَعُوا : فاسقطوا لَهُ ساجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ حين أكمل خلقته ، وأمرهم بالسجود ، وقيل : اكتفى بالأمر الأول ، كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ، أكد بتأكيدين للمبالغة فى التعميم ومنع التخصيص ، إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى : امتنع أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ، قال البيضاوي : إن جعل الاستثناء منقطعا اتصل به قوله : أَبى أي : لكن إبليس أبى أن يسجد «١» ، وإن جعل متصلا كان قوله أَبى : استئنافا ، على أنه جواب سائل قال : هلا سجد؟ فقال : أبى .. إلخ. قلت : والأحسن : أن يقدر السؤال بعد قوله : إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى أي : وما شأنه؟ فقال : أبى أن يكون مع الساجدين.

قال تعالى : يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أىّ شىء عرض لك ، أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ لآدم؟ قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ أي : لا يصح منى ، بل ينافى حالى أن أسجد لِبَشَرٍ جسمانى كثيف ، وأنا روحانى لطيف ، وقد خَلَقْتَهُ

مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ، وهو أخس العناصر ، وخلقتنى من نار وهى أشرفها. استنقص آدم من جهة الأصل ، وغفل عن الكمالات التي خصه اللّه بها ، منها : أنه خلقه بيديه بلا واسطة ، أي : بيد القدرة والحكمة ، بخلاف غيره ، ومنها : أنه خصه بالعلوم التي لم توجد عند غيره من الملائكة ، ومنها : أنه نفخ فيه من روحه المضافة إلى نفسه ، ومنها : أنه جعله خليفة فى أرضه ... إلى غير ذلك من الخواص التي تشرف بها فاستحق السجود.

---

(١) وهذا هو الصحيح فإبليس ، بنص الآية السابقة عن خلق الجان ، قد خلق من نار السموم ، فهذا نص فى اختلاف خلقته ، وخلقه ، عن الملائكة ، فهو جنس آخر غير الملائكة التي خلقها الله من نور ، ولا يعصون الله ما أمرهم ، فهذان دليلان قطعيان فى الثبوت والدلالة ، على أن إبليس ليس ، ولم يكن من الملائكة ، لا خلقا ولا خلقا ، فالاستثناء منقطع.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٨٨

قال له تعالى لمّا امتنع واستكبر : فَاخْرُجْ مِنْها أي : من السماء ، أو من الجنة ، أو من زمرة الملائكة ، فَإِنَّكَ رَجِيمٌ : مطرود من الخير والكرامة فإنّ من يطرد يرجم بالحجر ، أو شيطان يرجم بالشهب ، فهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته ، أي : ليس الشرف بالأصل ، إنما الشرف بالطاعة والقرب. وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ :

الطرد والإبعاد إِلى يَوْمِ الدِّينِ يوم الجزاء ، ثم يتصل باللعن الدائم. وقيل : إنما حد اللعن لأنه أبعد غاية يضربها الناس ، أو لأنه يعذب فيه بما ينسى اللعن ، فيصير كأنه زال عنه ذلك اللعن.

قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي : أخرنى إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ، أراد أن يجد فسحة فى الإغواء ، ونجاة من الموت ، إذ لا موت بعد وقت البعث ، فأجابه إلى الأول دون الثاني ، قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ :

المعين فيه أجلك عند اللّه ، وانقراض الناس كلهم ، وهو النفخة الأولى عند الجمهور.

وهذه المخاطبة ، وإن لم تكن بواسطة ، لا تدل على منصب إبليس لأن خطاب اللّه له على سبيل الإهانة والإذلال. قاله البيضاوي. وجزم ابن العربي ، فى سراج المريدين ، بأن كلام الحق تعالى إنما كان بواسطة ، قال :

لأن اللّه لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس ، فكيف يكلم من تولى إضلالهم. هـ. وتردد المازرىّ فى ذلك وقال : لا قاطع فى ذلك ، وإنما فيه ظواهر ، والظواهر لا تفيد اليقين. ثم قال : وأما قوله : ما

مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ :

فيحتمل أن يكون بواسطة أو بغيرها ، تقول العرب : كلمت فلانا مشافهة ، بالكلام ، وتارة بالبعث. هـ.

قلت : الظاهر أنه كلمه بلا واسطة من وراء حجاب ، كلام عتاب وإهانة ، كما يوبخ الكفار يوم القيامة ، مع أن الواسطة محذوفة عند المحققين ، وإن وجدت ، صورة.

ثم قال : رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي أي : بسبب إغوائك لى ، لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ، وقيل : الباء للقسم ، أي :

بقدرتك على إغوائى ، لأزينن لهم المعاصي والكفر فى الدنيا ، التي هى دار الغرور. قال ابن عطية : قوله :

رَبِّ : مع كفره ، يخرج على أنه يقر بالربوبية والخلق ، وهذا لا يدفع فى صدر كفره. وقال ، على قوله : لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ : ليس هذا موضع كفره عند الحذاق لأن إبايته إنما هى معصية فقط ، أي : وإنما كفره لاعتراضه لأمر الحق واستكباره. وأما قوله وتعليله فإنما يقتضى أن آدم مفضول ، وقد أمره أن يسجد لمن هو أفضل منه ، فرأى أن ذلك جور ، فقاس وأخطأ ، وجهل أن الفضائل إنما هى حيث جعلها اللّه تعالى المالك للجميع. هـ. مختصرا. وقال المازري : أما كفر إبليس فمقطوع به لقوله : اسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ «١» ثم قال : ويؤكده قوله : رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي ، وقوله : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ ... الآية «٢» ، وغير ذلك من ظواهر ما يدل على كفره.

---

(١) من آية ٣٤ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٨٥ من سورة (ص).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٨٩

وأما : هل حدث هذا الكفر بعد إيمان سابق ، أو لم يزل كافرا منذ كان؟ فهذا لا يحصله إلا نص قرآن ، أو خبر متواتر ، أو إجماع أمة ، وهى المحصلة للعلم ، وهذه الثلاثة مفقودة هنا. هـ. قلت : والظاهر أن كفره لم يظهر إلا بعد الأمر بالسجود لآدم ، وإنما سبق به العلم القديم ، وكان قد أظهر الإيمان والعبادة واللّه تعالى أعلم.

وقوله : وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ لأحملنهم على الغواية أجمعين ، إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ الذين أخلصتهم لطاعتك ، وطهرتهم من الشهوات ، فلا يعمل فيهم كيدى. ومن قرأ بالكسر فمعناه : الذين أخلصوا دينهم للّه ، وتحصنوا بالإخلاص فى سائر أعمالهم. قالَ تعالى : هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ،

الإشارة إلى نجاة المخلصين ، أو إلى العبادة والإخلاص ، أي : هذا الطريق الذي سلكه أهل الإخلاص فى عبوديتهم هو طريق وارد علىّ ، وموصل إلى جوارى ، لا سبيل لك على أهله لأنه مستقيم لا عوج فيه. وقيل : الإشارة إلى انقسام الناس إلى غاو ومخلص ، أي : هذا أمر إلىّ مصيره ، والنظر فيه لى ، علىّ أن أراعيه وأبينه ، مستقيم لا انحراف فيه. وقرأ الضحاك ومجاهد والنخعي ، وغيرهم : «علىّ» بكسر اللام والتنوين ، من العلو والشرف ، والإشارة حينئذ إلى الإخلاص ، أي : هذا الإخلاص طريق رفيع مستقيم لا تنال أنت بإغوائك أهله يا إبليس.

الإشارة : إنما يصعب الخضوع للجنس أو لمن دونه ، فى حق من يغلب حسه على معناه ، وفرقه على جمعه ، وأما من غلب معناه على حسه ، حتى رأى الأشياء الحسية أوانى حاملة للمعانى ، أي : لمعانى أسرار الربوبية ، بل رآها أنوارا بارزة من بحر الجبروت ، لم يصعب عليه الخضوع لشىء من الأشياء لأنه يراها قائمة باللّه ، ولا وجود لها مع اللّه ، فلا يخضع حينئذ إلا للّه ، فالملائكة – عليهم السلام – نفذت بصيرتهم ، فرأوا آدم عليه السّلام قبلة للحضرة القدسية ، فغلب عليهم شهود المعاني دون الوقوف مع الأوانى ، فخضعوا لآدم صورة ، وللّه حقيقة. وإبليس وقف مع الحس ، وحجب بالفرق عن الجمع ، فلم ير إلا حس آدم دون معناه ، فامتنع عن السجود. وفى الحكم العطائية : «فمن رأى الكون ، ولم يشهد الحق فيه ، أو عنده ، أو قبله ، أو بعده ، أو معه ، فقد أعوزه وجود الأنوار ، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار». ولهذا المعنى صعب الخضوع للأشباح لغلبة الفرق على الناس ، إلا من سبقت له العناية ، فإنه يخضع مع الفرق محبة للّه ، حتى يفتح اللّه عليه فى مقام الجمع ، فيخضع للّه وحده. والتوفيق لهذا ، والسير على منهاجه – أعنى الخضوع لمن يوصل إلى اللّه – هو الصراط الذي أشار إليه الحق تعالى بقوله : (هذا صراط علىّ مستقيم). واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر من لا تسلط للشيطان عليه ، فقال :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٤٢ الى ٤٨]

إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ (٤٦)

وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (٤٧) لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ (٤٨)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٩٠

قلت : (إلا من اتبعك) : يحتمل أن يكون منقطعا ، ويريد بالعباد : الخصوص من أهل الإيمان والإخلاص ، أي :

إن عبادى المخلصين لا تسلط لك عليهم ، لكن من اتبعك من الغاوين فهو من حزبك. ويحتمل الاتصال ، ويريد بالعباد جميع الناس ، أي : إن عبادى كلهم ليس لك عليهم سلطان ، إلا من اتبعك من أهل الغواية ، فإنك تتسلط عليه بالوسوسة والتزيين والتحريض فقط ، فيتبعك لقوله يوم القيامة : وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي «١». وعلى الاتصال يكون المستثنى منه أكثر من المستثنى ، وإلا تناقض مع قوله :

لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. قال أبو المعالي : كون المستثنى أكثر من المستثنى منه ليس معروفا فى كلام العرب. انظر ابن عطية والبيضاوي.

ومِنْهُمُ : حال من جزء مقدم ، أي : لكل باب جزء حاصل منهم مقسوم ، أو من المستكن فى الظرف لا من مقسوم لأن الصفة لا تعمل فيما تقدم موصوفها. وإِخْواناً : حال من الضمير المضاف إليه لأنه جزء ما أضيف إليه ، والعامل فيه : الاستقرار ، أو معنى الإضافة ، وكذا : عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ ، ويجوز أن يكونا صفتين لإخوان ، أو حالين من ضميره.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ عِبادِي المتحققين بالعبودية لى ، المخلصين فى أعمالهم ، لَيْسَ لَكَ يا إبليس عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ أي : غلبة وتسلط بالغواية والإضلال ، إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ الذين سبقت لهم الغواية ، وتنكبتهم العناية. وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ : لموضع إبعاد الغاوين أو المتبعين لك أَجْمَعِينَ ، لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ يدخلون فيها لكثرتهم ، أو طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم فى المتابعة ، وفى كل طبقة باب يسلك منه إليها ، فأعلاها : جهنم ، وهى للمذنبين من الموحدين ، ثم لظى لليهود ، ثم الحطمة للنصارى ، ثم السعير للصابئين ، ثم سقر للمجوس ، ثم الجحيم للمشركين ، وكبيرهم أبو جهل ، ثم الهاوية ، وهى الدرك الأسفل ، للمنافقين ،

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة إبراهيم.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٩١

وعبّر فى الآية عن النار جملة ، بجهنم إذ هى أشهر منازلها وأولها ، وهو موضع العصاة الذين لا يخلدون ، ولهذا روى أن جهنم تخرب وتبلى ، يعنى : حين يخرج العصاة منها. وقيل : أبواب الطبقات

السبع كلها من جهنم ، ثم ينزل من كل باب إلى طبقته التي تفضى إليه. قاله ابن عطية.
قال البيضاوي : ولعل تخصيص العدد بالسبعة ، لانحصار مجامع المهلكات فى الركون إلى المحسوسات ، ومتابعة القوة الشهوية والغضبية. هـ. فالقوة الشهوية محلها ست وهى : السمع والبصر والشم واللسان والبطن والفرج. والقوة الغضبية فى البطش باليد والرجل ، فالمعاصى المهلكات جلها من هذه السبع ، وملكها القلب ، إذا صلح صلحت ، وإذا فسد فسدت. كما فى الحديث. ثم قال البيضاوي : أو لأن أهلها فرق سبع. هـ. يعنى : الفرق التي تقدمت للطبقات ، قال تعالى : لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ أي : من الأتباع جُزْءٌ مَقْسُومٌ أفرد له ، لا يدخل إلا منه ، ولا يسكن إلا فى طبقته. وقد تقدم أهل كل طبقة ، من عصاة الموحدين إلى المنافقين.
ثم شفع بضدهم ، على عادته سبحانه وتعالى فى كتابه ، فقال : إِنَّ الْمُتَّقِينَ للكفر والفواحش ، أو لمتابعة إبليس ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، لكل واحد جنة وعين ، أو لكل واحد جنات وعيون ، يقال لهم عند دخولهم :
ادْخُلُوها ، وقرأ رويس عن يعقوب : «أدخلوها» بضم الهمزة وكسر الخاء ، على البناء للمفعول ، فلا يكسر حينئذ التنوين ، أي : تقول الملائكة لهم : ادخلوها ، أو قد أدخلهم اللّه إياها. بِسَلامٍ أي : سالمين من المكاره والآلام ، أو مسلما عليكم بالتحية والإكرام ، آمِنِينَ من الآفة والزوال.
وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ أي : من حقد وعداوة كانت فى الدنيا ، وعن على رضي اللّه عنه : (أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم) ، أو من التحاسد على درجات ومراتب القرب.
قلت : أما التحاسد على مراتب القرب فلا يكون لاستغناء كل أحد بما لديه ، وأما التأسف والندم على فوات ذلك بالتفريط فى الدنيا فيحصل ، ففى الحديث : «ليس يتحسّر أهل الجنّة على شىء إلّا على ساعة مرّت لهم لم يذكروا اللّه فيها» «١». ولا يحصل التحسر حتى يرى ما فاته باعتبار وقوفه. قال ابن عطية : ذكر هنا نزع الغل من قلوب أهل الجنة ، ولم يذكر له موطنا ، وجاء فى بعض الحديث أن ذلك على الصراط ، وجاء فى بعضها : أن ذلك على أبواب الجنة ، وفى بعضها : أن الغل يبقى على أبوابها كمعاطن الإبل. ثم قال : وجاء فى بعض الأحاديث : أن نزع الغل إنما يكون بعد استقرارهم فى الجنة. والذي يقال فى هذا : أن اللّه ينزعه فى موطن من قوم وفى موطن من آخرين. هـ.

---

(١) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (باب فى محبة الله عز وجل ٥١٢) من حديث معاذ بن جبل ، وعزاه السيوطي فى الجامع الصغير (٢/ ٤٧١) للطبرانى والبيهقي فى الشعب ، ورمز له بالحسن.

قلت : والذي جاء فى الأحاديث الواردة فى أخبار الآخرة : أن أهل الجنة ، إذا قربوا منها وجدوا على بابها عينين ، فيغتسلون فى إحداهما ، فتنقلب أجسادهم على صورة آدم عليه السّلام ، ثم يشربون من الأخرى فتطهر قلوبهم من الغل والحسد ، وسائر الأمراض ، وهو الشراب الطهور. قال القشيري فى قوله تعالى : وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً «١» : يقال : يطهّرهم من محبة الأغيار ، ويقال : ويطهّرهم من الغلّ والغشّ والدعوى ... إلخ ما يأتى إن شاء اللّه تعالى. واللّه تعالى أعلم ، وسترى وتعلم.

ثم قال تعالى : إِخْواناً ، أي : لما نزعنا ما فى صدورهم من الغل صاروا إخوانا متوددين ، لا تباغض بينهم ولا تحاسد ، عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ يقابل بعضهم بعضا على الأسرة ، لا ينظر أحد فى فناء صاحبه. وقال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى : المتجه أن المقابلة معنوية ، وهى عدم إضمار الغل والإعراض ، سواء اتفق ذلك حسا أم لا ، ومن أضمر لأخيه غلا فليس بمقابله ، ولو كان وجهه إلى وجهه ، بل ذلك أخلاق نفاق ، ولذلك شواهد بذمه لا بمدحه. هـ. لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ أي : تعب ، وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ ، لأن تمام النعمة لا يكون إلا بالخلود والدوام فيها. أكرمنا اللّه بتمام نعمته ، ودوام النظر إلى وجهه. آمين.

الإشارة : لا ينقطع عن العبد تسلط الشيطان حتى يدخل مقام الشهود والعيان ، حين يكون عبدا خالصا للّه ، حرا مما سواه ، وذلك حين ينخرط فى سلك القوم ، ويزول عنه لوث الحدوث والعدم ، فيفنى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل ، وذلك بتحقيق مقام الفناء ، ثم الرجوع إلى مقام البقاء. قال الشيخ أبو المواهب رضي اللّه عنه : من رجع إلى البقاء أمن من الشقاء وذلك أن العبد حين يتصل بنور اللّه ، ويصير نورا من أنواره ، يحترق به الباطل ويدمغ ، فلا سبيل للأغيار عليه. ولذلك قال بعضهم : نحن قوم لا نعرف الشيطان ، فقال له القائل : فكيف ، وهو مذكور فى كتاب اللّه تعالى ، قال تعالى : إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا «٢»؟. فقال : نحن قوم اشتغلنا بمحبة الحبيب ، فكفانا عداوة العدو. وحين يتحقق العبد بهذا المقام ينخرط فى سلك قوله تعالى : إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ. وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ .. الآية ، وهذا لا ينال إلا بالخضوع لأهل النور ، حتى يوصلوه إلى نور النور ، فيصير قطعة من نور ، غريقا فى بحر النور. ومع هذا لا ينقطع عنه الخوف والرجاء ، لقوله تعالى :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٤٩ الى ٥٠]

نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ (٥٠)

---

(١) من الآية ٢١ من سورة الإنسان.

(٢) من الآية ٦ من سورة فاطر.

البحر المديد ج ٣ ، ص : ٩٣

يقول الحق جل جلاله : نَبِّئْ : أخبر ، عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ لمن آمن بي ، وصدق رسلى ، وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ لمن كفر بي ، وجحد رسلى ، أو بعضهم. قال البيضاوي : هى فذلكة ما سبق من الوعد والوعيد ، وتقرير له ، وفى ذكر المغفرة دليل على أنه لم يرد بالمتقين متقى الذنوب بأسرها ، كبيرها وصغيرها ، وفى توصيف ذاته بالغفران والرحمة دون التعذيب – أي : لم يقل وأنا المعذب المؤلم – ترجيح الوعد. هـ.

وذكر ابن عطية أن سبب نزولها : أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جاء إلى جماعة من أصحابه ، عند باب بنى شيبة فى الحرم ، فوجدهم يضحكون ، فزجرهم ووعظهم ، ثم ولى ، فجاءه جبريل عن اللّه ، فقال : يا محمد أتقنّط عبادى؟ وتلى عليه الآية ، فرجع بها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إليهم وأعلمهم «١». هـ. ثم قال : ولو لم يكن هذا السبب لكان ما قبلها يقتضيها إذ تقدم ذكر ما فى النار وذكر ما فى الجنة ، فأكّد تعالى تنبيه الناس بهذه الآية. هـ.

قيل : وهذه الآية أبلغ ما فى القرآن فى إثارة الخوف والرجاء ، من الآي التي لا تشبهها فى الإجمال لما فيها من التصريح ، ثم الرجاء فيها أغلب لأجل التقديم ، مع ذكره فى آية الرجاء ، لصفاته العلية وأسمائه الحسنى ، وذلك يؤذن بالتهمم به وترجيحه ، وهو مذهب الصوفية فى حال الحياة والممات.

الإشارة : الخوف والرجاء يتعاقبان على الإنسان ، فتارة يغلب عليه الخوف ، وتارة يغلب عليه الرجاء. هذا قبل الوصول ، وأما بعد الوصول فالغالب عليهم الاعتدال ، قال فى التنبيه : أما العارفون الموحدون فإنهم على بساط القرب والمشاهدة ، ناظرون إلى ربهم ، فانون عن أنفسهم ، فإذا وقعوا فى ذلة ، أو أصابتهم غفلة ، شهدوا تصريف الحق تعالى لهم ، وجريان قضائه عليهم. كما أنهم إذا صدرت منهم طاعة ، أو لاح منهم لائح من يقظة ، لم يشهدوا فى ذلك أنفسهم ، ولم يروا فيها حولهم ولا قوتهم لأن السابق إلى قلوبهم ذكر ربهم ، فأنفسهم مطمئنة تحت جريان أقداره ، وقلوبهم ساكنة بما لاح لهم من أنواره ، ولا فرق عندهم بين الحالين لأنهم غرقى فى بحار التوحيد ، قد استوى خوفهم ورجاؤهم ، فلا ينقص من خوفهم ما يجتنبونه من العصيان ، ولا يزيد فى رجائهم ما يأتون من الإحسان. هـ. قلت : بل طرق الرجاء عندهم أرجح ، كما تقدم لأن الرجاء ناشئ عن غلبة المحبة ، وهى غالبة.

واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري فى تفسيره (١٤/ ١٠٢) عن رجل من أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وذكره الواحدي فى أسباب النزول (٢٨٣) بدون سند.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٩٤

ثم ذكر قصة إبراهيم مع أضيافه لاشتمالها على الرحمة ، وهى البشارة بالولد ، وعلى النقمة ، وهى الإعلام بتعذيب قوم لوط ، فقال :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٥١ الى ٦٠]

وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ (٥٥)

قالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ (٦٠)

قلت : سَلاماً : مفعول بمحذوف ، أي : سلمنا سلاما ، أو نسلم عليكم سلاما. والضيف يطلق على الواحد والجماعة ، والمراد هنا : جماعة من الملائكة. و(تبشرون) : قرئ بشد النون بإدغام نون الرفع فى نون الوقاية ، وبالتخفيف بحذف إحدى النونين ، وبالفتح ، على أنها نون الرفع. و(يقنط) : بالفتح والكسر ، يقال : قنط كضرب وعلم.

يقول الحق جل جلاله : وَنَبِّئْهُمْ أي : وأخبر عبادى عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ حين بشروه بالولد ، وأعلموه بعذاب قوم لوط ، لعلهم يعتبرون فيرجون رحمته ويخافون عذابه. أو : ونبئهم أن من اعتمد منهم على كفره وغوايته ، فالعذاب لاحق به فى الدنيا ، كحال قوم لوط. ثم ذكر قصتهم من أولها فقال : وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ ، وذلك حين دَخَلُوا عَلَيْهِ ، وهم أربعة : جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، فَقالُوا سَلاماً أي : نسلم عليكم سلاما ، قال : سلام ، ثم أتاهم بعجل حنيذ ، فلما قربه إليهم ، قالوا : إنا لا نأكل طعاما إلا بثمن ، فقال إبراهيم : إن له ثمنا ، قالوا : وما ثمنه؟ قال : تذكرون اسم اللّه على أوله ، وتحمدونه على آخره ، فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال : حق لهذا أن يتخذه ربه خليلا ، فلما رأى أنهم لا يأكلون فزع منهم. ومن طريق آخر : أن جبريل مسح بجناحه العجل ، فقام يدرج حتى لحق بأمه فى الدار. هـ. هكذا ذكر القصة المحشى الفاسى عن ابن حجر.

فلما أحس إبراهيم عليه السّلام بالخوف منهم قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ : خائفون إما لامتناعهم من أكل طعامه ، أو لأنهم دخلوا بغير إذن ، أو فى غير وقت الدخول. والوجل : اضطراب النفس لتوقع مكروه. قالُوا لا تَوْجَلْ :

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٩٥

لا تخف ، ثم عللوا نهيه عن الخوف فقالوا : إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ وهو إسحاق ، لقوله : فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ «١» ، عَلِيمٍ إذا بلغ أوان العلم. قالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ أي : أبشرتموني بالولد مع أنى قد كبر سنى ، وكان حينئذ من مائة سنة وأكثر ، فَبِمَ تُبَشِّرُونَ؟ أي : فبأى أعجوبه تبشرون؟ أو فبأى شيء تبشرون؟

فإن البشارة بما لا يتصور وقوعه عادة بشارة بغير شيء. قال ذلك على وجه التعجب من ولادته فى كبره.

قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ : باليقين الثابت الذي لا محالة فى وقوعه ، فلا تستبعده ، ولا تشك فيه ، فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ : من الآيسين ، فإن اللّه تعالى قادر على أن يخلق بشرا من غير أبوين ، فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر. وكان استعجاب إبراهيم باعتبار العادة دون القدرة ولذلك قالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ أي : لا ييأس من رحمة ربه إِلَّا الضَّالُّونَ : المخطئون طريق المعرفة ، فلا يعرفون سعة رحمته تعالى ، وكمال قدرته. قال القشيري : أي : من الذي يقنط من رحمة اللّه إلا من كان ضالا ، فكيف أخطأ ظنكم بي ، فتوهمتم أنى أقنط من رحمة ربى؟. هـ. وفيه دليل على تحريم القنوط قال تعالى : إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ «٢».

قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ أي : ما شأنكم الذي أرسلتم لأجله سوى البشارة؟ ولعله علم أن كمال المقصود ليس هو البشارة فقط ، لأنهم كانوا عددا ، والبشارة لا تحتاج إلى عدد ، ولذلك اكتفى بالواحد فى بشارة زكريا ومريم. أو لأنهم بشروه فى تضاعيف الحال لإزالة الوجل ، ولو كانت تمام المقصود لابتدروه بها. ثم أجابوه : قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ يعنى : قوم لوط لأن شأنهم الإجرام بفعل الفاحشة ، إِلَّا آلَ لُوطٍ أي : لكن آل لوط لم نرسل إلى عذابهم إذ ليسوا مجرمين. أو أرسلنا إلى قوم أجرموا كلهم ، إلا آل لوط ، لنهلك المجرمين وننجى آل لوط ، ويدل عليه قوله : إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ من العذاب الذي يهلك به قوم لوط.

قال ابن جزى : قوله : إِلَّا آلَ لُوطٍ : يحتمل أن يكون استثناء من قومه ، فيكون منقطعا لوصف القوم بالإجرام ، ولم يكن آل لوط مجرمين. ويحتمل أن يكون استثناء من الضمير فى مُجْرِمِينَ فيكون متصلا ، كأنه قال : إلى قوم أجرموا كلهم إلا آل لوط فلم يجرموا ، وقوله : إِلَّا امْرَأَتَهُ استثناء من آل لوط ، فهو استثناء من استثناء. قيل : وفيه دليل على أن الأزواج من الآل لأنه استثنى امرأته من آله. وقال الزمخشري : إنما هو

---

(١) من الآية ٧١ من سورة هود. [.....]

(٢) من الآية ٨٧ من سورة يوسف.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٩٦

استثناء من الضمير المجرور فى قوله : إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ، وذلك هو الذي يقتضيه المعنى. هـ. أي : إنا لمنجوهم من العذاب إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ الباقين فى العذاب مع الكفرة لتهلك معهم ، وقرأ أبو بكر عن عاصم : «قدرنا» بالتخفيف ، وهما لغتان ، يقال : قدّر اللّه كذا وقدره. قال البيضاوي : وإنما علق ، والتعليق من خواص أفعال القلوب لتضمنه معنى العلم ، ويجوز أن يكون (قدرنا) : أجرى مجرى قلنا لأن التقدير بمعنى القضاء قول ، وأصله : جعل الشيء على مقدار غيره ، وإسناد التقدير إلى أنفسهم ، وهو فعل اللّه تعالى لما لهم من القرب والاختصاص. هـ.

قلت : وفيه إشارة إلى حذف الوسائط ، كما هو توحيد المحققين. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية ، فالوجل والخوف والفرح والحزن والتعجب والاستعظام للأشياء الغريبة ، كل ذلك من وصف البشر ، يقع من الخصوص وغيرهم ، لكن فرق بين خاطر وساكن فالخصوص تهجم عليهم ولا تثبت ، بخلاف العموم.

ويؤخذ من الآية : أن صحبة الخصوص لا تنفع إلا مع الاعتقاد والتعظيم ، فإنّ امرأة نبى اللّه لوط كانت متصلة به حسا ، ومصاحبة له ، ولم ينفعها ذلك ، حيث لم يكن لها فيه اعتقاد ولا تعظيم. وكذلك صحبة الأولياء : لا تنفع إلا مع الصدق والتعظيم. وقول ابن عطاء اللّه : «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه.

ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه» : مقيد بوصول التعظيم والاعتقاد ، والاستماع والاتباع. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة هلاك قوم لوط ، فقال :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٦١ الى ٧٧]

فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢) قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْناكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥)

وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦) وَجاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩) قالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ (٧٠) قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ

لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥)
وَإِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)

(٩٦/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٩٧
قلت : وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ ، القضاء هنا بمعنى القدر السابق ، وضمّنه معنى أوحينا ، فعداه بإلى.
و(أنّ دابر) : بدل من الأمر ، وفى ذلك تفخيم الأمر وتعظيم له ، ومُصْبِحِينَ : حال من «هؤلاء» ، أو من ضمير مقطوع ، وجمعه للحمل على المعنى لأن دابر بمعنى دوابر ، أي : قطعنا دوابرهم حال كونهم داخلين فى وقت الصباح.
ولَعَمْرُكَ : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : قسمى ، قال ابن عزيز : عمر وعمر واحد ، ولا يقال فى القسم إلا مفتوحا ، وإنما فتح فى القسم فقط لكثرة الاستعمال.
يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ، وهم أضياف إبراهيم ، فلما دخلوا عليه ولم يعرفهم ، قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ لا نعرفكم. أو تنكركم نفسى مخافة أن تطرقونى بشىء ، قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ أي : ما جئناك بما تنكرنا لأجله ، بل جئناك بما يسرك ، وهو : قطع الفاحشة من بلدك ، وإتيان العذاب لعدوك الذي توعدناهم ، فكانوا يمترون فيه ويشكون فى إتيانه ، وَأَتَيْناكَ بِالْحَقِّ باليقين الثابت ، وهو إتيان العذاب لا محالة ، وَإِنَّا لَصادِقُونَ فيما أخبرناك به.
فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ : فاذهب بهم بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ أي : فاخرج بهم فى طائفة من الليل ، قيل : آخره ، وَاتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ أي : كن خلفهم فى ساقتهم ، حتى لا يبقى منهم أحد ، أو : أمره بالتأخر عنهم ليكونوا قدامه ، فلا يشتغل قلبه بهم لو كانوا خلفه لخوفه عليهم ، أي : ليسرع بهم ، ويطلع على أحوالهم. وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ خلفه ، لينظر ما وراءه ، فيرى من الهول ما لا يطيقه ، أو : ولا ينصرف أحد منكم ، ولا يتخلف لغرض فيصيبه ما أصابهم. وقيل : نهوا عن الالتفات ليوطنوا أنفسهم على الهجرة. وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ أي : إلى حيث أمركم اللّه ، وهو الشام أو مصر ، وقال بعضهم : «ما من نبى هلك إلا لحق بمكة ، وجاور بها حتى مات».
وَقَضَيْنا : أوحينا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ ، وهو هلاك قومه ، ذكره مبهما ثم فسره بقوله : أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ وهو كناية عن استئصالهم ، والمعنى : أنهم يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد ، حال كونهم وقت العذاب مُصْبِحِينَ : داخلين فى الصباح.
وَجاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ، وهى سدوم ، يَسْتَبْشِرُونَ بأضياف لوط طمعا فيهم فى فعل الفاحشة ، والظاهر : أن هذا المجيء إليه ، وما جرى له معهم من المحاورة ، كان قبل الإعلام بهلاكهم ، كما تقدم فى هود.

وانظر ابن عطية. فلما جاءوه يراودونه عن ضيفه قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ بهتك حرمة ضيفى ، فإن

(٩٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٩٨

من فضح ضيفه فقد فضح هو ، ومن أسىء إلى ضيفه فقد أسىء إليه ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فى ركوب الفاحشة ، وَلا تُخْزُونِ : ولا تهينونى بإهانتهم. والخزي هو الهوان ، أو : ولا تخجلون فيهم ، من الخزاية وهو الحياء.

قالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ عن أن تجير منهم أحدا ، أو تحول بيننا وبينهم ، وكانوا يتعرضون لكل أحد ، وكان لوط عليه السّلام يمنعهم ويزجرهم عنه بقدر وسعه. وذكر السدى : أنهم إنما كانوا يفعلون الفاحشة بالغرباء ، ولا يفعلونها بعضهم ببعض ، فكانوا يعترضون الطرق. هـ. أو : أو لم ننهك عن ضيافة العالمين وإنزالهم؟ قالَ هؤُلاءِ بَناتِي تزوّجوهنّ إياكم ، وقد كان يمنعهم قبل ذلك لكفرهم ، فأراد أن يقى أضيافه بهن. ولعله لم يكن حراما فى شريعته. أو يريد بالبنات نساء القوم فإن نبى كل أمة بمنزلة أبيهم ، إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ قضاء الوطر ، أو : ما أقول لكم من التزويج ، فأبوا ، ولجوا فى عملهم.

قال تعالى لنبيه محمد صلى اللّه عليه وسلم : لَعَمْرُكَ : لحياتك يا محمد ، أقسم بحياته – عليه الصلاة والسلام – لشرف منزلته عنده. قال ابن عباس – رضى اللّه عنهما : «ما خلق اللّه خلقا أكرم عليه من محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وما أقسم بحياة أحد إلا بحياته ، فقال : لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ قال القرطبي : وإذا أقسم اللّه بحياة نبيه فإنما أراد التصريح لنا أنه يجوز لنا أن نحلف بحياته. وقد قال الإمام أحمد فيمن أقسم بالنبي صلى اللّه عليه وسلم : ينعقد به يمينه ، وتجب الكفارة بالحنث ، واحتج بكون النبي صلى اللّه عليه وسلم أحد ركنى الشهادة. قال ابن خويز منداد : هذا إذ استدل من جوّز الحلف به عليه الصلاة والسلام ، بأن أيمان المسلمين جرت من عهده صلى اللّه عليه وسلم حتى إن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا جاء صاحبه قال له : احلف لى بما حوى هذا القبر ، وبحق ساكن هذا القبر ، يعنى النبي صلى اللّه عليه وسلم. هـ «١».

قلت : ومذهب مالك أنه لا ينعقد يمين بغير اللّه ، وصفاته ، وأسمائه. وقيل : إن قوله تعالى : لَعَمْرُكَ : هو من قول الملائكة للوط ، أو لحياتك يا لوط ، إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ : أي : لفى غوايتهم ، أو شدة غلمتهم التي أزالت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ والصواب ، يتحيرون. والغلمة : شهوة الوقاع. والعمه : الحيرة ، أي : إنهم لفى عماهم يتحيرون ، فكيف يسمعون نصح من نصحهم؟ والضمائر لقوم لوط ، وقيل : لقريش ، والجملة : اعتراض.

قال تعالى : فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ، يعنى : صيحة هائلة مهلكة. قال ابن عطية : هذه الصيحة صيحة الرجعة ، وليست كصيحة ثمود. هـ. وقيل : صاح بهم جبريل فأهلكتهم الصيحة ، مُشْرِقِينَ : داخلين فى وقت شروق الشمس فابتدئ هلاكهم بعد الفجر مصبحين ، واستوفى هلاكهم مشرقين. فَجَعَلْنا عالِيَها أي : عالى المدينة ، أو قراها ، سافِلَها ، فصارت منقلبة بهم.

---

(١) ملخّصا.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٩٩

روى أن جبريل عليه السّلام اقتلع المدينة بجناحيه ورفعها ، حتى سمعت الملائكة صراخ الديكة ونباح الكلاب ، ثم قلبها وأرسل الكل ، فمن كان داخل المدينة أو القرى مات ، ومن كان خارجا عنها أرسلت عليه الحجارة ، كما قال تعالى : وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ : من طين متحجر مطبوخ بالنار. وقد تقدم فى سورة هود «١» مزيد بيان لهذا. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ : المتفكرين المعتبرين المتفرسين فى الأمور ، الذين يتثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشيء بسمته ، وَإِنَّها أي : المدينة أو القرى ، لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ : لفى طريق ثابت يسلكه الناس ، ويمرون به ، ويرون آثارها. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً : لعبرة لِلْمُؤْمِنِينَ باللّه ورسله فإنهم هم المهتدون للتفكر والاعتبار ، دون من غلبت عليه الغفلة والاغترار ، كحال الكفار والفجار. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما بعث اللّه داعيا يدعو إليه إلا وكان أول ما يدعوهم إليه ، بعد الإيمان ، الخروج من العوائد والحظوظ النفسانية ، وما هلك من هلك من الأمم إلا بالبقاء معها ، وعدم الخروج عنها ، وما نجى من نجى إلا بالخروج عنها.

وكذلك فى طريق الخصوصية : ما بعث اللّه وليا مربيا إلا وكان أول ما يأمر : بخرق ، العوائد لاكتساب الفوائد ، فلا طريق لخصوصية الولاية إلا منها. وفى الحكم : «كيف تخرق لك العوائد ، وأنت لم تخرق من نفسك العوائد». فمن تربى فى الرئاسة والجاه فلا مطمع له فى الخصوصية حتى يبدلهما بالخمول والذل ، وكذلك من تعود جمع الدنيا واحتكارها ، فلا بد من الزهد فيها والخروج عنها ، وكذلك سائر العوائد النفسانية ، والحظوظ الجسمانية ، فمن جاور قوما منهمكين فيها ، ولم يجد من يساعده على خرقها ، فليهاجر منها ، ويقال له : فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ، ولا يلتفت منكم أحد إلى الرجوع ، إلا بعد الرسوخ والتمكين فى معرفة الحق تعالى ، وليمض حيث يجد من ينهض معه إلى اللّه فى نقل عوائدها وعوائقها.

وقوله تعالى : وَجاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ : هذه عادة أهل الغفلة ، إن جاءهم من يجدون فيه موافقة هواهم ، هرعوا إليه مستبشرين ، وإن جاء من ينصحهم ويأمرهم بالخروج عن أهوائهم أدبروا عنه ، ومقتوه ، وربما أخرجوه من بلدهم ، قال تعالى فى أمثالهم : (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون). وباللّه التوفيق.

ثم ذكر قصة شعيب عليه السّلام ، فقال :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٧٨ الى ٧٩]

وَإِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ (٧٩)

قلت : «إن» : مخففة ، واللام فارقة.

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ ، وهم قوم شعيب ، كانوا يسكنون غيضة ، وهى الأيكة. والأيكة : الشجر الملتف ، قيل : كانت من الدوح ، وقيل : من السدر ، فكانوا يسكنون فيها ، ويرتفقون بها

---

(١) راجع تفسير الآيات ٨١ – ٨٣.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٠٠

فى معايشهم ، فبعث اللّه لهم شعيبا عليه السّلام فكفروا به ، فسلط اللّه عليهم الحر سبعة أيام ، ثم رأوا سحابة فخرجوا فاستظلوا تحتها ، فاضطرمت عليهم نارا ، فاحترقوا. قال تعالى : فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ بالهلاك بالحر ، وَإِنَّهُما ، يعنى : سدوم مدينة قوم لوط ، والأيكة قرية شعيب. وقيل : الأيكة ومدين لأن شعيبا عليه السّلام كان مبعوثا إليهما ، وكان ذكر أحدهما مغن عن الآخر ، لَبِإِمامٍ مُبِينٍ : لبطريق واضح يسلك منه إلى الشام ، فيعتبر كل من وقف بآثارهم. والإمام : ما يؤتم به ، ويوصل إلى المقصود من طريق أو غيره. وقيل : وَإِنَّهُما أي : لوط وشعيب ، على طريق من الشرع واضح. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما أهلك اللّه قوما إلا كانوا عبرة لمن بعدهم ، فالعاقل يبحث عن سبب هلاكهم ، فيعمل جهده فى التحرز منه ، والغافل منهمك فى غفلته ، لا يلقى لذلك بالا ، حتى يأتيه ما يوعد. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر قصة صالح عليه السّلام ، فقال :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٨٠ الى ٨٤]

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (٨١) وَكانُوا يَنْحِتُونَ

مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤)

قلت : (بيوتا) : مفعول (ينحتون) ، بمعنى يتخذون ، أو يصنعون. و(آمنين) : حال من فاعل (ينحتون).

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ هم قوم ثمود ، والحجر : واديهم الذي يسكنونه ، وهو بين المدينة والشام. كذبوا صالحا عليه السّلام ، ومن كذّب واحدا من الرسل فكأنما كذّب الجميع لأنهم جاءوا بأمر متفق عليه ، وهو التوحيد ، أو يراد به الجنس ، كما تقول : فلان يركب الخيل ، وإنما يركب فرسا واحدا ، أو يراد به صالح ومن معه من المؤمنين لموافقتهم له فيما يدعو إليه.

وَآتَيْناهُمْ آياتِنا يعنى : الناقة ، وما كان فيها من العجائب ، كسقيها وشربها ودرها ، أو ما نزل على نبيهم من الكتب ، أو ما نصب لهم من الأدلة. فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ : لم ينظروا فيها ، ولم يعتنوا بأمرها.

وَكانُوا يَنْحِتُونَ : يصنعون ، والنحت : النقر بالمعاول فى الحجر والعود وشبهه ، فكانوا يتخذون مِنَ الْجِبالِ بالنقر فيها ، بُيُوتاً يسكنونها آمِنِينَ من الانهدام ، ونقب اللصوص ، وتخريب الأعداء لوثوقها. أو من العذاب لفرط غفلتهم ، أو حسبانهم أن الجبال تحميهم منه. فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ : داخلين فى وقت الصباح ، فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ من بناء البيوت الوثيقة ، واستكثار الأموال والعدد.

(١٠٠/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٠١

الإشارة : من علامة الغفلة عن اللّه : الإنكار على أولياء اللّه ، والإعراض عما خصهم اللّه تعالى به من الآيات وخوارق العادات ، كالعلوم اللدنية والمواهب القدسية ، وكمال المعرفة ، والرسوخ فى اليقين ، وشهود رب العالمين ، مع الاشتغال بعمارة هذه الدار ، ونسيان دار القرار كأنه أمن من الموت من شدة الاغترار. وسبب ذلك : عدم التفكر والاعتبار. ولذلك قال تعالى بإثر قصص من أهلكهم من الأمم الغافلة :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٨٥ الى ٨٦]

وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨٦)

يقول الحق جل جلاله : وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما من الكائنات إِلَّا بِالْحَقِّ أي : إلا خلقا ملتبسا بالحق ، وهو الدلالة على كمال قدرتنا وباهر حكمتنا ، فمن كمال القدرة : إهلاك أهل الفساد ، ودفع شرورهم وإبطال فسادهم ، ومن باهر حكمته أنه لم يهلكهم إلا بسبب عتوهم

وفسادهم. فالحكمة رداء للقدرة ، القدرة تبرز ، والحكمة تستر ، فإظهار الكائنات يدل على كمال القدرة ، وترتيبها على أسباب وشروط يدل على باهر الحكمة. ومن مقتضيات الحكمة : ترتيب الجزاء على العمل ، بحيث لا يهمل عملا ، فأهل الإكرام يترتب إكرامهم وإنعامهم على عملهم الصالح ، واعتقادهم الصحيح ، وما قاسوه من المجاهدة والمكابدة. وأهل الانتقام يترتب الانتقام منهم على عملهم الفاسد ، واعتقادهم الباطل ، وعلى ما قالوا فى الدنيا ، التي هى مزرعة الآخرة ، من الدعة والحظوظ الفانية ، ولذلك رتّب عليه قوله :

وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فيجازى فيها من يستحق الإكرام ، ويعاقب من يستحق الانتقام ، وينتقم لك فيها ممن يكذبونك ، فَاصْفَحِ اليوم الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ولا تعجل بالانتقام ، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم. وكان هذا قبل الأمر بالقتال. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الذي خلقك وخلقهم ، وبيده أمرك وأمرهم ، الْعَلِيمُ بحالك وبحالهم ، فهو الحقيق بأن تتكل عليه حتى يحكم بينك وبينهم. أو : هو الخلاق لأشباحكم وأرواحكم ، العليم بما هو الأصلح لكم فى الوقت ، وقد علم أن الصفح اليوم أصلح. والخلاق أبلغ من الخالق باعتبار اللغة ، وأفعال اللّه تعالى كلها عظيمة كثيرة.

الإشارة : ما نصبت لك الكائنات لتراها بعين الفرق ، بل لترى فيها مولاها بعين الجمع. وما جعل لك هذه الدار لتتخذها دار القرار ، وإنما جعلها قنطرة ومعبرا لدار القرار. إنما جعل لك الدنيا الفانية مزرعة للدار الباقية. وإن الساعة لآتية ، فاصبر فى هذه الدار اللمحة اليسيرة على شدائد الزمان ، وجفوة الإخوان ، واصفح الصفح الجميل ،

حتى ترد النعيم الباقي ، والجزاء الجزيل. وتخلق بأخلاق الحليم الكريم ، إن ربك هو الخلاق العليم ، فلا قدرة لك على شيء إلا بقدرة السميع العليم.

ثم أمر نبيه بالغنى باللّه وبكلامه ، عن التطلع إلى زهرة الدنيا ، والمراد : الأمر بدوامه على ما كان عليه ، فقال :

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٨٧ الى ٩٩]

وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١)

فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ

(٩٤) إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)

قلت : السبع المثاني : هى الفاتحة عند الجمهور ، و(من المثاني) : للبيان ، وعطف القرآن عليها من عطف العام على الخاص. و(أنزلنا) : نعت لمفعول النذير ، أي : أنا النذير عذابا مثل العذاب الذي أنزل على المقتسمين. وقيل :

صفة لمصدر محذوف يدل عليه : (و لقد آتيناك) فإنه بمعنى أنزلنا إليك إنزالا مثل ما أنزلنا على المقتسمين ، وهم ، على هذا ، أهل الكتاب. و(عضين) : جمع عضة. وأصله : عضوة ، من عضوت الشيء : فرّقته ، حذفت لامه ، وعوض منها هاء التأنيث ، فجمع على عضين ، كعزة وعزين. وقيل : أصله : عضة من عضهته : رميته بالبهتان ، قال فى الصحاح : عضهه عضها : رماه بالبهتان. وقد أعضهت ، أي : جئت بالبهتان. فهما قولان فى أصل عضة.

هل هو واوي أو هائى. والموصول مع صلته نعت للمقتسمين.

يقول الحق جل جلاله ، لنبيه عليه الصلاة والسلام : وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي ، وهى فاتحة الكتاب لأنها سبع آيات ، وتثنى – أي : تكرر – فى كل صلاة ، فالمثانى من التثنية ، وقيل : من الثناء لأن فيها الثناء على اللّه تعالى ، وقيل : السبع المثاني هى السبع الطوال ، وهى البقرة وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال مع براءة. ولذلك تركت البسملة بينهما. وكونها مثانى لتثنية قصصها ، أو ألفاظها ، وقيل :

هى الحواميم السبع. وَآتيناك الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ، ففيه الغنية والكفاية عن كل شيء.

لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ : لا تطمح ببصرك طموح راغب إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ أي : أصنافا من الكفار ، من زهرة الحياة الدنيا ، فإنه مستحقر بالإضافة إلى ما أوتيته. وفى حديث أبى بكر : «من أوتى القرآن ، فرأى أن أحدا أوتى من الدنيا أفضل مما أوتى ، فقد صغر عظيما وعظم صغيرا». «١» قال ابن جزى : أي : لا تنظر إلى ما متعناهم به فى الدنيا ، ومعنى الآية : تزهيد فى الدنيا ، كأنه يقول : قد آتيناك السبع المثاني والقرآن العظيم فلا تنظر إلى الدنيا ، فإن الذي أعطيناك أعظم منها. هـ.

وروى أنه صلى اللّه عليه وسلم وافى مع أصحابه أذرعات ، فرأى سبع قوافل ليهود بنى قريظة والنّضير ، فيها أنواع البرّ ، والطيب والجواهر ، وسائر الأمتعة ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقربنا

بها ، ولأنفقناها فى سبيل اللّه ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : «قد أعطيتم سبع آيات هى خير من هذه السبع القوافل». «٢».

وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ : لا تتأسف على كفرهم حيث أنذرتهم فلم ينزجروا ولم يؤمنوا. أو : حيث متعناهم بالدنيا فلم ينتفعوا بها ، ولم يصرفوها فى مرضاة اللّه ، وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ أي : تواضع وألن جانبك للمؤمنين ، وارفق بهم. والجناح ، هنا ، استعارة. وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ : البين الإنذار ، أنذرتكم ببيان وبرهان أن عذاب اللّه نازل بكم إن لم تؤمنوا ، وفى الحديث : «أنا النذير ، والموت مغير ، والقيامة الموعد». أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، وفى حديث آخر : «أنا النّذير العريان». وكانت العرب ، إذا رأى أحدهم جيشا يقصدهم ، تجرد من ثيابه ، ثم أنذر قومه ليصدقوه ، أي : وقل : إنى أنذرتكم أن ينزل بكم عذابه.

كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ، أي : مثل العذاب الذي أنزل على المقتسمين ، وهم أهل الكتاب ، الذين آمنوا ببعض الكتب وكفروا ببعض ، فاقتسموا قسمين. والعذاب الذي نزل بهم هو الذل والهوان وضرب الجزية ، أو تسليط عدوهم عليهم. وقيل : هم كفار قريش اقتسموا أبواب مكة فى الموسم ، فوقف كل واحد منهم على باب ، وكانوا اثنى عشر رجلا ، لينفروا الناس عن الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام ، يقول أحدهم : هو ساحر ، والآخر : هو شاعر ، فأهلكهم اللّه يوم بدر. وقيل : هم الرهط الذين اقتسموا ، أي : تقاسموا ليبيتوا صالحا ، فأسقط اللّه عليهم الغار الذي كمنوا فيه ، فشدخهم.

أو : آتيناك القرآن ، وأنزلناه عليك كما أنزلنا التوراة على المقتسمين ، وهم اليهود ، الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ أي : أجزاء متفرقة ، وقالوا فيه أقوالا مختلفة ، فقالوا عنادا وكفرا : بعضه موافق للتوراة والإنجيل ، وبعضه

---

(١) قال الولي العراقي : لم أقف عليه ، وقال الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف : لم أجده من حديث أبى بكر.

وأخرجه ابن عدى فى الكامل (٢/ ٧٨٧) ، ولفظه : (من تعلم القرآن وظن أن أحدا ...) فذكره من حديث ابن مسعود مرفوعا ..

وراجع الفتح السماوي (٢/ ٧٥٠).

(٢) قال المناوى فى الفتح السماوي : لم أقف عليه. وذكره الواحدي فى الأسباب (٢٨٣) عن الحسين بن الفضل مرسلا.

باطل مخالف لهما. وإذا قلنا المقتسمين : هم كفار قريش ، حيث اقتسموا أبواب مكة ، فقد جعلوا القرآن عضين أجزاء متفرقة ، فقد قسموه إلى شعر وسحر وكهانة وأساطير الأولين ، أو جعلوه بهتانا متعددا ، على تفسير العضة بالبهت.

وفى الحديث : «لعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم العاضهة والمستعضهة»»

أي : الباهتة ، والمستبهتة : الطالبة له.

قال تعالى فى وعيد المقتسمين : فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ من التقسيم والتكذيب ، أو عن كل ما عملوه من الكفر والمعاصي ، وفى البخاري : «لنسألنهم عن لا إله إلا اللّه». فإن قيل : كيف يجمع بين هذا وبين قوله : فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ؟ «٢» فالجواب : أن السؤال المثبت هو على وجه الحساب والتوبيخ ، والسؤال المنفي هو على وجه الاستفهام المحض لأن اللّه تعالى يعلم الأعمال ، فلا يحتاج إلى سؤال. وقيل : فى القيامة مواطن وخوارق ، فموطن يقع فيه السؤال ، وموطن يذهب بهم إلى النار بغير سؤال.

قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ : فاجهر ، وصرح به ، وأنفذه ، من صدع بالحجة :

إذا تكلم بها جهارا. أو : فرّق ، بما تؤمر به ، بين الحق والباطل ، وأصله : الشق والإبانة ، وما : مصدرية ، أو موصولة ، والعائد محذوف ، أي : بما تؤمر به من الشرائع. وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فلا تلتفت إلى ما يقولون ، ولا يمنعك ذلك من تبليغ الوحى والصدع به وإظهاره.

إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بك ، وبما أنزلنا إليك بأن أهلكنا كل واحد منهم بمصيبة تخصه ، من غير سعى من النبي صلى اللّه عليه وسلم فى ذلك. وكانوا خمسة من أشراف قريش : الوليد بن المغيرة ، والعاصي بن وائل ، وعدى بن قيس ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن يغوث ، كانوا يبالغون فى إيذاء النبي صلى اللّه عليه وسلم ، والاستهزاء به ، فقال جبريل للنبى صلى اللّه عليه وسلم :

«أمرت بأن أكفيكهم» فأومأ إلى ساق الوليد فمرّ بنبّال فتعلق بثوبه سهم ، فلم ينعطف لأخذه ، تعظما ، فأصاب عرقا فى عقبه فمات. وقيل : خدش بأسفل رجله فمات من تلك الخدشة. وأومأ إلى أخمص العاص فدخلت فيها شوكة ، فانتفخت حتى صارت كالرحى ، فمات. وأشار إلى أنف الحارث فامتخط قيحا فمات. وأومأ إلى الأسود ابن عبد يغوث ، وهو قاعد فى أصل شجرة ، فجعل ينطح رأسه بالشجرة ، ويضرب وجهه بالشوك حتى مات. وقيل :

استسقى بطنه فمات ، ولعله جمع بينهما. وأومأ إلى عينى الأسود بن المطلب فعمي. وفى السيرة ، بدل عدى بن قيس ، الحارث بن الطلاطلة ، وأن جبريل أشار إلى رأسه فامتخط قيحا فقتله «٣».

---

(١) عزاه فى الفتح السماوي (٢/ ٧٥٢) لابن عدى فى الكامل من حديث ابن عباس ، وفى إسناده

ضعف.

وقوله : العاضهة والمستعضهة : أي : الساحرة والمستسحرة ... انظر النهاية (٣/ ٢٥٥).

(٢) الآية ٣٩ من سورة الرحمن.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط ، كما في المجمع (٧/ ٤٦) ، وأبو نعيم في الدلائل ، (باب قوله : فاصدع بما تؤمر ٢/ ٣١٦) والبيهقي في الدلائل (باب المستهزءون وأسماؤهم) من حديث ابن عباس رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٠٥

وقيل : هم الذين قتلوا ببدر كأبى جهل ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبى معيط. والأول أرجح لأن اللّه تعالى كفاه أمرهم بمكة قبل الهجرة. إلا أن يكون عبّر بالماضي عن المستقبل لتحققه ، أي : إنا سنكفيك المستهزئين الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ يعبدونه من دون اللّه فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ عاقبة أمرهم فى الدارين.

ثم سلّى نبيه عن أذاهم فقال : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ فى جانبنا من الشرك والطعن فى القرآن ، والاستهزاء بك ، فلا تعبأ بهم ، ولا تلتفت إليهم. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ أي : فنزه أنت ذاتنا وصفتنا ، مكان مقالتهم فينا فإن مثلك منزهنا لا غير ، وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ أي : المصلين ، أو : فافزع إلى اللّه فيما نابك وضاق منه صدرك بالتسبيح والتحميد. وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ من المصلين ، يكفك ، ويكشف الغم عنك ، وعنه صلى اللّه عليه وسلم : «أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة» «١» أو : فنزهه عما يقولون ، حامدا له على أن هداك للحق ، وكن من الساجدين له شكرا.

وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ أي : الموت ، فإنه متيقن لحاقه ، وليس اليقين من أسماء الموت ، وإنما العلم به يقين ، لا يمترى فيه ، فسمى يقينا تجوزا. أو : لما كان يحصل اليقين بعده بما كان غيبا سمى يقينا. والمعنى :

فاعبده ما دمت حيا ، ولا تخلّ بالعبادة لحظة. وفى بعض الأحاديث عنه – عليه الصلاة والسلام – أنه قال : «إن اللّه لم يوح إلىّ أن أجمع المال ، وأكون من التاجرين ، وإنما أوحى إلىّ أن : سبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» «٢». أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

الإشارة : يقال للعابد ، أو الزاهد : ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ، تتمتع بحلاوته ، وبالتهجد بتلاوته ، ففيه كفايتك وغناك ، فلا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أصنافا من أهل الدنيا ، الراغبين فيها ، المشتغلين بها عن عبادة خالقها. قيل : لما نزلت هذه الآية قال صلى اللّه عليه وسلم :

«إياكم والنظر فى أبناء الدنيا ، فإنه يقسى القلب ويورث حب الدنيا ، ولا تكثروا الجلوس مع أهل الثروة ، فتميلوا لزينة الدنيا فو اللّه لو كانت الدنيا تزن عند اللّه جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء». وقال صلى اللّه عليه وسلم : «من تواضع لغنى لأجل غناه اقترب من النار مسيرة سنة ، وذهب ثلثا دينه». هذا إن تواضع بجسمه فقط ، فإن تواضع بجسمه وقلبه ذهب دينه كله.

ويقال للعارف : ولقد آتيناك شهود المعاني ، وغيبناك عن حس الأوانى ، حتى شهدت المتكلم بالسبع المثاني ، فسمعت القرآن من منزله دون واسطة. وذلك بالفناء ، عن الوسائط ، فى شهود الموسوط ، حتى يفنى عن نفسه فى حال قراءته.

---

(١) أخرجه بنحوه أبو داود فى (الصلاة ، باب وقت قيام النبي صلى اللّه عليه وسلم الليل) عن حذيفة ، وأخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٨٨) فى قصة الخندق مطولا.

(٢) أخرجه ابن عدى فى الكامل (٥/ ١٨٩٧) والواحدي : فى الوسيط (٣/ ٥٤) والبغوي فى تفسيره (٤/ ٣٩٧) عن جبير بن نفيل ، مرسلا ..

ويقال له : لا تمدن عينيك إلى شهود الحس ، ولا إلى ما متعنا به أصنافا من أهل الحس ، الواقفين مع شهود الحس فإن ذلك يحجبك عن شهود المعاني القائمة بالأوانى ، بل المفنية للأوانى عند سطوع المعاني. ولا تحزن عليهم حيث رأيتهم منهمكين فى الحس فإن قيام عالم الحكمة لا يكون إلا بوجود أهل الحس ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين بخصوصيتك ، وقل : إنى أنا النذير المبين من الاشتغال بالبطالة ، والغفلة ، حتى ينزل بأهلهما ما نزل على المقتسمين ، الذين جعلوا القرآن عضين أجزاء متفرقة فما كان فيه مما يدل على التسهيل لجواز جمع الدنيا واحتكارها والاشتغال بها أخذوا به ، وما كان فيه مما يدل على الزهد فيها ، والانقطاع إلى اللّه عنها ، والتجريد عن أسبابها ، رفضوه. فو ربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون.

فاصدع ، أيها العارف الواعظ ، بما تؤمر من الأمر بالزهد ، والانقطاع إلى اللّه ، ولرفض كل ما يشغل عن اللّه ، ولا تراقب أحدا فى ذات اللّه ، وأعرض عن المشركين ، الذين أشركوا فى محبة اللّه سواه ، وشهدوا الأكوان موجودة مع اللّه ، وهى ثابتة بإثباته ، ممحوه بأحدية ذاته ، فلا وجود لها فى الحقيقة مع اللّه. فإن استهزءوا بك ، وصغروا أمرك ، فسيكفيكهم اللّه. فاشتغل باللّه عنهم ، فلا يضيق صدرك بما فيه يخوضون ، (فسبح بحمد ربك) أي : نزهه عن شهود السّوى معه ، حامدا اللّه على ما أولاك من

نعمة توحيده ، (و كن من الساجدين) للّه شكرا ، وقياما برسم العبودية ، أو : كن من الساجدين بقلبك في حضرة القدس ، حتى يأتيك اليقين «١».

وفي الورتجبي ، في قوله : (و لقد نعلم أنك يضيق صدرك) ، قال : واسى الحقّ حبيبه بما سمع من أعدائه ، وقال له : أنت بمرأى منا ، يضيق صدرك من لطافتك ، بما يقول الجاهلون بنا في حقنا ، مما لا يليق بتنزيهنا ، فنزه أنت صفتنا مكان مقالتهم فينا ، فإنّ مثلك منزهنا لا غير ، وكن من الساجدين حتى ترانا بوصف ما علمت منا ، وتخرج من ضيق الصدر بما تشاهد من جمالنا ، فإذا كنت تعايننا سقط عنك ضيق صدرك من جهة مقالتهم. هـ.

وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) اليقين – هنا – هو الموت. أي : اعبد ربك إلى آخر لحظة من عمرك.

سورة النّحل

مكية ، إلا قوله : وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ ... الآية ، نزلت في غزوة أحد. وهي مائة وثمان وعشرون آية. ومناسبتها لما قبلها قوله : حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ «١» وهو الموت وما بعده من البعث والحساب ، وهو أمر اللّه الذي أشار إليه بقوله :

[سورة النحل (١٦) : آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١)

يقول الحق جل جلاله : أَتى أَمْرُ اللَّهِ أي : البعث والحساب. وعبّر بالماضي لتحقق وقوعه ، أو : ثبت أمره وقضاؤه ، وقد جف القلم بما يكون ، لا عن سؤال واستعجال ، وتدبير من الخلق ، ولو كان كذلك لنافى انفراده بتدبير ملكه ، ولذلك نزه نفسه بقوله : سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ. أو : إهلاك اللّه إياهم يوم بدر ، وكانوا يستعجلون ما أوعدهم الرسول من قيام الساعة ، وإهلاكهم ونصره عليهم ، استهزاء وتكذيبا ولذلك قال :

فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ، والمعنى : أن الأمر الموعود به بمنزلة الماضي ، لتحقق وقوعه من حيث إنه واجب الوقوع فلا تستعجلوا وقوعه ، فإنه لا خير لكم فيه ، ولا خلاص لكم منه.

وروى لما نزل قوله : أَتى أَمْرُ اللَّهِ ، وثب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قائما ، ورفع الناس رؤوسهم ،

فلما قال : فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ، سكن. وكان المشركون يقولون : إن صح ما يقول محمد من قيام الساعة ، فالأصنام تشفع لنا وتخلصنا ، فقال تعالى : سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ أي : تنزه وجلّ عن أن يكون له شريك ، فيدفع ما أراد بهم. هـ.

وقرأ الأخوان بالخطاب ، على وفق قوله : (فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ) ، والباقون بالغيب ، على تلوين الخطاب ، أو على أن الخطاب للمؤمنين ، أي : أتى أمر الله أيها المؤمنون فلا تستعجلوه ، سبحانه وتعالى عما يشركه به المشركون. أو : لهم ولغيرهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إذا أشرق نور اليقين فى صميم القلوب تحقق وقوع ما وعد اللّه به من أمر الغيوب ، فصار الماضي آتيا ، والمستقبل واقعا. وفى الحكم : «لو أشرق نور اليقين فى قلبك ، لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها ، ولرأيت الدنيا وكسفة الفناء ظاهرة عليها». وكذلك المقادير المستقبلة والمواعيد الغيبية ، كلها عند أهل اليقين محققة الوقوع ، واجبة الحصول ، ينتظرون وقوعها فى مواقيتها ، شيئا فشيئا ، ويتلقونها بالمعرفة والأدب فإن كانت جلالية فبالرضى والتسليم ، وإن كانت جمالية فبالحمد والشكر ، هكذا نظرهم دائما إلى ما يبرز من عنصر القدرة ، ليس لهم

---

(١) من الآية الأخيرة من سورة الحجر.

وقت دون ما هم فيه ، ولا أمل دون ما أقامهم الحق تعالى فيه ، ليس لهم عن أنفسهم إخبار ، ولا مع غير اللّه قرار ، ولا يستعجلون ما تأخر وقوعه من أقداره ، ولا يشركون مع اللّه فى تدبيره واختياره. قد هجم عليهم اليقين ، فهم ، فى عموم أوقاتهم ، مستغرقون فى شهود المحبوب ، غائبون عن كل مرغوب ومطلوب ، سوى شهود وجه المحبوب ، جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه. آمين.

وسبب وجود هذا فى قلوبهم حياة روحهم بالإيمان التام ، والمعرفة الكاملة ، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله :

[سورة النحل (١٦) : آية ٢]

يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)

قلت : (أن أنذروا) : مفسرة ، بمعنى أي لأن الوحى فيه معنى القول. أو مصدرية فى موضع الجر ، بدلا من الروح ، أو النصب بنزع الخافض ، أو مخففة من الثقيلة. وقوله : (لا إله إلا أنا) : جرى على المعنى ، ولم يجر على اللفظ ، وإلا لقال : لا إله إلا اللّه. انظر ابن عطية. قال المحشى الفاسى : وسر

ذلك هنا : التصريح بالمقصود ، وأن الإله الواحد هو المتكلم لا غيره ، كما قيل فى قوله : إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ «١» ، أي : ولم يقل : فإياه فارهبوا ، بل نقل الكلام من الغيبة إلى التكلم مبالغة فى الترهيب ، وتصريحا بالمقصود ، كأنه قال : فأنا ذلك الإله الواحد ، فإياى فارهبون لا غير. هـ.

قلت : وكأنه قال هنا : ينزل الملائكة بالوحى أن أعلموا أنه لا يعبد إلا إله واحد ، وأنا ذلك الواحد. يقول الحق جل جلاله ، تحقيقا لما وعدهم به ، وأن ذلك الوعد ، مع دنوه وقربه بالوحى ، فلا خلف فيه ، فقال :

يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ أي : جبريل ، جمعه تعظيما ، أو : لأنه قد ينزل معه غيره من الملائكة ، فيحضرون الوحى حرّسا له. أو : لأنه قد ينزل بالوحى غيره من الملائكة ، كما فى صحيح مسلم : «إن سورة الحمد نزل بها ملك لم ينزل إلى الأرض قبل ذلك» «٢». وقال عليه الصلاة والسلام : «إن إسرافيل وكّل بي فى ثلاث سنين ، فكان يأتينى بالكلمة والكلمتين ، ثم كان جبريل يأتينى بالقرآن فى كل وقت». وروى أن خالد بن سنان كان نبيا ، وكان يأتيه بالوحى مالك خازن النار ، وكان بعد عيسى عليه السّلام ، ولم يبق فى النبوة إلا عشرين يوما ، ثم مات ، فلقصر مدته لم يعد نبيا ، بعد عيسى ونبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وإنما كانت فترة خمسمائة عام. وذكر ابن العربي أن ذا القرنين كان ينزل عليه ملك ، يقال له : رفائيل ، فكان يلقى إليه الوحي ، ويطوى له الأرض. هكذا نقل الشطيبى عنه فى اللباب ، فانظره.

---

(١) من الآية ٥١ من سورة النحل.

(٢) أخرجه بطوله مسلم فى (صلاة المسافرين ، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة) عن ابن عباس رضي اللّه عنه. [.....]

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٠٩

وقوله : بِالرُّوحِ أي : بالوحي ، أو القرآن فإنه سبب حياة القلوب والأرواح الميتة بالجهل والحجاب ، أو سبب حياة الدين بعد موته واندراسه بالكفر فإن الوحي يقوم فى الدين مقام الروح من الجسد. ينزل ذلك مِنْ أَمْرِهِ أي : من أجل أمره وبيان شأنه ، أو بأمره وإذنه ، عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أن يصطفيه للرسالة ، قائلا لهم :

أَنْ أَنْذِرُوا : خوفوا أهل الشرك ، أو أعلموا عبادى أَنَّهُ أي : الأمر والشأن ، لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ بترك الكفر والمعاصي ، أي : اجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية ، بأن توحدوه ، وتطيعوه فيما أمر به.

قال البيضاوي : والآية تدل على أن نزول الوحى بواسطة الملائكة ، وأن حاصله : التنبيه على التوحيد ، الذي هو القوة العلمية ، والأمر بالتقوى الذي هو أقصى كمالات القوة العملية. وأن النبوة عطائية – أي : لا كسبية – ، والآيات التي بعدها دليل على وحدانيته ، من حيث إنها تدل على أنه تعالى هو الموجد لأصول العالم وفروعه ، على وفق الحكمة والمصلحة ، ولو كان له شريك لقدر على ذلك ، فيلزم التمانع. هـ.

الإشارة : قوله تعالى : بِالرُّوحِ : قال الورتجبي : الروح : الوحي الإلهي ، سماه بالروح لأنه كلامه صدر من ذاته ، وهو حياة قلوب الصديقين من المكلّمين والمحدّثين ، وهو سبب حياة قلوب المؤمنين ، يحييهم بعلمه من موت الجهالة. هـ.

وقال القشيري فى قوله : عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ : على الأنبياء بالوحى والرسالة ، وعلى أسرار أرباب التوحيد ، وهم المحدّثون بالتعريف والعلم. فالتعريف للأولياء من حيث الإلهام والخواطر ، أي : الواردات. وإنزال الملائكة على قلوبهم غير ممنوع ، ولكنهم لا يؤمرون أن يتكلموا بذلك ، ولا يحملون الرسالة إلى الخلق. هـ.

قلت : وكأنه ينظر إلى قوله – عليه الصلاة والسلام – : «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل» ، فهم يشاركون الأنبياء فى الوحي الإلهامى ، ولا يبلغون ذلك إلا لمن صدقهم وتبعهم فى طريقهم. واللّه تعالى أعلم.

ثم عرّف بنفسه ، بما أظهر من تجلياته العلوية والسفلية ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٣ الى ٩]

خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤) وَالْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَمَنافِعُ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (٩)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١١٠

قلت : (وَ الْأَنْعامَ) : منصوب بمحذوف ، يفسره : (خَلَقَها) ، أو معطوف على «الإنسان» ، و(خَلَقَها لَكُمْ) : بيان لما خلقت لأجله ، وما بعده تفصيل له. و(مِنْها تَأْكُلُونَ) : إنما قدّم المعمول للمحافظة على رؤوس الآي ، أو : لأن الأكل منها هو المعتمد عليه فى المعاش ، وأما الأكل من غيرها من سائر

الحيوانات المأكولات فعلى سبيل التداوى والتفكه. قاله البيضاوي. قلت : ولعله ، عند مالك ، للاختصاص ، أي : منها تأكلون لا من غيرها إذ لا يؤكل عنده غيرها من البهائم الإنسية.

وقوله : (لَكُمْ) : يحتمل أن يتعلق بما قبلها أو بما بعدها ، ويختلف الوقف باختلاف ذلك. (إِلَّا بِشِقِّ) : فيه لغتان :

الكسر والفتح ، بمعنى التعب والكلفة ، وقيل : المفتوح مصدر شقّ الأمر عليه ، أي : صعب ، والمكسور بمعنى : النصف ، كأنه ذهب نصف قوّته بالتعب. (وَ الْخَيْلَ) : عطف على «الْأَنْعامَ».

و(زِينَةً) : مفعول من أجله ، عطف على موضع «لِتَرْكَبُوها» : أي : للركوب والزينة ، أو مفعول مطلق ، أي : لتتزينوا بها زينة.

يقول الحق جل جلاله : خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ : أوجدهما بِالْحَقِّ أي : ملتبسا بالحق لتدل على وحدانية الحق ، وكمال قدرته وباهر حكمته ، حيث أوجدهما على مقدار مخصوص ، وشكل بديع ، وأوضاع مختلفة ، وهيئات متعددة. أو : خلقهما بقضائه وتدبيره الحق ، لا بمشاركة وتدبير أحد معه ، ولا بمعاونة شريك ولا ظهير ، ولذلك نزه نفسه بقوله : تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ، كما نزه نفسه ، ابتداء ، لمّا نفى الاستعجال لأنه من تدبير الخلق أيضا والصدور عن رأيهم ، وفى معناه : تنزيل الوحى على ما يشاء ، لا على ما يشاء غيره لانفراده أيضا فى ملكه. وفى إبرازه ذلك ، على ما يخالف آراء الخلق ، أدل دليل على وحدانيته فى ملكه ، وإنما وضع كل شىء ودبره دلالة على وحدانيته وهدايته لخلقه إليه.

ثم شفع بخلق الإنسان فقال : خَلَقَ الْإِنْسانَ أي : جنسه مِنْ نُطْفَةٍ : من ماء مهين يخرج من مكان مهين ، فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ : مجادل ، كثير الجدل والخصام ، مبين لحجته ، أو : خصيم : مكافح لخالقه ، قائل :

(من يحيى العظام وهى رميم). روى أن أبىّ بن خلف أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم بعظم رميم ، فقال : يا محمد ، أترى اللّه يحيى هذا بعد ما قد رمّ؟ فقال : «نعم». فنزلت. فعلى الأول : تكون الآية عامة لكل إنسان ، وعلى الثاني : خاصة بالكافر. والأول أظهر.

ولمّا ذكر نعمة الإيجاد ذكر نعمة الإمداد ، فقال : وَالْأَنْعامَ وهى : الإبل والبقر والغنم ، خَلَقَها : أوجدها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ ما يدفأ به فيقى البرد ، يعنى : ما يتخذ من جلود الأنعام وأصوافها من الثياب ، وَلكم

(١١٠/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١١١

فيها أيضا مَنافِعُ أخر كنسلها وظهورها. وإنما عبّر بالمنافع ليتناول عوضها. وَمِنْها تَأْكُلُونَ أي :

تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم والألبان. وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ أي : زينة وبهجة حِينَ تُرِيحُونَ تردونها من مراعيها إلى مراحها بالعشي ، وَحِينَ تَسْرَحُونَ تخرجونها إلى المرعى بالغداة فإن الأفنية والمشارع والطرق تتزين بها فى الذهاب والرواح ، ويجل أهلها فى أعين الناظرين إليها. وقدّم الإراحة لأن الجمال فيها أظهر لأنها تقبل ملأى البطون ، حاملة الضروع ، ثم تأوى إلى الحظائر حاضرة لأهلها. وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ : أحمالكم عليها من الأمتعة وغيرها إِلى بَلَدٍ بعيد ، لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ عليها ، فضلا عن أن تحملوها على ظهوركم ، إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إلا بكلفة ومشقة فديحة ، أو : إلا بذهاب شقها ، أي : نصف قوتها من التعب. إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ حيث رحمكم بخلقها وذللها للحمل ، والركوب عليها ، وأنعم عليكم بالأكل من لحومها وألبانها.

وَخلق لكم الْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها ، وَتتزينوا بها زِينَةً ، أو للركوب والزينة.

قال البيضاوي : وتغيير النظم – أي : حيث لم يقل : وللزينة – لأن الزينة بفعل الخالق ، والركوب من فعل المخلوق – أي : باعتبار الحكمة – ، ولأن المقصود خلقها للركوب ، وأما التزين بها فحاصل بالعرض. وقرئ بغير واو ، فيحتمل أن يكون علة لركوبها ، أو مصدرا فى موضع الحال من الضمير ، أي : متزينين ، أو متزينا بها. واستدلّ به على حرمة لحومها ، ولا دليل فيه إذ لا يلزم من تعليل الفعل بما يقصد منه ، غالبا ، ألا يقصد منه غيره أصلا ، ويدل عليه أن الآية مكية. وعامة المفسرين والمحدثين أن الحمر الأهلية حرمت عام خيبر. هـ. وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ مما لا يحيط البشر بعلمها من عجائب المخلوقات ، وضروب المصنوعات ، مما يؤكل ومما لا يؤكل ، وما خلق فى الجنة والنار ، مما لا يخطر على قلب بشر.

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ أي : وعلى اللّه بيان السبيل القصد ، أي : الطريق الموصل إلى المقصود. أو : على اللّه تقويم طريق الهدى بنصب الأدلة وبعث الرسل ، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أي : السبيل القصد ، أي : القاصد المستقيم الموصل إلى المطلوب كأنه يقصد الوجه الذي يقصده السالك لا يميل عنه. والمراد من السبيل : الجنس ، ولذلك أضاف إليه القصد ، وقال : وَمِنْها جائِرٌ عن القصد ، أو عن اللّه ، كطريق اليهود والنصارى وغيرهم. والسبيل بمعنى الطريق ، يذكر ويؤنث ، وأنّث هنا. وتغيير الأسلوب – أي : حيث لم يقل : قصد السبيل والجائر – لأنه ليس بحق على اللّه أن يبين طريق الضلالة ، ولأن المقصود ، بالأصالة ، بيان سبيله ، وتقسيم السبيل إلى القصد والجائر إنما جاء بالعرض. وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ أي : ولو شاء هدايتكم أجمعين لهداكم إلى قصد السبيل ، هداية مستلزمة للاهتداء. قاله البيضاوي.

الإشارة : هذه العوالم من العرش إلى الفرش كلها نصبت للآدمى ، وخلقت من أجله ، السماوات تظله ، والأرض تقله ، والحيوانات تخدمه وتنفعه ، يتصرف فيها خليفة عن الله فى ملكه. فالواجب عليه شكر هذه النعم ، وألا يقف معها ، ويشتغل بها عن خدمة خالقها. يقول الحق تعالى ، فى بعض كلامة بلسان الحال أو المقال : «يا ابن آدم ، خلقت الأشياء من أجلك ، وخلقتك من أجلى ، فلا تشتغل بما خلق لأجلك عمّا خلقت لأجله». والواجب عليه أيضا من طريق الخصوص : ألا يقف مع حس أجرامها ، دون النفوذ إلى أسرار معانى خالقها ومظهرها لئلا يبقى مسجونا بمحيطاته ، محصورا فى هيكل ذاته ، بل ينفذ إلى فضاء شهود بحر المعاني ، المحيط بالأوانى ، والمفنى لها ، بصحبة شيخ كامل ، يخرجه من سجن الأكوان إلى فضاء شهود المكوّن. وباللّه التوفيق.

وقوله : وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ : اعلم أن الحق – جل جلاله – بيّن طريق الوصول إلى نعيمه الحسى والفوز برضوانه ، وطريق الوصول إلى حضرة قدسه ومحل شهوده وعيانه ، وأرسل الرسل ببيان الطريقين. فوكل ببيان الأولى العلماء ، ووكل ببيان الثانية الأولياء. فالعلماء قاموا ببيان الشرائع الموصلة إلى نعيم الأشباح ، والأولياء العارفون قاموا ببيان الحقائق الموصلة إلى نعيم الأرواح ، وهو النعيم الأكبر قال تعالى : وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ «١». فالرضوان على قسمين :

قوم نالهم الرضوان من طريق الخطاب مع سدل الحجاب ، وهم أهل الشرائع ، وقوم نالهم الرضوان بمكافحة الخطاب ورفع الحجاب ، وهم أهل الحقائق ، وهم المقربون ، نفعنا الله بهم ، وخرطنا فى سلكهم. آمين.

ثم ذكر بقية التجليات ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ١٠ الى ١٦]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلاماتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)

---

(١) من الآية ٧٢ من سورة التوبة.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١١٣

قلت : (لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ) : يحتمل أن يتعلق بأنزل ، أو يكون فى موضع خبر (شَرابٌ) ، أو صفة لماء و(مَواخِرَ) :

جمع ماخرة ، يقال : مخرت السفينة الماء مخرا : شقته ، وقيل : المخر : صوت جرى الفلك فى البحر من هبوب الريح.

وقيل : معناه : تجيىء وتذهب بريح واحدة. و(لِتَبْتَغُوا) : عطف على «لِتَأْكُلُوا» ، و(أَنْ تَمِيدَ) : مفعول من أجله ، أي :

كراهة أن تميد بكم. و(أَنْهاراً وَسُبُلًا) : مفعول بمحذوف ، أي : وخلق أو وجعل أنهارا ، وقيل : معطوف على «رَواسِيَ» لأن ألقى ، فيه معنى الجعل ، و(عَلاماتٍ) : عطف على (أَنْهاراً وَسُبُلًا) ، أو نصب على المصدر ، أي : ألقى ذلك لعلكم تعتبرون ، وعلامات دالة على وحدانيته.

يقول الحق جل جلاله : هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ أي : السحاب ، أو جانب السماء ، ماءً : مطرا لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ تشربونه بلا واسطة ، أو بواسطة العيون والأنهار والآبار لأنه يحبس فيها ، ثم يشرب منها ، لقوله : فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ «١» ، وقوله : فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ «٢» ، وَمِنْهُ شَجَرٌ أي : ومنه يكون شجر ، يعنى : الشجر الذي ترعاه المواشي ، وقيل : كل ما نبت على الأرض فهو شجر ، فِيهِ تُسِيمُونَ :

ترعون مواشيكم ، من أسام الماشية : رعاها ، وأصلها : السومة ، التي هى العلامة لأنها تؤثر بالرعي علامات.

يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ ، وقرأ أبو بكر بالنون على التفخيم ، وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ أي : ومن بعض كل الثمرات إذ لم ينبت فى الأرض كل ما يمكن من الثمار. قال البيضاوي : ولعل تقديم ما يسام فيه على ما يؤكل منه لأنه سيصير غذاء حيوانيا هو أشرف الأغذية – يعنى اللحم – ، ومن هذا : تقديم الزرع ، والتصريح بالأجناس الثلاثة وترتيبها. هـ.

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ، فيستدلون على وجود الصانع وباهر قدرته ، فإن من تأمل الحبة تقع فى الأرض يابسة ، ويصل إليها نداوة تنفذ فيها ، فينشق أعلاها ، ويخرج منه ساق الشجر ، وينشق أسفلها فيخرج منه عروقها ، ثم ينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار ، والأكمام والثمار ، ويشتمل كل منها على أجسام مختلفة الأشكال والطبائع ، مع اتحاد المواد ، علم أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار ، مقدس عن منازعة الأضداد والأنداد ، ولعل وصل الآية به لذلك. قاله البيضاوي باختصار.

---

(١) من الآية ٢١ من سورة الزمر.

(٢) من الآية ١٨ من سورة المؤمنون.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١١٤

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ «١» بأن هيأها لمنافعكم ، مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ ، أي : مذللات لما يريد منها ، وهو حال من الجميع ، أي : نفعكم بها حال كونها مسخرات لله ، منقادة لحكمه ، أو لما خلقن له ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ أي : لأهل العقول السليمة الصافية من ظلمة الغفلة والشهوات ، وإنما جمع هنا ، دون ما قبله وما بعده لأن الأولى راجعة إلى إنزال المطر ، وهو متحد ، والثالثة راجعة إلى ما ذرأ فى الأرض ، وهو متحد فى الجنس والهيئة ، بخلاف العوالم العلوية ، فإنها مختلفة فى الجنس والهيئة. وقال البيضاوي : جمع الآية وذكر العقل لأنها تتضمن أنواعا من الدلالة ظاهرة لذوى العقول السليمة ، غير محوجة إلى استيفاء فكر ، كأحوال النبات. هـ.

وَما ذَرَأَ أي : وسخر لكم ما ذرأ ، فهو عطف على الليل ، أي : سخر لكم ما خلق لكم فى الأرض من حيوانات ونبات ، مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ أبيض وأسود ، أحمر وأصفر ، مع اتحاد المادة ، فالماء واحد والزهر ألوان ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ يتذكرون أن اختلافها فى الألوان والطبائع ، والهيئات والمناظر ، ليس إلا بصنع صانع حكيم.

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ : ذلله بحيث هيأه للتمكن من الانتفاع به بالركوب فيه ، والاصطياد ، والغوص ، لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا هو السمك ، ووصفه بالطراوة لأنه أرطب اللحوم ، فيسرع إليه الفساد ، فيسارع إلى أكله طريا ، ولإظهار قدرته فى خلقه عذبا طريا فى ماء زعاق «٢» أجاج ، واحتج به مالك على أن من حلف ألا يأكل لحما حنث بأكل السمك ، وأجيب بأن مبنى الأيمان على العرف ، وهو لا يفهم منه عند الإطلاق ألا ترى أن الله سمى الكافر دابة ، ولا يحنث من حلف ألا يركب دابة بركوبه. قاله البيضاوي. ويجاب بالاحتياط للحنث فالحنث يقع بأدنى شيء ، بخلاف البر ، لا يقع إلا بأتم الأشياء.

وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً كاللؤلؤ والمرجان ، تَلْبَسُونَها يلبسها نساؤكم ، وأسند اللباس إليهم لأن لباس النساء تزين للرجال «٣» ، فكأنه مقصود لهم ، وَتَرَى الْفُلْكَ : السفن مَواخِرَ فِيهِ جوارى فيه تمخر الماء ، أي : تشقه ، أو تصوت من هبوب الريح ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ

: من سعة رزقه بركوبه للتجارة ، أو : وترى الفلك جوارى فيه لتركبوها ، ولتبتغوا من سعة رزقه. قال ابن عطية : فيه إباحة ركوب البحر للتجارة وطلب الأرباح. هـ. وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أي : تعرفون نعم اللّه فتقوموا بشكرها. ولعل تخصيصه بتعقيب الشكر لأنه أقوى فى باب الإنعام من حيث جعل المهالك سببا للانتفاع ، وتحصيل المعاش. قاله البيضاوي.

---

(١) قرأ حفص وابن عامر : (و النجوم مسخرات) بالرفع على الابتداء ، وقرأ الباقون بالنصب .. انظر

الإتحاف (٢/ ١٨١).

(٢) الزّعاق من الماء : المرّ الغليظ ، لا يطاق شربه ... انظر : لسان العرب (زعق).

(٣) هذا فى المنزل ، وللأزواج فقط ، وأما ما سوى ذلك فهو – أي : اللباس – للتستر والاحتشام ، تعبدا لله ، وطاعة لأمره ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلى جُيُوبِهِنَّ ... الآية.

(١١٤/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١١٥

وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ جبالا رواسى أرست الأرض كراهة أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ تميل وتضطرب لأن الأرض قبل أن تخلق فيها الجبال كانت كرة خفيفة بسيطة ، وكان من حقها أن تتحرك كالسفينة على البحر ، فلما خلقت الجبال تقاومت جوانبها بثقلها نحو المركز ، فصارت كالأوتاد التي تمنعها عن الحركة.

وقيل : لما خلق الله الأرض جعلت تمور – أي : تتحرك – فقالت الملائكة : ما يستقر أحد على ظهرها ، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال.

وَأَنْهاراً أي : وجعل فيها أنهارا تطرد لسقى الناس والبهائم ، وسائر المنافع ، وذكره بعد الجبال لأن الغالب انفجارها منها ، وَسُبُلًا أي : وجعل فيها طرقا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ لمقاصدكم ، أو لمعرفة ربكم ، بالنظر فى دلالة هذه المصنوعات المتقدمة ، على صانعها.

وَجعل فيها عَلاماتٍ : معالم يستدلّ بها السابلة على معرفة الطرق من الجبال ، والمناهل ، والرياح ، وغير ذلك ، وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ إلى الطرق بالليل ، فى البراري والبحار ، والمراد بالنجم : الجنس ، بدليل قراءة : «وبالنّجم» بضمتين على الجمع. وقيل : المراد : الثريا ، والفرقدان وبنات نعش «١» ، والجدى. والضمير لقريش لأنهم كانوا كثيري الأسفار للتجارة ، مشهورين بالاهتداء فى مسايرهم بالنجوم ، وإخراج الكلام عن سنن الخطاب ، وتقديم النجم ، وإقحام الضمير للتخصيص ، كأنه قيل : وبالنجم خصوصا ، هؤلاء خصوصا يهتدون ، يعنى : قريشا ، فالاعتبار بذلك ، والشكر عليهم ألزم لهم وأوجب عليهم. هـ. وأصله للزمخشرى.

الإشارة : هو الذي أنزل من سماء الغيوب ماء ، أي : علما لدنيا تحيا به القلوب ، وتتطهر به النفوس من أدناس العيوب. لكم منه شراب ، أي : خمرة تحيا بها الأرواح ، وتغيب عن حضرة الأشباح ، ويخرج منه على الجوارح أشجار العمل ، تثمر بالأذواق ، فيه تسيمون ، أي : فى أذواق العمل ترعون بنفوسكم وقلوبكم ، ثم ترحلون عنه إلى حلاوة شهود ربكم ، فمن وقف مع حلاوة العمل ، أو المقامات أو الكرامات ، بقي محجوبا عن ربه ، وعليه نبّه صاحب البردة بقوله :

وراعها ، وهى فى الأعمال سائمة وإن هى استحلت المرعى فلا تسم

وقال فى الحكم : «ربما وقفت القلوب مع الأنوار ، كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار».

وقال الششترى :

وقد تحجب الأنوار للعبد مثل ما تبعد «٢» من إظلام نفس حوت ضغنا.

---

(١) الفرقدان : نجمان فى السماء لا يغربان ، انظر اللسان (فرقد). وبنات نعش : سبعة كواكب ، تشاهد جهة القطب الشمالي. انظر (المعجم الوسيط/ نعش).

(٢) فى ديوان الششترى : تقيّد.

ينبت بذلك العلم طعام نفوسكم من قوت الشريعة ، ومصباح قلوبكم من عمل الطريقة ، وثمرة الأعمال فى عوالم الحقيقة ، وفواكه العلوم من مخازن الفهوم. وسخر لكم ليل القبض ، ونهار البسط لتسكنوا فيه لما خصكم فيه من مقام التسليم والرضا ، ولتبتغوا من فضله من فيض العلوم وكشف الغطاء ، فتشرق حينئذ شمس العرفان ، ويستنير قمر الإيمان ، وتطلع نجوم العلم ، كل مسخر فى محله ، لا يستتر أحد بنور غيره ، وهذا مقام أهل التمكين ، يستعملون كل شيء فى محله. وما ذأر لكم فى أرض نفوسكم من أنواع العبادات وأحوال العبودية ، متلونة باعتبار الأزمنة والأمكنة ، وهو الذي سخر بحر المعاني لتأكلوا منه لحما طريا علما جديدا لم يخطر على قلب بشر ، وتستخرجوا منه جواهر ويواقيت من الحكم ، تلبسونها وتتزين قلوبكم وألسنتكم بها.

وترى الفلك ، أي : سفن الفكرة ، فيه مواخر عائمة فى بحر الوحدة ، بين أنوار الملكوت وأسرار الجبروت لتبتغوا من فضله ، وهى معرفة الحق بذاته وأسمائه وصفاته ، ولعلكم تشكرون ، فتقيدوا هذه النعم الجسام لئلا تزول. وألقى فى أرض البشرية جبال العقول لئلا يلعب بها ريح الهوى ، وأجرى عليها أنهارا من العلوم حين انزجرت عن هواها ، وجعل لها طرقا تهتدى بها إلى معرفة ربها ، فتهتدى أولا إلى نجم الإسلام ، ثم إلى قمر توحيد البرهان ، ثم إلى شهود شمس العرفان. وبالله التوفيق.

ولما ذكر دلائل التوحيد ، أنكر على من أشرك بعد هذا البيان ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ١٧ الى ٢٣]

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١)

إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)

قلت : (و ما يشعرون أيان يبعثون) ، الضمير الأول للأصنام ، والثاني للكفار الذين عبدوهم ، وقيل : للأصنام فيهما ، وقيل : للكفار فيهما ، و(لا جرم) : إما أن يكون بمعنى لا شك ، أو لا بد ، أو تكون «لا» نفيا لما تقدم. و«جرم» :

فعل ، بمعنى وجب ، أو حق ، و(أن اللّه) : فاعل بجرم.

يقول الحق جل جلاله : أَفَمَنْ يَخْلُقُ كل شيء ، ويقدر على كل شيء ، كَمَنْ لا يَخْلُقُ شيئا ، ولا يقدر على شيء ، بل هو أعجز من كل شي ء؟ وهو إنكار على من أشرك مع اللّه غيره ، بعد إقامة الدلائل

(١١٦/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١١٧

المتكاثرة على كمال قدرته ، وباهر حكمته ، بذكر ما تقدم من أنواع المخلوقات وبدائع المصنوعات ، وكان حق الكلام : أفمن لا يخلق كمن يخلق ، لكنه عكس تنبيها على أنهم ، بالإشراك باللّه ، جعلوه من جنس المخلوقات العجزة ، شبيها بها. والمراد بمن لا يخلق ، كل ما عبد من دون اللّه ، وغلب أولى العلم منهم ، فعبّر بمن ، أو يريد الأصنام ، وأجراها مجرى أولى العلم لأنهم سموها آلهة ، ومن حق الإله أن يعلم ، أو للمشاكلة بينه وبين من يخلق. أَفَلا تَذَكَّرُونَ فتعرفوا فساد ذلك فإنه لظهوره كالحاصل للعقل الذي يحضر عنده بأدنى تذكر والتفات.

ولما ذكر أنواعا من المخلوقات على وجه الاستدلال على وحدانيته – وفى ضمنها : تعداد النعم على خلقه – أعقبها بقوله : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها أي : لا تطيقوا عدها ، فضلا أن تطيقوا القيام بشكرها. ثم أعقبها بقوله : إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ تنبيها على أن العبد فى محل التقصير ، لو لا أن اللّه يغفر له تقصيره فى أداء شكر نعمه ، ويرحمه ببقائها مع تقصيره فى شكرها.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ من عقائدكم وأعمالكم ، وهو وعيد لمن كفر النعم وأشرك مع اللّه غيره ، سرا أو علانية ، ثم قال تعالى : والذين تدعون «١» أي : والأصنام الذين تعبدونهم مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً لظهور عجزهم. لمّا نفى المشاركة بين من يخلق ومن لا يخلق ، بيّن أنها لا تخلق شيئا ليتحقق نفي الألوهية عنها ضرورة. ثم علل عجزها ، وعدم استحقاقها للألوهية بقوله : وَهُمْ يُخْلَقُونَ أي : وهم مخلوقون مفتقرون فى وجودهم إلى التخليق ، والإله لا بد أن يكون واجب الوجود.

وهم ، أيضا ، أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ أي : لم تكن لهم حياة قط ، ولا تكون ، وذلك أغرق فى موتها ممن تقدمت له حياة ، ثم مات. والإله ينبغى أن يكون حيا بالذات لا يعتريه الممات. وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ

يُبْعَثُونَ أي : لا يعلمون وقت بعثهم ، أو بعث عبدتهم ، فكيف يكون لهم وقت يجازون فيه من عبدهم ، والإله ينبغى أن يكون عالما بالغيوب ، قادرا على الجزاء لمن عبده؟ وفيه تنبيه على أن البعث من توابع التكليف. قاله البيضاوي.

قال ابن جزى : نفى عن الأصنام صفة الربوبية ، وأثبت لهم أضدادها وهى أنهم مخلوقون غير خالقين ، وغير أحياء ، وغير عالمين وقت البعث ، فلما قام البرهان على بطلان ربوبيتهم ، أثبت الربوبية للّه وحده ، فقال : إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ. هـ. وهو تصريح بما أقام عليه الحجج والبراهين بما تقدم.

---

(١) قرأ عاصم ويعقوب : «يدعون» : بالياء. على الالتفات. وقرأ الباقون «تدعون» بتاء الخطاب انظر الإتحاف (٢/ ١٨٢).

ثم ذكر سبب إصرارهم على الكفر – وهو إنكار البعث والتكبر – فقال : فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ أي : فالمنكرون للبعث قلوبهم منكرة لوحدانيته تعالى ، وهم مستكبرون عن اتباع الرسل فيما جاءوا به ، والخضوع لهم لأن المؤمن بالآخرة يكون طالبا للدلائل ، متأملا فيما يسمع ، فينتفع به ، خاضعا للحق ، متبعا لمن جاء به ، بخلاف الكافر ، يكون حاله بالعكس منهمكا فى الغفلة ، متبعا للهوى ، ينكر بقلبه ما لا يعرف إلا بالبرهان «١» ، اتباعا للأسلاف ، وتقليدا لهم ، وركونا إلى المألوف.

قال تعالى تهديدا لمن هذا وصفه : لا جَرَمَ : لا بد ، أو لا شك ، أو حقّ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ ، فيجازيهم عليه إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ مطلقا ، فضلا عن الذين استكبروا عن توحيده واتباع رسوله. ومفهومه : أنه يحب المتواضعين الخاضعيين للحق ، ولمن جاء به ، وهم المؤمنون. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد تضمنت الآية ثلاث خصال من خصال أهل التوحيد : الأولى : رفع الهمة عن الخلق ، وتعلقها بالخالق فى جميع المطالب والمآرب إذ لا يترك العبد من هو خالق كل شىء ، قادر على كل شىء ، دائم لا يموت ، ويتعلق بعبد عاجز ضعيف ، لا يقدر على نفع نفسه ، فكيف ينفع غيره؟ (أ فمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) ، (و الذين تدعون من دون اللّه لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء). وأنشدوا فى هذا المعنى :

حرام على من وحّد اللّه ربّه وأفرده أن يحتذى أحدا رفدا

فيا صاحبى قف بي على الحقّ وقفة أموت بها وجدا ، وأحيا بها وجدا
وقل لملوك الأرض تجهد جهدها فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى
والخصلة الثانية : تذكر البعث وما بعده ، وتقريبه وجعله نصب العين إذ بذلك يحصل الزهد فى هذه الدار الفانية ، والاستعداد والتأهب للدار الباقية ، وبه تلين القلوب ، وتتحقق بعلم الغيوب ، وبه يحصل الخضوع للحق ، والتعظيم لمن جاء به. بخلاف من أنكره ، أو استبعده ، قال تعالى : (فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ).

---

(١) هذا من سمات المؤمنين ، وليس الكافرين ، فالكافرون : لا برهان لهم (.. لا برهان له به ..) ، (قل هاتوا برهانكم ..) .. (قل هل عندكم من علم ..) (لو لا يأتون عليهم بسلطان).
ويرحم اللّه أسلافنا ، علمونا ذلك ، فنقلنا عنهم هذه القاعدة : (إن كنت ناقلا – فالصحة ، وإن كنت مدّعيا : فالدليل) ، واللّه – تقدس وتعالى – أمرنا ألا نتبع إلا ما قام عليه الدليل ، (و لا تقف ما ليس لك له علم) ، والعلم هو ما قام عليه البرهان الجلي.

(١١٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١١٩
الخصلة الثالثة : التواضع والخضوع للّه ، ولمن دعا إلى اللّه ، وهو سبب المحبة من اللّه ، ورفع الدرجات عند اللّه قال صلى اللّه عليه وسلم : «من تواضع للّه رفعه ، ومن تكبر وضعه اللّه». وقال أيضا : «من تواضع دون قدره ، رفعه اللّه فوق قدره». بخلاف المتكبر فإنه ممقوت عند اللّه ، مطرود عن باب اللّه قال تعالى : (إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ). وفى الحديث : «لا يدخل الجنّة من فى قلبه مثقال ذرّة من خردل من كبر» «١» ، أو كما قال صلى اللّه عليه وسلم ، والتكبر : بطر الحق وغمط الناس ، أي : جحد الحق ، واحتقار الناس. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر وصف المتكبرين ، ووبال تكبرهم ، فقال :
[سورة النحل (١٦) : الآيات ٢٤ الى ٢٩]
وَإِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلى إِنَّ اللَّهَ

عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)
فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)
قلت : (ما ذا) ، يجوز أن يكون اسما واحدا مركبا منصوبا ب (أَنْزَلَ) ، وأن تكون (ما) : استفهامية فى موضع رفع بالابتداء ، و(ذا) : بمعنى «الذي» : خبر ، وفى أنزل ضمير محذوف ، أي : ما الذي أنزله ربكم؟ واللام فى (لِيَحْمِلُوا) :
لام العاقبة والصيرورة ، أي : قالوا : هو أساطير الأولين فأوجب ذلك أن يحملوا أوزارهم وأوزار غيرهم ، وقيل : لام الأمر ، و(بِغَيْرِ عِلْمٍ) : حال من المفعول فى (يُضِلُّونَهُمْ) ، أو من الفاعل ، و(تُشَاقُّونَ) : من قرأه بالكسر فالمفعول :
ضمير المتكلم ، وهو اللّه تعالى ، ومن قرأه بالفتح فالمفعول محذوف ، أي : تشاقون المؤمنين من أجلهم. و(ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ) : حال من ضمير المفعول فى : «تتوفاهم».

---

(١) أخرجه مسلم فى (الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه) ، من حديث ابن مسعود – رضى الله عنه.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٢٠
يقول الحق جل جلاله : وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أي : كفار قريش : ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ على رسوله محمد – عليه الصلاة والسلام – ؟ قالُوا : هو أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أي : ما سطره الأولون وكتبوه من الخرافات. وكان النضر بن الحارث قد اتخذ كتب التواريخ ، ويقول : إنما يحدّث محمد بأساطير الأولين ، وحديثى أجمل من حديثه.
والقائل لهم هم المقتسمون ، وتسميته ، حينئذ ، منزلا إما على وجه التهكم ، أو على الفرض والتقدير ، أي : على تقدير أنه منزل ، فهو أساطير لا تحقيق فيه. ويحتمل أن يكون القائل لهم المؤمنين ، فلا يحتاج إلى تأويل.
لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ أي : قالوا ذلك ليضلوا الناس ، فكان عاقبتهم أن حملوا أوزار ضلالهم كاملة ، وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ : وبعض أوزار ضلال من كانوا يضلونهم – وهو حصة التسبب فى الوقوع فى الضلال – حال كونهم بِغَيْرِ عِلْمٍ أي : يضلون من لا يعلم أنهم ضلّال. وفيه دليل على أن الجاهل فى العقائد غير معذور إذ كان يجب عليه أن يبحث عن الحق وأهله ، وينظر فى دلائله وحججه «١».
قال البيضاوي : (بِغَيْرِ عِلْمٍ) : حال من المفعول أي : يضلون من لا يعلم أنهم ضلّال ، وفائدتها :

الدلالة على أن جهلهم لا يعذرهم إذ كان عليهم أن يبحثوا ، ويميزوا بين المحق والمبطل. هـ. وقال المحشى : ففيه ذم تقليد المبطل ، وأن مقلده غير معذور ، بخلاف تقليد المحق الذي قام بشاهد صدقه المعجزة ، أو غير ذلك ، كدليل العقل والنقل فيما تعتبر دلالته. هـ. قلت : ويجوز أن يكون حالا من الفاعل ، أي : يضلّون فى حال خلوهم من العلم ، فقد جمعوا بين الضلال والإضلال.

قال تعالى فى شأن أهل الإضلال : أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ ، أي : بئس شيئا يزرونه فعلهم هذا.

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أي : دبروا أمورا ليمكروا بها الرسل ، فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ أي : قصد ما دبروه من أصله ، فهدمه ، فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وصار ما دبروه ، وبنوه من المكر ، سبب هلاكهم ، وَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ لا يحتسبون ولا يتوقعون ، وهو على سبيل التمثيل. وقال ابن عباس وغيره : المراد به نمرود بن كنعان ، بنى الصرح ببابل ، سمكه خمسة آلاف ذراع ليترصّد أمر السماء ، فبعث اللّه ريحا فهدمته ، فخرّ عليه وعلى قومه ، فهلكوا ، وقيل : إن جبريل عليه السّلام هدمه ، فألقى أعلاه فى البحر ، وانجعف «٢» من أسفله.

---

(١) ما ذكر الشيخ هو كلام المعتزلة – عموما – أما كلام أهل السنة – فيما يختص بمن ثبت له عقد الإسلام – فهو إعذاره بالجهل ، وتبليغه الحجة حتى يتبين له الحق بيانا لا يغيب على مثله ، وحتى يعرف الحق ويميزه ، كما يميز الشمس .. فإن أصر على فعل الشرك أو الكفر بعد هذا فهو كافر ، لا عذر له ، يقول الشوكانى تعليقا على حديث سجود معاذ للنبى صلى اللّه عليه وسلم : «وفى هذا الحديث دليل على أن من سجد – جاهلا – لغير الله ، لم يكفر» وقال فى السيل الجرار : «فلا بد من شرح الصدر بالكفر ، فلا اعتبار بما يقع من طوارئ عقائد الشرك ، لا سيما مع الجهل بمخالفتها لعقائد الإسلام ، إلى غير ذلك مما قرره ابن العربي ، والقاسمى ، وابن القيم وغيرهم ، فى هذه المسائل. فتأملها لأنها خطيرة جدا ، فعدم إحكام هذه الأصول يوقعنا فى جحيم تكفير جهلة المسلمين. والأمر لله.

(٢) يقال : جعفه جعفا : قلبه وقلعه. فانجعف. انظر اللسان : (جعف).

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ : يذلهم ويعذبهم بالنار ، وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ ، أضافها إلى نفسه استهزاء ، أو حكاية لإضافتهم إياها إليه فى الدنيا زيادة فى توبيخهم ، أي : أين الشركاء الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ : تعادون المؤمنين فى شأنهم ، أو تشاقوننى فى شأنهم فإن مشاقة المؤمنين كمشاقته ، أو تحاربون

وتخارجون ، فتكونون فى شق والحق فى شق ، قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وهم الأنبياء والعلماء الذين كانوا يدعونهم إلى التوحيد ، فيشاققونهم ويتكبرون عليهم ، أو الملائكة : إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ : الذلة والعذاب عَلَى الْكافِرِينَ. وفائدة قولهم ذلك لهم : إظهار الشماتة وزيادة الإهانة ، وحكايته ، ليكون لطفا لمن سمعه من المؤمنين ، فيزيد حذرا وحزما فى الطاعة ، وقال الواحدي : إن الخزي اليوم والسوء عليهم لا علينا. هـ. أي : فيقولونه اعترافا واستبشارا بإنجاز ما وعدهم اللّه ، كما قالوا : الحمد للّه الذي هدانا لهذه الهداية.

ثم وصفهم بقوله : الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ تقبض أرواحهم ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ بأن عرضوها للعذاب المخلد ، فَأَلْقَوُا السَّلَمَ أي : استسلموا ، وألقوا القياد من أنفسهم ، حين عاينوا الموت ، قائلين : ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ : من كفر وعدوان ، يحتمل أن يكون قولهم ذلك قصدوا به الكذب اعتصاما به ، كقولهم : وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ «١» ، أو يكونوا أخبروا على حساب اعتقادهم فى أنفسهم ، فلم يقصدوا الكذب ، ولكنه كذب فى نفس الأمر. قال الحسن : هى مواطن ، فمرة يقرون على أنفسهم ، كما قال تعالى : شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ «٢» ، ومرة يجحدون كهذه الآية ، فتجيبهم الملائكة بقولهم : بَلى قد كنتم تعملون السوء والعدوان ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فهو يجازيكم عليه. وقيل : إن قوله : فَأَلْقَوُا السَّلَمَ إلى آخر الآية ، راجع إلى شرح حالهم يوم القيامة ، فيتصل فى المعنى بقوله عز وجل : أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ إلخ ، فيكون الرّاد عليهم بقوله : (بلى) ، هو اللّه تعالى ، أو : أولوا العلم ، ويقوى هذا قوله بعده : فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ لأن دخولها لا يكون إلا بعد البعث والحساب ، لا بعد الموت إذ لا يكون بعد الموت إلا العرض عليها غدوا وعشيا ، والمراد بدخول أبوابها ، أي : التي تفضى إلى طبقاتها ، التي هى بعضها على بعض ، وأبوابها كذلك ، كل صنف يدخل من بابه المعدّ له ، خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى أي : مقام الْمُتَكَبِّرِينَ جهنم.

الإشارة : وإذا قيل لأهل الغفلة والإنكار : ماذا أنزل ربكم ، على قلوب أولياء زمانكم من المواهب وأسرار الخصوصية؟ قالوا : أساطير الأولين ، ثم عوّقوا الناس عن الدخول فى طريقهم لتطهير قلوبهم ، فيحملوا أوزارهم

---

(١) كما حكى عنهم اللّه تعالى فى الآية ٢٣ من سورة الأنعام. [.....]

(٢) من الآية ١٣٠ من سورة الأنعام.

كاملة يوم القيامة حيث ماتوا مصرين على الكبائر وهم لا يشعرون. ويحملون من أوزار الذين يضلونهم عن طريق الخصوص بغير علم ، بل جهلا وعنادا وحسدا ، ألا ساء ما يزرون.

قلت : الذي أتلف العوام عن الدين ثلاثة أصناف : علماء السوء ، وفقراء السوء – وهم أهل الزوايا والنسبة – ، وقراء السوء لأن هؤلاء هم المقتدى بهم ، والمنظور إليهم ، فإذا رأوهم أقبلوا على الدنيا ، وقصروا فى الدين ، تبعوهم على ذلك فضلوا معهم ، فقد ضلوا وأضلوا ، وإذا أنكروا على أولياء الله ، ومكروا بهم ، اقتدوا بهم فى ذلك ، فيتولى اللّه حفظ أوليائه ، ويهدم مكرهم قال تعالى : (فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ) .. الآية ، فإذا كان يوم القيامة أبعدهم عن حضرته ، وأسكنهم مع عوام خلقه. فإذا أنكروا ما فعلوا فى الدنيا ، يقال لهم : (بَلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ، فيخلدون فى عذاب القطيعة والحجاب ، فبئس مثوى المتكبرين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر أضدادهم ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٣٠ الى ٣٢]

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ كَذلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)

قلت : (خَيْراً) : منصوب بفعل محذوف ، أي : أنزل خيرا ، فهو مطابق للسؤال لأن المؤمنين معترفون بالإنزال ، بخلاف قوله : (أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ) فهو مرفوع على الخبر لأنهم لا يقرون بالإنزال ، فلا يصح تقدير فعله. وإنما عدلوا بالجواب عن السؤال لإنكارهم له ، وقالوا : هو أساطير الأولين ولم ينزله اللّه. و(لِلَّذِينَ) : خبر ، و(حَسَنَةٌ) :

مبتدأ ، والجملة : بدل من (خَيْراً) ، أو تفسير الخير الذي قالوه ، والظاهر أنه استئناف من كلام الحق. (جَنَّاتُ عَدْنٍ) :

يحتمل أن يكون هو المخصوص بالمدح ، فيكون مبتدأ ، وخبره فيما قبله ، أو خبر ابتداء مضمر ، أو مبتدأ ، وخبره :

(يَدْخُلُونَها) ، أو محذوف ، أي : لهم جنات عدن. و(طَيِّبِينَ) : حال من مفعول «توفاهم».

يقول الحق جل جلاله : وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا الشرك ، وهم المؤمنون : ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً ، أي : أنزل خيرا ، مقرين بالإنزال ، غير مترددين فيه ولا متلعثمين عنه ، على خلاف الكفرة لمّا ذكر الحق تعالى مقالة الكفار الذين قالوا : أساطير الأولين ، عادل ذلك بذكر مقالة المؤمنين من أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وأوجب لكل فريق ما يستحق من العقاب أو الثواب ، روى أن العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بأخبار النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فإذا جاء الوفد ، وسأل المقتسمين

من الكفار ، قالوا له : أساطير الأولين ، وإذا سأل المؤمنين : ماذا أنزل ربكم؟ قالوا : خيرا. فنزلت الآية فى شأن الفريقين.

(١٢٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٢٣

ثم ذكر جزاء المؤمنين فقال : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا بالإيمان والطاعة ، حَسَنَةٌ أي : حالة حسنة من النصر ، والعز ، والتمكين فى البلاد ، مع الهداية للمعرفة والاسترشاد. وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ أي : ولثواب الآخرة خير مما قدّم لهم فى الدنيا لدوامه ، وصفائه ، وعظيم شأنه ، وعن أنس قال : قال رسول الله صلى اللّه عليه وسلم :

«إنّ اللّه لا يظلم المؤمن حسنة ، يثاب عليها الرزق فى الدّنيا ، ويجازى بها فى الآخرة» «١». وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ دار الآخرة ، حذفت ، لتقدم ذكرها ، أو هى : جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها على الأبد ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ من أنواع المشتهيات حسية ومعنوية ، وفى تقديم الظرف فى قوله : (فِيها) تنبيه على أن الإنسان لا يجد جميع ما يريد إلا فى الجنة. قاله البيضاوي.

كَذلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ الذين قالوا خيرا وفعلوا خيرا ، وأحسنوا فى دار الدنيا حتى ماتوا على الإحسان ، كما قال : الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ : طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي لأنه فى مقابلة ظالمى أنفسهم ، وقيل : فرحين لبشارة الملائكة إياهم بالجنة ، أو طيبين بقبض أرواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية إلى الحضرة القدسية.

قاله البيضاوي. وقال ابن عطية : (طَيِّبِينَ) : عبارة عن صلاح حالهم ، واستعدادهم للموت. وهذا بخلاف ما قال فى الكفرة : (ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ) ، والطيب لا خبث معه ، ومنه قوله تعالى : طِبْتُمْ فَادْخُلُوها «٢». هـ.

وقال الترمذي الحكيم : (طَيِّبِينَ) أي : مستعدين للقاء ، يسلّم عليهم ، ويقال لهم : ادخلوا الجنة بلا هول ولا حساب ، بخلاف غير المستعد للقاء ، فإنما يسلم عليه ، ويقال له : ادخل الجنة بعد أهوال القبر وأهوال القيامة. هـ. وهذا معنى قوله : يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا يلحقكم بعد مكروه. وهذا لأجل الاستعداد كما تقدم. ثم تقول لهم : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بعد بعثكم ، أو بأرواحكم فى عالم البرزخ ، إن كانوا من الشهداء أو الصديقين ، بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فى دار الدنيا.

فإن قلت : كيف التوفيق بين الآية وبين الحديث : «لن يدخل أحدكم الجنّة بعمله ، قالوا : ولا أنت؟ قال : ولا أنا ، إلّا أن يتغمّدنى اللّه برحمته»؟ فالجواب : أن الهداية لصالح العمل ، والتوفيق له ، هو برحمة اللّه أيضا ، فالعمل الصالح رحمة من رحمات اللّه ، فما دخل أحد الجنة إلا برحمته ، فرجعت

الآية إلى الحديث. ومقصد الحديث : نفى وجوب ذلك على اللّه تعالى بالعقل ، كما ذهب إليه فريق من المعتزلة. وهنا جواب آخر صوفى وهو الجمع بين الحقيقة والشريعة ، فنسبة العمل إلى العبد شريعة ، ونفيه عنه ، بإجراء اللّه ذلك عليه ، حقيقة. فالآية سلكت مسلك الشريعة فى

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : جزاء المؤمن بحسناته فى الدنيا والآخرة). من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه.

(٢) من الآية ٧٣ من سورة الزمر.

نسبة العمل للعبد فضلا ونعمة «من تمام نعمته عليك أن خلق فيك ونسب إليك». والحديث سلك مسلك الحقيقة لأن الدين كله دائر بين حقيقة وشريعة ، فإذا شرّع القرآن حققته السّنة ، وإذا شرّعت السّنة حققها القرآن. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : وقيل للذين اتقوا التقوى الكاملة : ماذا أنزل ربكم من المقادير؟ قالوا : خيرا ، فكل ما ينزل بهم من قدر الله وقضائه ، جلاليا كان أو جماليا ، جعلوه خيرا ، وتلقوه بالرضا والتسليم. يقولون : إذا كنت أنت المبتلى ، فافعل ما شئت ، لا يتضعضعون ولا يسأمون ، ولا يشكون لأحد سوى محبوبهم لأن الشكوى تنافى دعوى المحبة ، كما قال الشاعر :

إن شكوت الهوى فما أنت منّا احمل الصّد والجفا يا معنّا
تدّعى مذهب الهوى ثم تشكو أين دعواك فى الهوى ، قل لى : أينا؟
لو وجدناك صابرا لهوانا لأعطيناك كلّ ما تتمنى.

وإنما قالوا ، فى كل ما ينزل بهم : خيرا ، أو جعلوه لطفا وبرا لما يجدون فى قلوبهم ، بسببه ، من المزيد والألطاف ، والتقريب وطى مسافة النفس ، ما لا يجدونه فى كثير من الصلاة والصيام سنين لأن الصلاة والصيام من أعمال الجوارح ، وما يحصل فى القلب من الرضا والتسليم ، وحلاوة القرب من الحبيب ، من أعمال القلوب ، وذرة منها خير من أمثال الجبال من أعمال الجوارح «١».

وفى الخبر : «إذا أحبّ اللّه عبد ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، وإن رضي اصطفاه». وفى صحيح مسلم أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : «عجبا لأمر المؤمن ، إنّ أمره كلّه له خير ، وليس ذلك لأحد إلّا للمؤمن. إن أصابته سرّاء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضرّاء صبر ، فكان خيرا له» «٢» ، وفى البخاري ومسلم أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : «ما يصيب المؤمن من وصب ، ولا نصب ،

ولا سقم ، ولا حزن ، حتى الهمّ يهمّه ، إلا كفّر له من سيئاته» «٣» ، وقال أيضا : صلى اللّه عليه وسلم : «ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه ، إلا حطّ به عنه سيئاته كما تحطّ الشّجرة ورقها». «٤». وروى عن عيسى عليه السّلام أنه كان يقول : لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله لما يرجو بذلك من كفارة خطاياه. هـ. فتحصل أن ما ينزل بالمؤمن كلّه خير ، فإذا سئل : ماذا أنزل ربكم؟ قال : خيرا.

---

(١) ليس هذا مفيدا لتقليل شأن الصلاة والصوم .. إلخ ، وإنما يريدك الشيخ أن تجعل عمل القلب مع عمل الجارحة.

(٢) رواه مسلم فى (الزهد ، باب المؤمن أمره كله خير) ، عن صهيب رضى اللّه عنه.

(٣) رواه البخاري فى (المرض ، باب ما جاء فى كفارة المرض) ، ومسلم فى (البر والصلة ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه) ، عن أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٤) أخرجه البخاري فى (المرض ، باب قول المريض : إنى وجع) ، ومسلم فى (البر والصلة ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض ..) من حديث ابن مسعود – رضى الله عنه.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٢٥

ثم قال تعالى : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا أي : بالرضا عنى فى جميع الأحوال ، والاشتغال بذكرى فى كل حال ، لهم فى الدنيا حَسَنَةٌ : حلاوة المعرفة ، ودوام المشاهدة ، وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لصفاء المشاهدة فيها ، واتصالها بلا كدر إذ ليس فيها من شواغل الحس ما يكدرها ، بخلاف الدنيا لأن أحكام البشرية لا ينفك الطبع عنها ، كغلبة النوم ، وتشويش المرض وغيره ، بخلاف الجنة ، ليس فيها شيء من الكدر ، ولذلك مدحها بقوله : وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ.

ثم قال : كَذلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ لكل ما يشغل عن اللّه الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ، طاهرين ، مطهرين من شوائب الحس ، ودنس العيوب ، طيبة نفوسهم بحب اللقاء ، قد طيبوا أشباحهم بحسن المعاملة ، وقلوبهم بحسن المراقبة ، وأرواحهم بتحقيق المشاهدة. تقول لهم الملائكة الكرام : سلام عليكم ، ادخلوا جنة المعارف إثر موتكم ، وجنة الزخارف إثر بعثكم بما كنتم تعملون من تطهير أجسامكم من الزلات ، وتطهير قلوبكم من الغفلات ، وتطهير أرواحكم من الفترات. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر وعيد أضدادهم ، الذين قالوا فيما أنزل لهم : (أساطير الأولين) ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٣٣ الى ٣٧]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٤) وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٣٧)

يقول الحق جل جلاله : لْ يَنْظُرُونَ

أي : ما ينظر هؤلاء الكفرة ، الذين قالوا فيما أنزل اللّه من الوحى : هو أساطير الأولين ، لَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ

لقبض أرواحهم ، وْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ

: قيام الساعة ، أو العذاب المستأصل لهم فى الدنيا ، ذلِكَ

أي : مثل ذلك التكذيب والشرك ، عَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

، فأصابهم ما أصابهم ، ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ

بإهلاكهم ، لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

لكفرهم ومعاصيهم ، المؤدية إلى عذابهم.

(١٢٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٢٦

فَأَصابَهُمْ جزاء سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا من الكفر والمعاصي ، وهو العذاب ، وَحاقَ أي : وأحاط بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أي : نزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزءون به. والحيق لا يكون إلا فى الشر.

وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كالبحائر والسوائب والحوامي. قالوا ذلك على وجه المجادلة والمخاصمة ، والاحتجاج على صحة فعلهم ، أي : إنّ فعلنا هو بمشيئة اللّه ، فهو صواب ، ولو شاء اللّه ألا نفعله ما فعلناه. والجواب : أن الاحتجاج بالقدر لا يصح فى دار التكليف ، وقد بعث اللّه الرسل بالنهى عن الشرك ، وتحريم ما أحل اللّه ، ونحن مكلفون باتباع الشريعة ، لا بالنظر إلى فعل الحقيقة من غير شريعة فإنه زندقة فالشريعة رداء الحقيقة ، فمن خرق رداء الشريعة ، وتمسك بالحقيقة وحدها ، فقد استحق العقاب ، ولذلك قال تعالى : كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فأشركوا باللّه ، وحرموا ما أحل اللّه ، وردوا رسله.

فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ أي : الإبلاغ الموضح للحق فمن تمسك بما جاءوا به فهو على صواب ، ومن أعرض عنه فهو على ضلال ، ولا ينفعه تمسكه بالحقيقة من غير اتباع الشريعة. والحقيقة هى أنه لا يقع فى ملكه إلا ما يريد ، طاعة كان أو معصية ، كفرا أو إيمانا ، لكن الأمر غير تابع للإرادة ، ونحن مكلفون باتباع الأمر فقط.

ثم بيّن أن البعثة أمر جرت به السنة الإلهية فى الأمم الماضية ، جعلها سببا لهدى من أراد اهتداءه ، وزيادة الضلال لمن أراد إضلاله ، كالغذاء الصالح ، فإنه ينفع المزاج السوي – أي : المعتدل – ويقويه ، ويضر المزاج المنحرف ويعييه ، فقال : وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا قائلا : أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ أي : يأمر بعبادة اللّه وحده واجتناب ما سواه ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وفقهم للإيمان وأرشدهم إليه ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فلم يوفقهم ، ولم يرد إرشادهم فليس كل من تمسك بشيء وأمهل فيه يدل أنه على صواب ، كما ظن المشركون ، بل النظر إلى ما جاءت به الرسل من الشرائع ، وكلها متفقة على وجوب التوحيد وإبطال الشرك.

ثم أمرهم بالنظر والاعتبار بحال من أشرك وكذب الرسل ، فقال : فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ يا معشر قريش ، فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ كعاد وثمود وغيرهم ، لعلكم تعتبرون.

ثم نهى نبيه عن الحرص عليهم فقال : إِنْ تَحْرِصْ يا محمد عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ أي : من يريد إضلاله وقضى بشقائه وهو الذي حقت عليه الضلالة ، وقرأ غير الكوفيين بالبناء للمفعول «١» ، وهو أبلغ ، أي : فإن اللّه لا يهدى من يضله ، أي : لا يهدى غير اللّه من يريد اللّه إضلاله. وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ ليس لهم من ينصرهم يدفع العذاب عنهم.

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي : «يهدى» بفتح الياء وكسر الدال ، على البناء للفاعل ، أي : لا يهدى الله من يضله. وقرأ الباقون : «يهدى» بضم الياء وفتح الدال ، على البناء للمفعول ، يعنى : من أضله الله فلا هادى له. انظر الإتحاف (٢/ ١٨٤) والبحر المحيط (٥/ ٤٧).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٢٧

الإشارة : هل ينظر من عكف على دنياه ، وأكب على متابعة حظوظه وهواه ، إلا أن تنزل الملائكة لقبض روحه ، فيندم حيث لا ينفع الندم ، وقد زلت به القدم ، فيتمنى ساعة تزاد فى عمره فلا يجدها ، أو يأتى أمر ربك أمر يحول بينه وبين العمل الصالح كمرض مزمن ، أو فتنة مضلة. كذلك فعل من قبله ، اغتر بدنياه حتى اختطف لأخراه. وما ظلمهم اللّه ، بل بعث الرسل وأخلفهم بأهل الوعظ والتذكير ،

فحادوا عنهم ، فأصابهم جزاء سيئات ما عملوا من الغفلة والبطالة ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ، من وبال التقصير ، وفوات مقام أهل الجد والتشمير.

وقال الذين أشركوا فى محبة اللّه سواه من الحظوظ وزهرة الدنيا : لو شاء اللّه ما فعلنا ذلك ، محتجين بالقدر ، مع الإقامة على البطالة والخذلان. كذلك فعل من قبلهم من أهل الغفلة ، فهل على الرسل وخلفائهم إلا البلاغ المبين؟ فقد حذّروا من متابعة الدنيا ، وبلّغوا أن اللّه غيور لا يحب من أشرك معه غيره فى محبته ، فقد بعث فى كل أمة وعصر نذيرا ، يأمر بعبادة اللّه وحده ، واجتناب كل ما سواه فمنهم من هداه اللّه ، فاختاره لحضرته ، فلم يحب سواه. ومنهم من حقت عليه الضلالة عن مقام الخصوص ، فبقى فى مقام البعد مكذّبا بطريق الخصوص. فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين كان عاقبتهم الحرمان ولزوم الخذلان. ويقال للعارف المذكّر لمثل هؤلاء : (إن تحرص على هداهم فإن اللّه لا يهدى من يضل) .. الآية. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر مقالة أخرى لأهل الشرك ، وهو إنكار البعث ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٣٨ الى ٤٠]

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ (٣٩) إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠)

قلت : (وَ أَقْسَمُوا) : عطف على (وَ قالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) إيذانا بأنهم ، كما أنكروا التوحيد ، أنكروا البعث ، مقسمين عليه زيادة فى القطع على فساده ، فرد اللّه عليهم بأبلغ رد ، فقال : (بلى). قاله البيضاوي. وتقدم الكلام على «بلى» ، فى البقرة والأعراف «١» ، و(وَعْداً) : مصدر مؤكد لنفسه ، وهو ما دل عليه «بلى» فإن «يبعث» وعد ، أي : بلى ، وعدهم ذلك وعدا حقا ، ونصب ابن عامر ، فيكون عطفا على «نقول» ، أو جوابا للأمر.

يقول الحق جل جلاله : وَأَقْسَمُوا أي : المشركون ، بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ أي : أبلغها وأوكدها ، لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ، فردّ اللّه عليهم بأبلغ رد ، فقال : بَلى يبعثهم وَعْداً عَلَيْهِ إنجازه

---

(١) راجع تفسير الآية ٨١ من سورة البقرة ، والآية ١٧٢ من سورة الأعراف.

حَقًّا ، لا يخلف لامتناع الخلف فى وعده ، أو : لأن البعث مقتضى حكمته لتنزيه فعله عن العبث ،

وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أنهم يبعثون ، إما لعدم علمهم بأنه من موجبات الحكمة ، التي جرت عادته بمراعاتها ، وإما لقصور نظرهم باعتبار المألوف ، ووقوفهم مع العوائد ، فتوهموا امتناعه ، وقالوا : أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ «١» ، ولم ينظروا إلى قدرة اللّه التي لا يعجزها شيء.

ثم بيّن حكمة البعث ، فقال : لِيُبَيِّنَ لَهُمُ أي : يبعثهم ليبين لهم الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وهو الحق من الباطل فإن الناس مختلفون فى أديانهم ومذاهبهم فيبعثهم اللّه ليبين لهم الحق فيما اختلفوا فيه ، فيظهر من كان على الحق ممن كان على الباطل ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ فيما كانوا يزعمون من عدم البعث ، وتمسكهم بالحق ، وهو إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث ، المقتضى له من حيث الحكمة ، وهو التمييز بين الحق والباطل ، والمحق والمبطل.

ثم بيّن كمال قدرته الموجبة للبعث وغيره فقال : إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، فأمره بين الكاف والنون ، فإذا كان إيجاد الأشياء من العدم بلفظ «كن» ، فأولى إعادتها. وكون أمره بين الكاف والنون كناية عن السرعة ، وإلّا فلا يحتاج إلى لفظ «كن» ، بل مهما أراد شيئا ، أظهره أقرب من لحظ العيون ، وإنما جاءت العبارة على قدر ما تفهم العقول ، وعلى هذا فلا يحتاج إلى ما تعسّفه ابن عطية وغيره من كون القول فى الأزل ، وإظهاره فيما لا يزال – يعنى : فى وقت إظهاره – فإن الكلام إنما خرج مخرج الاستعارة أو المجاز ، فلا يتوقف إيجاد الأشياء على «كن». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ترى بعض الجهال يقسمون باللّه جهد أيمانهم : أن اللّه لا يفتح على فلان ، لما يرون فيه من الجهل والغباوة ، أو من الطغيان والمعاصي ، فلا يبعث اللّه روحه بإحيائها بعد موتها ، وتلفها فى عالم الحس ، مع أن القدرة صالحة قال فى الحكم : «من استغرب أن ينقذه اللّه من شهوته ، وأن يخرجه من وجود غفلته ، فقد استعجز القدرة الإلهية ، وكان اللّه على كل شيء مقتدرا». فإن سبقت له العناية يقل الحقّ تعالى فى شأنه : بلى ، يبعثه ، ويحيى روحه بالمعرفة واليقين ، وعدا عليه حقا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن قدرته عامة. فكم من جاهل غبى يخرج منه عالم ولي ، وكم من خصوص خرجوا من اللصوص ، واللّه يختص برحمته من يشاء. يبعثهم ليبين لهم الذي يختلفون فيه من نفوذ قدرته تعالى وعموم تعلقها ، وليعلم الذين كفروا بطريق الخصوص أنهم كانوا كاذبين فيما زعموا (إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).

---

(١) من الآية ٥ من سورة الرعد.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٢٩
ثم ذكر الطريق الموصلة إلى إحياء الأرواح ، فقال :
[سورة النحل (١٦) : الآيات ٤١ الى ٤٢]
وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)
قلت : (الَّذِينَ صَبَرُوا) : نعت للذين هاجروا ، أو على تقدير : (هم) ، أو نصب على المدح.
يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ أي : طلب رضا اللّه ، أو : فى نصر دينه ، أو : طلب معرفته ، مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا من بعد ما ظلمهم الكفار بالإيذاء والتضييق ، وهم : رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه المهاجرون. ظلمهم قريش وضيقوا عليهم ، فهاجر بعضهم إلى الحبشة ، وبعضهم إلى المدينة. قال ابن عطية : الجمهور أنها نزلت فى الذين هاجروا إلى أرض الحبشة لأن الآية مكية ، وهجرة المدينة لم تكن وقت نزول الآية. هـ. قلت :
والمختار : العموم ، ويكون من جملة الإخبار بما سيقع ، أو : هم المحبوسون المعذبون بمكة ، بعد هجرة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهم بلال ، وصهيب ، وعمّار ، وخبّاب ، وأبو جندل بن سهيل «١» ، أو : كل من هاجر من بلده لإقامة دينه.
لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً أي : لننزلنهم فى الدنيا بقعة حسنة ، وهى المدينة ، أو منزلة حسنة ، وهى العز والتمكين فى البلاد ، وكل أمل بلغه المهاجرون ، أو حياة حسنة ، وهى الاستقامة والمعرفة. وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ مما يعجل لهم فى الدنيا من سعة الأموال ، وتعظيم الشأن والحال ، وهو النعيم الدائم.
وعن عمر رضي اللّه عنه : أنه كان ، إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاءه من قسم الغنائم ، يقول له : (خذ ، بارك اللّه لك فيه ، هذا ما وعدك اللّه فى الدنيا ، وما ادخر لك فى الآخرة أفضل) «٢».
والضمير فى قوله : لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ لكفار قريش ، أي : لو علموا أن اللّه يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم. أو للمهاجرين ، أي : لو علموا أن أجر الآخرة خير مما عجل لهم لزادوا فى اجتهادهم وصبرهم.
ثم وصفهم بالصبر والتوكل فقال : الَّذِينَ صَبَرُوا على الشدائد ، كأذى الكفرة ، ومفارقة الوطن ، ونزول الفاقة ، وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فيما نزل بهم ، منقطعين إلى اللّه ، مفوضين إليه الأمر كله ، فآواهم إليه ، وكفاهم كل مؤونة ، ورزقهم من حيث لا يحتسبون.
الإشارة : والذين هاجروا حظوظهم وهواهم ، وكل ما نهى اللّه عنه ابتغاء مرضات اللّه ، أو فارقوا أوطانهم

---

(١) فى الأصول : وأبو جندل وسهيل.
(٢) ذكره البغوي فى تفسيره (٥/ ٢٠).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٣٠

وديارهم فى طلب معرفة اللّه ، كما فعل كثير من الصوفية ، فقلّ أن تجد وليا إلا وهاجر من بلده لإقامة دينه وجبر قلبه ، وإفراغ سره لربه ، من بعد ما ظلموا بإيذاء الخلق – كما هو سنة اللّه فى خواصه – لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ، وهى معرفة الشهود والعيان فى الباطن ، واستقامة الدين والعافية فى الظاهر. هذا فى الدنيا ، ولأجر الآخرة أكبر وأكبر إذ فيه مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر. الذين صبروا على مجاهدة النفوس ، وحط الرءوس ، ودفع الفلوس ، أو على ضروب الفاقات ، ونزول البليات ، وركوب الأهوال والآفات ، إذ لا يأتى الجمال إلا بعد الجلال ، ولا تأتى الحلاوة إلا بعد المرارة.

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتّى تلعق الصبرا «١»

وعلى ربهم يتوكلون ، أي : مفوضين فى أمورهم كلها للّه ، ليس لهم مع اللّه اختيار ، ولا لهم عن أنفسهم إخبار ، بل هم كالميت بين يدى الغاسل. حققنا الله من هذا المقام بالحظ الأوفر .. آمين.

ولا بد من الواسطة فى الوصول إلى هذا ، إما رسول أو خليفته ، كما قال تعالى :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٤٣ الى ٤٤]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)

قلت : (بِالْبَيِّناتِ) : يتعلق بأرسلنا الذي فى أول الآية ، على التقديم والتأخير ، أي : وما أرسلنا إلا رجالا بالبينات ، فاسألوا أهل الذكر ، أو بأرسلنا مضمرا ، وكأنه جواب سائل قال : بم أرسلوا به؟ فقال : بالبينات ، أو : صفة لرجال ، أي :

رجالا ملتبسين بالبينات ، أو : بيوحى. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله ، فى الرد على قريش ، حيث قالوا : اللّه أعظم من أن يكون رسوله بشرا : وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ يا محمد إِلَّا رِجالًا بشرا ، نُوحِي إِلَيْهِمْ «٢» كما يوحى إليك. فليس ببدع أن يكون الرسول بشرا ، بل جرت السنة الإلهية بأن لا يبعث للدعوة العامة إلا بشرا يوحى إليه على ألسنة الملائكة إذ لا يطيق كل البشر رؤية الملائكة ولا التلقي منهم. فإن شككتم فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ : أهل الكتاب ، أو علماءهم الأحبار ، أي :

الذين لم يسلموا ، لأنهم لا يتهمون فى شهادتهم ، من حيث إنهم مدافعون فى صدر ملة محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وأنتم إلى

(١) من قصيدة لأبى الطيب أحمد بن الحسين ، المعروف بالمتنبي.
(٢) قرأ الجمهور : (يوحى) بالياء وفتح الحاء ، وقرأ حفص (نوحى) بالنون وكسر الحاء .. انظر الإتحاف (٢/ ١٨٤). [.....]

(١٣٠/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٣١
تصديق من لم يؤمن من أهل الكتاب أقرب من تصديقكم المؤمنين منهم ، فاسألوهم ليخبروكم : هل كانت الرسل ملائكة أو بشرا ، إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ذلك.
قال البيضاوي : وفى الآية دليل على أنه تعالى لم يرسل امرأة ولا ملكا للدعوة العامة. وأما قوله : جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا «١» فمعناه : رسلا إلى الأنبياء. وقيل : لم يبعثوا إلى الأنبياء إلا متمثلين بصورة الرجال. وردّ بما روى أنه عليه صلى اللّه عليه وسلم رأى جبريل عليه السّلام على صورته التي هو عليها مرتين. وعلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم. هـ. ومفهوم قوله : «الدعوة العامة» : أن الدعوة الخاصة كالأنبياء – عليهم السلام – ، فإن اللّه يبعث إليهم الملك ليعلمهم أمر دينهم.
ثم قال تعالى : بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ أي : أرسلناهم بالمعجزات والكتب. وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ أي : القرآن لأنه تذكير ووعظ ، لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ من الأحكام ، مما أمروا به ونهوا عنه ، ومما تشابه عليهم منه. والتبيين أعم من أن ينص على المقصود ، أو يرشد إلى ما يدل عليه ، كالقياس ودليل العقل. قاله البيضاوي. قال ابن جزى : يحتمل أن يريد : لتبين القرآن بسردك نصّه وتعليمه ، أو لتبين معانيه بتفسير مشكله ، فيدخل فى هذا ما سنته السنة من الشريعة. هـ. وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ فى عجائبه وأسراره ، فيخوضون بسفن أفكارهم فى تيار بحر معانيه وأنواره ، فينتبهون للحقائق والشرائع.
الإشارة : كما لم يبعث اللّه فى الدعوة العامة – وهى دعوة الرسالة – إلا رجالا من البشر ، كذلك لم يبعث اللّه فى الدعوة الخاصة – وهى دعوة الولاية إلى سر الخصوصية – إلا رجالا من البشر أحياء ، يربون التربية النبوية العرفية ، فلا يصلح للتربية النساء لقلة عقلهن «٢» ، ولا الجن لانحرافه عن الاعتدال الذي فى البشر ، ولا الميت لعدم وجود بشريته فإنّ بشرية الحي تمد البشرية ، والروحانية تمد الروحانية. فلا تتهذب البشرية إلا بشهود بشرية الشيخ ، ولا تصفى الروحانية إلا بالقرب من روحانية الشيخ. ولذلك قالوا : الثدي الميتة لا ترضع. وقولنا : «التربية العرفية» أعنى : بالصحبة العرفية ، وأما التربية الغيبية ، على وجه خرق العادة ، كطيران الشيخ إلى المريد ، أو المريد إلى الشيخ ، فلا تجد صاحب هذه التربية إلا منحرفا لإحدى الجهتين ، إما إلى الحقيقة أو إلى الشريعة ، بخلاف التربية العرفية ، فلا يكون صاحبها ، فى الغالب ، إلا معتدلا كاملا.

(١) من الآية الأولى من سورة فاطر.

(٢) هذا رأى الشيخ المفسر ، لكن تاريخ المسلمين لا يمنع من هذا ، وسير الصالحات الزاهدات تبرهن على عكس ذلك ، اقرأ مثلا كتاب ذكر النسوة التعبدات الصوفيات ، لأبى عبد الرحمن السلمى ، وتراجم الصالحات فى سير أعلام النبلاء ، وفى حلية الأولياء وفى صفة الصفوة. وعلى أية حال : من يقوم بتربية الأولاد فى بيوت المسلمين الصالحين؟ ورب امرأة صالحة تربى رجلا ، بل رجالا.

وقوله تعالى : (فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ) هم العارفون باللّه ، فإذا أشكل علينا أمر من أمر القلوب كأسرار التوحيد ، وأمر الخواطر ، رجعنا إليهم لأنهم أهل الذوق والكشف ، يجيبون سائلهم بالهمة والحال ، حتى يقلعوا عروق ما أشكل على السائل ، إن أتاهم متعطشا لهفانا ، وكذا ما أشكل فى أمر الدنيا ، من فعل تريد أن تفعله أو تتركه ، فينبغى الرجوع إليهم لأنهم ينظرون بنور اللّه ، فلا ينطقهم اللّه إلا بما هو حق سبق به القدر. وأما أمور الدين ، فإن كان له علم بالشريعة الظاهرة فالرجوع إليه ، وإن لم يكن له علم بالظاهر ، فالعلماء قائمون بهذا الأمر.

وقوله تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) يفهم منه أن من كان من أهل الفهم عن اللّه ، يأخذ العلم عن اللّه بإلهام أو تجل حقيقى ، فلا يحتاج إلى سؤالهم ، حيث صفت مرآة قلبه ، وقد يكون الولي ذاكرا ، باعتبار قوم ، وغير ذاكر ، باعتبار آخرين ، الذين هم أنهض منه حالا ، وأصوب مقالا. واللّه تعالى أعلم.

ثم هدد أهل المكر بأهل الخصوصية ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٤٥ الى ٤٧]

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٤٧)

قلت : (مَكَرُوا السَّيِّئاتِ) : صفة لمحذوف ، أي : المكرات السيئات ، والتخوّف ، قيل : معناه : التنقص ، وهو أن تنقصهم شيئا فشيئا. روى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صلى اللّه عليه وسلم توقف فى معناها ، فقال على المنبر : ما تقولون فيها؟ فسكتوا ، فقام شيخ من هذيل ، فقال : هذه لغتنا ، التخوف : التنقص. فقال : هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها؟

فقال : نعم. قال شاعرنا أبو كثير يصف ناقته :

تخوّف الرّحل منها تامكا قردا كما تخوّف عود النّبعة السفن «١»

فقال عمر : عليكم بديوانكم لا تضلوا ، قالوا : وما ديواننا؟ قال : شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم. هـ.

يقول الحق جل جلاله : أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا المكرات السيئات برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وبالمؤمنين ، حيث قصدوا ردّ دينه ، وصدوا الناس عن طريقه ، أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ كما خسف بقارون ، أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ أي : بغتة من حيث لا يظنون ، كما فعل بقوم لوط ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ

---

(١) اختلف فى نسبة البيت ، فنسبه الزمخشرى فى تفسيره لزهير ، وأبو حيان لأبى كثير الهذلى ، ونسبه ابن منظور لابن مقبل ، مرة ، ولذى الرمة ، أخرى ، وقوله : تامكا قردا ، أى : سناما مرتفعا ، والنبعة : واحدة النبع ، وهو من شجر الجبال ، والسفن : المبرد.